وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

القانون

رواية



تأليف: روجيه فايان
ترجمة: عبود كاسوحة

روايات مختارة ٢

القـانـون

تصميم الغلاف

خالد يزبك

القانون

رواية

تأليف : روجيه فايان

ترجمة: عبود كاسوحة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١

العنوان الأصلي للكتاب:

LA LOI

Roger Vailland

القانون : رواية / تأليف روجيه فايان ؛ ترجمة عبود كاسوحة .- دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٣٤٤ ص؛ ٢٤ سم.

(روايات مختارة؛ ٢)

١- ٨٤٣ ف ف ا ي ق ٢- العنوان ٣- فايان
٤- كاسوحة ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

«٢»

عن الرواية والروائي

حين تعود من سفر طويل إلى أحد بلاد الغربة، يُقبِلون عليك قائلين:

- حدّثنا عن تلك البلاد.

وتتملكك الحيرة: من أين تبدأ؟

لستَ حيال واقعة واضحة المعالم ضمن حدود الزمان والمكان، بل أنت أمام مجتمع بحاله، أنت في مدينة يعمُرُها أناس من كافة المنازع والمشارب، من فائقي الثراء إلى أفقر الفقراء، وهم يعيشون ويحبون ويتألمون أيضاً. أناس تخفق قلوبهم وتنبض عروقهم دماً وحرارة وحركة، كما لا يحدث إلا على شواطىء البحر المتوسط، وهم في حالة تزاحم دائم ساعين وراء الخبز والحب في آن معاً.

ينتابك مثل هذا الإحساس، وأنت تأتي على السطر الأخير من الصفحة الأخيرة. فالروائي الكبير روجيه فايان لم يقدّم لك عملاً روائياً رائعاً ومتكاملاً فقط، نال عليه بجدارة جائزة غونكور لعام ١٩٥٧، بل اصطحبك في رحلة حقيقية إلى مدينة ساحلية في جنوب إيطاليا، تتدرّج صُعُداً من مياه المرفأ القديم حتى قمة الجبل، التي يتربّع فوقها دير القديسة أورسولا، بنت حاضرة أُوريّا (Uria) القديمة. وعرّفك على مجتمع يبدأ بصيادي الأسماك في الأرض السبخة المستنقعيّة، ويرتقي حتى الأعيان وكبار ملاكي الأراضي وبساتين الزيتون والبرتقال والليمون. راصداً مباهجه كلّها وكافة سفالاته أيضاً .

يعتبر روجيه فايان، الذي ولد في باريس عام ١٩٠٧، وتـألّق روائياً بدءاً من ١٩٤٤ فنال جائزة الحلفاء على روايته «لعبـة غريبـة»، ظـاهرة متميّزة في تاريخ الأدب الفرنسي المعاصر. ومن أشـهر أعمالـه: الطلقـات الخائبةَ، شاب وحده، قاع جميل، ٣٢٥ ألف فرنك، القـانون. ولئن كان قد اتُّـهم زوراً بنظرية «الخلاعة»، فهو بحكم طبيعته العميقة، فيلسوف الانعتاق. وتميّز هذه السِّمة رواياته كلّها فتطبعها بطابعها.

لو كانت ماربيت خليعة - ماربيت الفتاة الفقيرة، ابنة الـسابعة عـشرة، التي تتنقّل حافية، لا يستر جسدها الفتيّ سوى قميص واحـد - لفقـدت فـي نظرك كل احترام. لكنّها وهي تتفجّر ذكاء وشباباً وحيويـة فـي انطلاقتهـا العفوية، تحظى بعطفك واحترامك وتحوز على إعجابك، حتـى لتهتـف مـن الأعماق، مثلما فعل دون سيزار، السيد الكبير المبجّل قائلاً:

- ماربيت، أريدُ لكِ الخير كله.

ولئن ظلّ روائي من هذه الطينة، مجهولاً في بلادنا حتى اليـوم، وهو المتوفى عام ١٩٦٥، فإنّ نقل هذه الرواية الآن إلى العربية يتوافق والمثل القائل:

«فضل متأخر، خير من العدم».

عبود كاسوحة.

القصير، في ٢٠٠٩/٣/٢٥

تقع سراي بورتو مناكوري على زاوية الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي، في مواجهة قصر فريدريك الثاني دو سواب. والسراي بناء أجرد من أربعة طوابق. يقع السجن في الطابق الأرضي ومفوضية الشرطة في الطابق الأول والمحكمة في الثاني. وسكن مفوض الشرطة في الطابق الثالث. في حين يحتل القاضي الطابق الرابع.

تبدو المدينة الصغيرة مقفرة ساعة القيلولة، في شهر آب، إلا من العاطلين عن العمل، الذين لا يبرحون أماكنهم، واقفين بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى، متهدّلي الأذرع، ساكنين صامتين.

يرتفع صوت السجناء من وراء نوافذ السجن العالية منشدين:

«دوري، دوري، يا حلوة دوري...»

وينصت العاطلون عن العمل لغناء السجناء، لكنّهم لا يغنّون.

استفاقت دونا لوكريزيا من رقادها على غناء السجناء.

إنّها لرائعة وهي نصف مستلقية فوق السرير في غرفتها في الطابق الرابع من السراي. تتكيء على مرفقها، ومسحها المفتوح يكشف عن صدرها. أمّا شعرها الأسود فينحدر مبعثراً حتى أسفل ظهرها. لو كانت في فرنسا لرُبما قيل إنّها مفرطة طولاً وقوة. أمّا في هذه المقاطعة من جنوب إيطاليا، حيث تزداد الرغبة في النساء كلّما ازددن سمنة، وأصبحن على أبواب الوضع، فيُنادى بحسنها وجمالها. ولئن لم تكن عيناها واسعتين فإنهما تعبّران تعبيراً قوياً ودائماً عمّا يعتمل داخل نفسها. وغالباً ما ترى فيهما إبّان المرحلة الراهنة من حياتها شيئاً من الغضب والكراهية، أو لامبالاة عدائية.

مذ أن قدِمت بعد زواجها لتقيم في بورتّو مناكوري، قبل عشرة أعوام من الآن، منحها الجميع لقب «دونا»، مع أنّها زوجة قاضٍ من المرتبة الدنيا، وليس من يعرف الكثير عن مرحلة فتوّتها في مدينة فوجيا الكبيرة. فهي واحدة من عدة بنات، لرئيس مكتب في قسم الشرطة. ولا يُطلَق لقب «دونا» في بورتّو مناكوري إلا على ابنة أحد ملاك الأراضي، ذوي المحتد العريق، أو على زوجته. لكن ما من أحد قط ناداها بلقب سينيورا، السيدة، أو «سينيوريا» على نحو ما يقال للأجنبيات. فهي دونا، دومِنا، صاحبة السيادة. مثلها في ذلك مثل إمبراطورة الرومان. والأمر واضح وبادٍ للعيان.

دخل زوجها القاضي اليساندرو الغرفة واقترب منها فأبعدته. فقال:

- ما عدتِ تحبينني.

ولم تجب، بل نهضت واتجهت إلى النافذة لتفتحها قليلا، فغمرت وجهها هبّة من الهواء الساخن. وعلا صوت السجناء بأغنية نابوليتانية حازت على الجائزة الأولى في آخر مهرجان إذاعي. انحنت دونا لوكريزيا فوقع نظرها على يدين تتشبّثان بحافة إحدى كوى السجن. ثم ميّزت عينين واسعتين تحدّقان فيها من بين عوارض الكوّة. ولا بدّ أن يكون الرجل قد أخبر رفاقه، لأنّ عيوناً كثيرةً صارت تلتمع ثم انقطع الغناء. فارتدّت دونا لوكريزيا برأسها الى الخلف.

أخذت الآن تسرّح النظر إلى أمام دون أن تنحني.

استسلم الموظفون للرقاد فوق مقاعد طويلة على سطح قصر البريد، في ظلّ برج فريدريك الثاني دوسواب. وتسلّقت نبتات المدّاد بأزهارها الكبيرة الزرقاء من السطح حتى قمة البرج. إنّ تويجاتها تتفتّح مع الفجر وتنغلق في الساعة الخامسة، حين تدركها الشمس. تلك هي الحال في كلّ صيف من يوم أن جاء بها زوجها، وهي عروس فتيّة، إلى بورتّو مناكوري.

يقف العاطلون عن العمل بمحاذاة الجدران المحيطة بالساحة الكبرى ينتظرون مرور مرابع أو وَقّاف يلزّمه أحد الفعلة. لكن قلّما يحتاج المرابعون

أو الوقّافون لخدمات العاطلين. ذلك أنّ أفراد أسرة الواحد منهم يؤدّون ما يلزم من عمل في بساتين البرتقال والليمون إلى جانب متطلّبات أنواع هزيلة من الزراعة في أراضي بساتين الزيتون العطشى.

انهمك العمال إلى يمين الساحة الكبرى في تعليق المصابيح الكهربائية على أغصان الصنوبرة العملاقة (التي يقال إنّ مورا، ماريشال فرنسا وملك نابولي، قد غرسها بيده). فالبلدية تقيم هذا المساء حفلاً ساهراً للمصطافين.

تنتهي الساحة بسُطَيْحة منبسطة تطلّ على المرفأ والبحر. وترنو دونا لوكريزيا بنظرها الآن إلى البحر. فزرقته هي هي منذ انتهاء الربيع. إنّه هنالك. ومن شهور لم يطرأ على حاله من تغيير.

تقدّم القاضي أليساندرو أكثر فأسند يده إلى كفل زوجته.

سألها قائلاً: «بِمَ تفكّرين؟»

فاستدارت. إنّه أقصر منها قامة. وقد ازداد في الشهور الأخيرة نحولاً حتى تهدّل بنطاله. لاحظت أنّه يرتعد. وتلألأت على صُدغيه حبّات كبيرة من العرق. قالت له: لا شكّ في أنّك نسيت أن تتناول حبّات الكينا. فتوجّه نحو طاولة زينتها وملأ الكأس من الإبريق وابتلع حبّتين وريثتين. إنّه مصاب بالملاريا مثل غالبية السكان في المنطقة.

عندئذ قالت: أنا لا أفكّر أبداً.

انتقل القاضي أليساندرو إلى مكتبه، وفتح مؤلّفاً وصله حديثاً من صاحب مكتبة في فوجيا، عثر عليه مؤخراً من أجله فأرسل إليه، وعنوانه: *«تشريعات الإمبراطور فريدريك الثاني»، طبعة تورينو* ١٨٧٤. إنّ فريدريك الثاني دوسواب، إمبراطور الروم وملك نابولي وصقلية في القرن الثالث عشر، هو البطل الأثير لديه. إلا أنّ الحمّى ارتفعت حتى لم يعد بوسعه متابعة النص. فآثر أن يستلقي فوق الأريكة الضيّقة، حيث بات يمضي لياليه، منذ أن طالبته دونا لوكريزيا بغرفة نوم مستقلّة.

الأطفال يتنازعون في الغرفة المجاورة. فالخادمة لها أن تنام في مكان بارد، مثل حجرة الدرج أو غرفة قلم السجن. إذ ينتابها بعد ظهر أيام الصيف ضيق صدر في غرفتها تحت السقيفة. لذا توجّهت دونا لوكريزيا إلى هناك لتؤدّي ما ينبغي أداؤه، بكل صمت.

تحوّل السجناء الآن إلى أغنية للمطرب شارل ترينيه. فاتخذت في أفواههم كلماتها التي لا يفقهون معانيها ، نغمة شكوى. ويتولّى أحد مكبّرات الصوت، في أماسي الصيف تغطية الساحة الكبرى بفقرات البرنامج الثاني للإذاعة الإيطالية، فقائمة الأغاني التي سيسمعها السجناء لا نهاية لها.

* * *

قال طونيو:

- دعيني أمدّ يدي.

وقرّب يده من النهد المتكوّر تحت القميص الرقيق.

فضربته ماريبت على يده بقسوة.

فقال:

- أتوسّل إليك.

قالت:

- لا أريد.

لقد اختلى بها في زاوية معتمة تحت الدرج الخارجي للدار ذات الأعمدة. فيما شمس آب، شمس برج الأسد، «سوليوني»، تلهب الأرض السبخة المحيطة كلّها. أمّا داخل الدار فالجميع يغطّ في نوم القيلولة الثقيل.

قبض طونيو على معصم الفتاة ودفع بها نحو الحائط والتصق بها. قالت:

- دعني أو أستغيث...

ثم جهدت للتملّص منه إلا أنّه بقي ملاصقاً لها. قال هامساً:

- ماربيت، أحبك. ماربيت، أحبك كثيراً... دعيني فقط ألمس...

- خذ دناءاتك هذه، دناءات الكلاب، وامض بها إلى أختي!

- وافقي فقط... أتخلّ من أجلك عن كلّ شيء... عن أولادي وعن زوجتي وعن دون سيزار... آخذك ونمضي الى الشمال...

ظهرت في تلك اللحظة، عند أعلى الدرج، ماريا، زوجة طونيو، وشقيقة ماربيت الكبرى. لقد تمكّن طونيو من أن يستولدها خمسة أطفالٍ في ستة أعوام. فتهدّل بطنها حتى فخذيها وتهدّل ثدياها حتى بطنها. صاحت به:

- ها أنت تسعى وراءها مرة أخرى.

فقال طونيو:

- إيّاك أن توقظي دون سيزار.

ثم انتهرت أختها قائلة:

- وأنتِ، لم تلاحقينه؟

فقالت ماربيت:

- أنا لا أُلاحقه، إنّما هو الذي يحوم حولي طول الوقت.

قال طونيو حانقاً:

- سوف توقظان دون سيزار.

هنا ظهرت جوليا، والدة ماريا وماربيت، وتقدّمت بدورها حتى أعلى الدرج.

ما زالت جوليا دون الخمسين. لكنّها مشوّهة ودميمة وممسوخة مثل جذور الصبّار التي يقذف بها البحر على الشاطيء. وهي هزيلة ناحلة، مصفرّة البشرة ومحمرّة العينين بسبب الملاريا.

صاحت ماريبت بشقيقتها قائلة:

- لستُ راغبة في زوجك. إنّما هو الذي يلاحقني على الدوام.

وجاء دور جوليا في شنّ الهجوم على ماريبت، فصرخت بها قائلة:

- إن كان هذا المكان لا يروقك، فما عليك سوى الانصراف من هنا.

رفعت ماريبت رأسها نحو أمها وأختها لتردّ قائلة:

- صيحوا واصرخوا ما طاب لكم الصراخ فلست بذاهبة إلى بيت اللومباردي.

فزعقت العجوز جوليا:

- إنك تفضّلين خطف أزواج الأخريات.

هنا انفتح مصراع أحد الأبواب، بين صف الأعمدة في الطابق الأول. وتقدّم دون سيزار فوق الشرفة. فساد الصمت فوراً.

دون سيزار في الثانية والسبعين من العمر. وإذا ما استثنينا شيئاً من البدانة، فهو لمّا يتغيّر مذ أن كان نقيباً في سلاح الفرسان الملكي (عند انتهاء الحرب العالمية الأولى). فوقفته المنتصبة لمّا تتغيّر. وما يزال أفضل قنّاص في المنطقة.

ارتسم طيف إلفيرا من وراء دون سيزار خلف باب الغرفة المعتمة.

إلفيرا بنت العجوز جوليا أيضاً. فماريا في الثامنة والعشرين وإلفيرا في الرابعة والعشرين، أمّا ماريبت ففي السابعة عشرة. لقد كانت كل من جوليا فماريا، على التوالي، عشيقة لدون سيزار. وإلفيرا هي التي تشاطره سريره الآن. أمّا ماريبت فلمّا تزل بنتاً.

قال دون سيزار:

- أصغِ إليّ يا طونيو.

فأجاب طونيو:

- أنا مصغٍ إليك يا دون سيزار.

واقترب من أسفل الشرفة ببنطاله المرقّع، حافي القدمين وبلا قميص. غير أنّ سترته البيضاء كانت منشاة حديثاً. فدون سيزار فرض على أعوانه المقرّبين ارتداء سترات بيضاء نظيفة بشكل دائم. وأصبح طونيو، مذ أن تزوج من ماريا، رجل دون سيزار المقرّب.

يشاهِد دون سيزار من على شرفته الأرض السبخة كلّها. ومن ورائها البحيرة التي يشقّ حوضُها لنفسه درباً، ليصبّ في البحر بين أعواد القصب والخيزران. وتصل مياهها إلى حافة السهلة الترابية أمام درج الدار ذات الأعمدة.

أمّا في البعيد فيرى شاطئ البرزخ بأدراجه الرملية ومن بعده خليج بورتو مناكوري كلّه. ويحدّق دون سيزار في بحر ظلّ بلا حراك منذ شهور. وكرّر طونيو القول:

- أنا مصغٍ إليك يا دون سيزار.

عادت كل من جوليا وماريا إلى داخل الدار. ومضت ماريبت رشيقة الخطى لتتوارى وراء عيدان الخيزران، قاصدة أحد أكواخ القصب التي تؤوي أُسَر صيادي دون سيزار.

قال دون سيزار لطونيو:

- إسمعْ، سوف تتوجّه إلى بورتو مناكوري.

أجاب طونيو:

- سوف أتوجّه إلى بورتو مناكوري.

- تذهب أولاً إلى مركز البريد... ثم إلى بيت دون أوتافيو... ثم إلى دكان الموالح والتبوغ...

كرّر طونيو ذكر الأماكن واحداً فواحداً ليبيّن أنّه أحسن الفهم. وسأله دون سيزار:

- ألن تنسى شيئاً؟

فكرّر طونيو من جديد كلّ ما عليه القيام به.

ثم سأل:

- لكن كيف أذهب إلى بورتو مناكوري؟

فقال دون سيزار:

- وكيف تنوي أنت أن تذهب إلى هناك؟

قال طونيو:

- قد يكون بوسعي ركوب اللامبريتا.

فقال دون سيزار:

- إذا كان يروقك كثيراً أن تأخذ اللامبريتا، فخذ اللامبريتا.

- شكراً، يا دون سيزار.

- والآن لديّ عمل. أنذرْهنّ بعدم إحداث أيّ صخب.

قال طونيو:

- لَسوف يخرسن. أعدك بذلك.

انتهت ساعة القيلولة. ورأى دون سيزار صياديه يخرجون من أكواخ القصب المبعثرة هنا وهناك في الأرض السبخة ويقبلون نحو السهلة الترابية حيث يجففون شباكهم. فدخل إلى غرفته ثم انتقل منها إلى قاعة العاديات.

التحق طونيو بالنساء في القاعة السفلية الكبرى وقال:

- ماريا، أحضري لي حذائي.

- حذاءك؟ ولمَ تريدني أن أحضر لك حذاءك؟

- لقد سمح لي دون سيزار بأن أركب اللامبريتا.

- ولِمَ يسمح لك دون سيزار بأن تركب اللامبريتا؟

- كلّفني بالذهاب إلى بورتو مناكوري.

- ألا تستطيع الذهاب إلى بورتو مناكوري ماشياً؟

- قال لي أن آخذ اللامبريتا.

فقالت ماريا:

- إنّ ضجيج المحرّك يعكّر عليه صفو عمله.

وعقّبت العجوز جوليا قائلة:

- إنّه لم يرتح للمحرّكات يوماً. ولولا غضب الحكومة، لما سمح دون سيزار للطريق بأن تمتد إلى هنا.

وأوضحت إلفيرا الأمر بجلاء قائلة:

- إنّه اليوم رائق المزاج. فهذا الصباح جاءه أحد الصيادين بقطعة أثرية.

أقبلت مارييت تحمل الأسماك للعشاء، فوضعتها تحت سقف الموقد في زاوية القاعة الكبرى. ثم اتجهت إلى النافذة فاتّكأت بمرفقيها على حافتها وأولت الآخرين ظهرها. كانت مارييت عارية تحت قميصها الرقيق الأبيض المنسدل حتى ركبتيها.

مضت ماريا لتحضر حذاء طونيو المعلّق على عارضة خشبية بجانب حذائها وحذائي إلفيرا ومارييت. إنّهنّ لا ينتعلن الأحذية إلا في أيام الأعياد أو لحضور القداس في بورتو مناكوري.

حدّق طونيو بمارييت الواقفة إلى النافذة وظهرها إليه.

وعادت ماريا وهي تحمل الحذاء فسألته:

- بم تحدّق؟

قال طونيو:

- ألبسيني حذائي.

جلس طونيو فوق المقعد الخشبي المواجه لطاولة السيد الفخمة، ذات القائم الوحيد والمصنوعة من خشب الزيتون. أمّا الكنبة الوثيرة الكبرى

المصنوعة في نابولي في القرن الثامن عشر، بخشبها المحفور والمذهّب على مسنديها وظهرها، فما من أحدٍ يجلس عليها قط سوى دون سيزار.

قالت ماريا:

- لا شكّ في أنّ دون سزار قد أصابه الجنون حتى سمح لك بأخذ اللامبريتا. والله يعلم إلى أين ستمضي بها وفي أيّة ساعة ستعود.

ثم جثت أمامه وألبسته حذاءه.

قال طونيو:

- إذا ما لقيتُ دون روجيرو، فسأُثبت له أنّ دراجتنا أسرع من دراجته الفيسبا.

هنا سألته مارييت دون أن تستدير نحوه:

- صحيحٌ إذن، أصحيحٌ أنّ دون سيزار قد سمح لك بركوب اللامبريتا؟

- ولِمَ لا يسمح لي بأخذ اللامبريتا؟ ألستُ رجُلَه المقرّب؟

نظر طونيو إلى مارييت مليّاً. فأشعّة الشمس المائلة نحو المغيب تضيء ظهر الفتاة، وتحيط بالقسم الظليل الذي يرسمه القميص الرقيق بين الفخذين.

ثم تابعت مارييت تقول:

- وأنا أيضاً أجيد قيادة اللامبريتا.

فسألها طونيو:

- ومن علّمك؟

فقالت ماريا لطونيو:

- هل بلغ بك الجنون حدّ جعلها تقود لامبريتا دون سيزار؟

قال طونيو:

- كفى يا امرأة.

ونهض فدلف إلى الإصطبل وأخرج اللامبريتا فأوقفها على منصبها في السهلة الترابية أمام الدار. وخرجت النساء وراءه. ثم برز الأطفال من كل حدب وصوب فاقتربوا منه.

أمّا الصيادون الذين يطوون شباكهم فقد تركوها وأقبلوا فتحلّقوا حوله.

قال طونيو:

- هاتوا لي ماء.

مضت كل من جوليا وماريا لتغرفا سطلين من الماء من مصرف البحيرة. وأفرغ طونيو الماء دلقاً على عجلتي اللامبريتا وعلى الرفرافين. ثم جفّف القطرات العالقة بإسفنجة. ومسحها بقطعة من جلد الغزال.

قال أحد الصيادين:

- هكذا إذن، لقد سمح لك دون سيزار بركوب اللامبريتا؟

فأجابت ماريا:

- الأمر طبيعي.

ظلّت ماريت واقفة على الحياد بجوار الدرج.

بدأ طونيو بفتح صنبور إيصال البنزين إلى المفحّم. ثم تحقّق من وضع مبدّل السرعة على نقطة الصفر. وجرّب حركة مقبض الوقود فأزاحه قليلاً إلى الوراء ثم بعض الشيء إلى الأمام. فعل ذلك كلّه بهيئة من الاستغراق والتفكير العميق.

ازداد الصيادون اقتراباً، والأطفال يتزاحمون بين أرجلهم.

حرّر طونيو دعسة التدوير وضغط بكعب حذائه بقوة. مرة أولى فثانية، ودار المحرّك. بدأ يتلاعب بمقبض الوقود فيعلو صوت المحرّك ويخفت، ويكبر أزيزه ثم يضعف.

قال أحد الصيادين:

- هذه ماكنة حقيقية.

فقال صياد آخر:

- هذه تدور أسرع من الفيسبا بكثير.

وقال ثالث:

- أمّا أنا فأعتقد أنني أفضّل الفيسبا رغم ذلك.

فاستأنف الأول قائلاً:

- إنْ كان دون سيزار قد اشترى لامبريتا، فذلك يعني أنّها أفضل ماكنة.

رفع طونيو المنصب وامتطى السرج وحرّك المقبض حتى بلغت سرعة دوران المحرّك أقصاها، والدرّاجة في مكانها.

أقبلت مارييت مسرعة وقالت:

- خذني معك.

فصرخت بها ماريا قائلة:

- انظري كيف تسعين أنتِ وراءه.

قالت مارييت:

- أنا لا أكترث به. لكني أرغب فقط في أن يردفني على اللامبريتا.

ثم ضغطت بيديها الاثنتين على المقود وقالت:

- طونيو، اسمح لي بأن أركب وراءك.

وقفت ماريا إلى الجانب الثاني من اللامبريتا وأخذت تحدّق فيهما معاً.

فقال طونيو:

- كان ينبغي استئذان دون سيزار.

فردّت مارييت قائلة:

- دون سيزار لا يمانع.

- لا يسعنا أن نجزم في الأمر.

- سأطلب منه بنفسي.

وتدخلت إلفيرا قائلة باستنكار:

- ألا انظروا، إنّها تدّعي لنفسها الجرأة على إزعاج دون سيزار!

فقال طونيو لمارييت:

- فكري أولاً. فدون سيزار لا يسمح بأن يزعجه أحد وهو يعمل.

فردّت قائلة:

- هل أنت رجله المقرّب أم لا؟ خذني معك.

فقال طونيو:

- أنا رجله المقرّب دون أي شك. إلا أنّه كلّفني بمهام ذات ضرورة قصوى. وهذا ما دعاه للسماح لي بأخذ اللامبريتا. وإنّي لأسألك: هل يأخذ المرء فتاة بصحبته إذا كان مكلفاً بمهمة ضرورية؟

فما كان من مارييت إلا أن أرخت المقود وتنحّت.

صاحت به:

- يا شبه امرأة.

ثم استدارت فتوجّهت صوب الدرج.

انطلق طونيو ثم أسرع فتوارى عن الأنظار وراء سياج الخيزران في طريقه نحو الجسر.

لاحق الصيادون بنظراتهم مارييت وهي ترتقي الدرجات. وتبادلوا التعليقات الساخرة بصوتٍ عالٍ جداً حتى تسمعهم.

قال الأول:

- هذه يلزمها رجل.

فعقّب الآخر:

- أمّا والرجل غير متوفر، فقد سعت لتمتطي اللامبريتا.

وأضاف الثالث:

- لكنّ ماكنة مثل هذه، شيء قاسٍ...

وأغرق الثلاثة في الضحك، دون أن يتحوّلوا بأنظارهم عن الفتاة التي كانت مشيتها السريعة تجعل قميصها يلتصق بفخذيها.

ما إن بلغت أعلى الدرج حتى استدارت لتصرخ بهم قائلة:

- الأحرى بكم، أيها الرجال، أن تهرعوا للقاء عنزاتكم!

الواقع أنّ الرجال في الأرض السبخة قد اشتهروا بتفضيلهم معاشرة الماعز على معاشرة نسائهم.

دخلت ماريت الدار وفي أذنيها أزيز اللامبريتا التي تجري الآن، بعد عبور الجسر، على الجانب الآخر من مصرف البحيرة، وراء ستار أعواد الخيزران.

أطال المفوّض أتيليو فترة القيلولة بعض الشيء. واستيقظ على صخب أبناء القاضي اليساندرو ودونا لوكريزيا، والقرقعة التي كانوا يحدثونها في المسكن العلوي.

اتجه عاري الصدر إلى طاولة الزينة فمسح وجهه بماء الخزامى كما مسح إبطيه. إنّه رجل وسيم بهيّ الطلعة في الأربعين من عمره، مشّط شعره بعناية فائقة، وهو يحرص على تثبيت تجعيداته بمستحضر أميركي جديد غير دهني.

كانت عيناه الواسعتان السوداوان محاطتين بهالتين اجتاحتا منتصف وجهه. تناول من على الصيوان القميص الأبيض الذي وضعته زوجته آنّا. فهو في الصيف يبدّل قميصين يومياً. ثم اختار ربطة عنق تلائم بزّته الكتّانية. وأخذ يدندن أغنية شارل ترينيه التي كان السجناء يغنّونها قبل قليل، إلا أنّه يفهم كلماتها. فقد تعلّم الفرنسية في المرحلة الثانوية قبل أن يتخرّج من الجامعة مجازاً في الحقوق.

ارتدى سترته وشدّ أطرافها ليتأكّد من حسن شكلّها. ثم وضع في عروة الصدر قرنفلة قطفها من الأصيص الموضوع على حافة النافذة.

انتقل إلى الصالة ليجد زوجته آنّا ومعها جوزيبينا، ابنة بائع الخـــرداوات في شارع غاريبالدي، وهما تقومان ببعض أشغال الإبرة وحياكة الصوف.

السيدة آنّا امرأة بدينة شقراء مترهّلة. أبوها رجل قضاء مـــن لوتـــشيرا عاصمة المقاطعة القضائية قرب فوجيا. وعائلتها موضع تقـــدير متـــوارث. فاسمها ورد في سجلات القرن الثالث عشر. ويؤكد القاضي أليـــساندرو أنّهـــا سليلة أحد آل سواب الذين اصطحبهم الامبراطور فريديريك الثاني معه حـــين جعل من لوتشيرا عاصمة لمملكته في جنوب إيطاليا.

أمّا جوزيبينا فنحيلة، سوداء الشعر برّاقة العينين، مثل كافـــة المـــصابين بالملاريا. بيد أنّ البرداء لمّا تصبغْ بالصفْرة خديها كما فعلت بالقاضي وبجوليا دون سيزار. فلون بشرتها ما يزال باهتاً كالفخار. ويزعم القاضي أنّها مـــن سلالة المغاربة الذين جنّدهم فريديريك الثاني ضد البابا، حين فقد ثقته بمرتزقته من الجنود الألمان، وكانت فرقة منهم تتّخذ من مناكوري موقعاً لها.

كانت جوزيبينا منهمكة بحياكة صدرية. والبند المنسوج بشكل حلزونـــي سوف يضاعف حجم النهد ويزيد من بروزه. فقد فرضت كل من جينا لولـــو بريجيدا وصوفيا لورين، في ذلك العام، مقـــاييس جـــسدها علـــى الـــشواطئ الإيطالية كلّها.

قالت جوزيبينا:

– يا حضرة المفوّض، لي مطلب عندك، فهل يستجاب؟

فأجاب المفوّض ضاحكاً:

– وهل سبق أن رفضت لكِ طلباً؟

– قل إنّك قد قبلت؟

قالت آنّا:

- إقطعْ لها عهداً.

أجاب المفوّض:

- أرى أنكما متفقتان. هل أرسل فأطلب لكما شيئاً من البوظة؟

فردّت جوزيبينا ضاحكة:

- لسنا بحاجة لمسعاك كي نأكل البوظة. فهاك ما أريد أن أطلب منـــك: إسمح للسيدة آنّا بالذهاب معي غداً إلى الشاطئ.

فأضافت آنّا:

- ذلك هو الطلب.

قال المفوّض:

- لكنّ آنّا ترافقك إلى الشاطئ ومعها الأولاد حينما ترغب في ذلك.

فقالت جوزيبينا بإلحاح:

- لكنك تدرك جيداً ما أرمي إليه.

- قولي ما هو.

- أن تسمح لها بالسباحة معي.

- هذا إذن ما اتفقتما على حبكه؟

- هل توافق؟.

فردّ بلهجة جافة:

- إنّي أرفض.

قالت جوزيبينا:

- الفلاحات وحدهنّ لا يسبحن.

فاحتجّت آنّا قائلةً:

- كيف هو مظهري وأنا بثوب على الـشاطئ، والنــساء الأخريـــات كلّهنّ بالمايوه؟

فواصلت جوزبينا تقول:

- وهذه زوجة المحامي سلغادو نفسها قرّرت أن تسبح في الموسم الحالي.

فقالت آنّا:

- والمايوه الذي تلبسه مكشوف الظهر حتى صُلبها.

قال المفوّض:

- لكنّ دونا لوكريزيا لا تسبح. وأنا على ثقة من أنّها لا تتظلّم.

فهتفت آنّا قائلة:

- ألا تعلم أنّ دونا لوكريزيا هذه أكثر زهواً من أن تسبح في مناكوري؟ لا أدري إن كانت تتنازل فتسبح في ريميني. فهي لا ترضى بما هو أدنى من شاطئ البندقية.

هنا سألته جوزبينا قائلة:

- هل تخشى أن يرى الناس زوجتك بالمايوه؟

- هذا الأمر يخصّني وحدي.

صوّبت جوزبينا عينيها المريضتين نحو عيني المفوّض أتيليو فحدّقت فيهما بإمعان، ثم قالت:

- سوف نناقش المسالة فيما بعد.

فقال:

- آه منك أيتها الشريرة.

قالت آنّا:

- ماذا دهاكما أنتما الإثنين؟

فأجابت جوزبينا:

- زوجك رجل متخلّف، لا يريدك أن تواكبي عصرك. بودّه فقط لو يقوى على احتجازك في أحد الأديرة. لقد كنتِ أسعد حالاً وأنتِ في لونشيرا.

قالت آنّا:

- هذا صحيح.

فقال المفوّض لجوسبينا:

- ستكونين راضيةً كلّ الرضى لوانّها عادت إليها.

- سأرافقها بكل طيبة خاطر.

- لست واثقا بذلك تمام الثقة.

قالت آنّا:

- حسبكما نزاعاً.

كانت قاعة الاستقبال مفروشة حسب طراز مملكة نابولي في القرن التاسع عشر. فالكنبات والأرائك العالية والضيّقة والمنضدة الرخامية من طراز لويس السادس عشر. وتنسدل على النوافذ ستائر من القطيفة الحمراء. كما تغطي سجادة ترتع فيها الأسود والنمور جانباً من الجدار، وتنتصب مرآة عالية ذات إطار من الجبس المذهّب فوق إناء خزفي صيني، غُرِست فيه أزهار اصطناعية وكُلِّل بقطيفة حمراء. أمّا سراج الزيت القديم تحت تمثال السيدة العذراء فقد استبدل به مصباح كهربائي أحمر مضاء على الدوام. ولقد قامت أسرة آنا من لوتشيرا، فقدّمت لها ذلك كلّه، بائنةً يوم زفافها.

قال المفوّض:

- وهذه المرة أيضاً احترق مصباح السيدة العذراء.

تقدّم حتى التمثال فرسم إشارة الصليب ثم نزع المصباح وتوجّه به إلى النافذة ففتح مصراعيها ليتفحّصه على الضوء. ودخلت هبّة من الهواء الساخن مصحوبة بغناء السجناء.

قال المفوّض:

- أجدني للمرة العاشرة ملزماً بتبديل هذا المصباح.

فاصطنعت آنّا شكل قرنين بالسبابة والخنصر. وهذه رُقْيَة تقليدية لتَجَنُّبِ الأرواح الشريرة. ثم قالت:

– هنالك شيء أجهل ما هو في هذا البيت.

فقالت جوزبينا:

– فيه شيء يحقِّق ربحاً لبائع الأدوات الكهربائية.

قال المفوّض:

– أمّا أنتِ، فإنّك لا تؤمنين بشيء.

هنا قامت جوزبينا بلفّ الصدرية التي كانت تحبكها في عدد قديم من جريدة تيمبو، ثم قالت:

– إنّني أومن بما ينبغي للمرء أن يؤمن به.

مدّ المفوّض يده ولمس عانته، وهذه رُقْيَة تقليدية أخرى.

فسألته جوزبينا:

– هل تخشاني يا حضرة المفوّض؟

وأغرقت في الضحك. إنّها هدلاء مثل الزنجيات، وأسنانها صفراء.

قال المفوّض:

– عليّ أن أنزل إلى مكتبي.

فسألته آنّا:

– وهل لديك عمل كثير؟

– هنالك مشكلة المصطاف السويسري...

– ذاك الذي تعرّض لسرقة النصف مليون لير؟

فقال المفوّض:

– أجل، في جوار دارة دون سيزار.

فسألته آنّا قائلة:

- ومن ذا الذي يترك نصف مليون لير في سيارته؟

فأجاب المفوّض ضاحكاً:

- ومن ذا الذي يبيت ليله في الأرض السبخة؟ لقد عرّض نفسه للإصابة بالبرداء.

ونهضت جوزبينا قائلة:

- وأنا أيضاً سأنصرف.

فسألتها آنا :

- أوَ لَمْ تبَكّري بالذهاب؟

- بقي عليّ أن أكوي ثوبي من أجل الحفل هذا المساء.

- فسألها المفوّض:

- وتذهبين إلى الحفل مساءً؟

- ليس لي من زوج يحبسني في الدار.

فقالت آنّا:

- لا تعودا، أنتما الإثنين، للنِّزاع مجدداً.

وخرج المفوّض وجوزبينا في آن واحد.

كانت السراي قصراً قديماً بناه الملوك الأنجوفيون بمواجهة قصر فريديريك الثاني دوسواب، وذلك من بعد هزيمة ابنه، الملك مانفريد، على أيدي هؤلاء. وتزخر سطيحات الأدراج بالزوايا المعتمة.

وهكذا فقد دفع المفوّض أتيليو بجوزبينا إلى زاوية من السور العتيق وأحاطها بذراعيه قائلاً:

- أعطني قبلة.

- كلا.

ووضعت كفّيها المبسوطتين على صدر الرجل ومدّت ذراعيها فأبعدته عنها. إلا أنّها وبالحركة نفسها جعلت بطنها يلتصق به. وضحكت.

- قبلة واحدة فقط.

- كلا.

- البارحة نعم، واليوم كلا... لماذا؟

- هكذا.

كانت على درجة من القوة لم يتمكن المفوّض معها من طيّ ذراعيها الناحلتين اللتين تبعدان كتفيه. وظلت تضحك. لم يكن يرى في تلك الزاوية المعتمة غير عينيها الكبيرتين المحمومتين وشفتيها المكتنزتين المصبوغتين بالأحمر.

قال المفوّض:

- أرجوك.

- أطلب بشكل أفضل!

- أتوسّل إليك.

- قل لي:

- أتوسّل إليك، أيتها الحبيبة جوزيبينا.

- أتوسّل إليك، يا جوزيبينا الحبيبة.

لكنّها ظلت متقوّسة على الجدار وبطنها إلى الأمام وذراعاها تبعدان كتفي الرجل عنها.

- هل ستسمح لزوجتك بمرافقتي إلى الشاطئ غداً صباحاً؟

- أجل.

- وهي تلبس المايوه؟

- أجل.

- أقسِمْ لي على ذلك.

- إني أُقسِمُ على ذلك.

- أقسمْ لي بالعذراء على ذلك.

- أقسم لكِ على ذلك بالعذراء.

أرخت جوزبينا ذراعيها واستسلمت للقبل. إنّها تجيد التقبيل. وداعبها فتركته يفعل.

قال لها:

- سأكون في انتظارك داخل السيارة لدى خروجك من الحفل.

- كلا، فالناس سوف يشاهدوننا.

- أنتظرك إذن عند نهاية الشاطئ الرملي قرب الجسر، ونتوجّه من هنالك إلى غابة الصنوبر.

- أنت تعرف حق المعرفة أنّي لن أصير عشيقة لرجل متزوج.

- لن أفعل إلا ما تقبلين به.

- لكنني أخشى أن أصبح أنا غير قادرة على ردْع نفسي.

- لا بأس.

- وهل تعرف ما شروطي؟

فقال معترضاً:

- لكنّك تتصرّفين كأنّك عشيقتي.

استغلت انهماكه في الحديث فتخلّصت منه، وقالت:

- كلا، فليس الأمر بسيّان أبداً. وهذا من حسن طالعي.

توجّهت نزولاً وقد بدأت تدندن المثل الشائع في جنوب إيطاليا:

«باتشي بيزيكي نو ن فانو بوكي»! [١]

ثم دلفت الدرج ركضاً.

---

(١) القَرْصُ والقُبَل لا تُحدِث ثقوباً.

وقف المفوّض أتيليو عند نافذة مكتبه وأخذ يراقب طونيو وهو يركب اللامبريتا ويدور بها ببطء حول الساحة الكبرى.

ووقف معاونه ينتظر حاملاً عدداً من التقارير في يده. فسأله المفوّض:

- من أين جاء طونيو دون سيزار بالمال ليشتري لامبريتا؟

فأجاب المعاون:

- سبق أن طرحت على نفسي هذا السؤال. ثم أضاف يقول:

- طبعاً استعلمت عن ذلك. ليس لمال السويسري أي دخل في الأمر. إنّ دون سيزار هو الذي اشتراها.

فقال المفوّض:

- هذا ما كان يدور بخلدي، وطونيو أصغر عقلاً من القيام بضربة نصف مليون لير.

ثم ابتسم وأضاف:

- دون سيزار يمتطي لامبريتا. كم بودي لو أرى ذلك.

- لم يسبق لأحد أن رأى دون سيزار على اللامبريتا.

- لِمَ اشتراها إذن؟

- لا بد من وجود فتاة ما وراء ذلك.

- فسأله المفوّض:

- وراء ماذا؟

وضحك. فضحك المعاون بدوره.

قال المفوّض:

- لو كنتُ غنياً مثل دون سيزار لاشتريت سيارة من نوع «ألفا روميو».

- ومن أي طراز؟

- جوليتا. من الطراز الرياضي.

فقال المعاون:

- أمّا أنا فأفضّل سيارة من نوع «لانسيا» طراز «أوريلي».

لم يكن المعاون يملك سيارة، أمّا المفوّض فلديه سيارة من نوع «فيات» ألف ومئة، اشتراها بالتقسيط ويكلّفه التسديد ثلث مرتبه. أمّا القاضي أليساندرو، وهو رجل علم وثقافة، فلديه سيارة عتيقة من نوع توبولينو، اشتراها مستعملة.

عاد المفوّض ومعاونه لبحث قضية السويسري. فالتحقيق يراوح مكانه.

وقعت السرقة قبل خمسة عشر يوماً.

كان السويسري مخيّماً بصحبة زوجته وأولاده الثلاثة، وأعمارهم ثلاثة عشر وخمسة عشر وسبعة عشر عاماً. وهم يتنقلون في سيارة أميركية من نوع قديم صندوقها عالٍ وعجلاتها عريضة، وهذا ما يفسّر قدرتهم على السير بها حتى شاطئ البرزخ الرملي الذي يفصل ما بين البحر وبحيرة دون سيزار المالحة.

وصلوا إلى ذلك المكان قبل وقوع السرقة بيومين. نصبوا خيمتين إلى جانب السيارة، واحدة للرجل والمرأة والأخرى للأولاد.

قاموا في اليومين الأولين بشراء بعض حاجاتهم من عند بساتنة دون سيزار وصياديه.

حين وقعت السرقة ظهراً، كان السويسري يسبح مع أولاده الثلاثة جنباً إلى جنب على بعد خمسين متراً عن الشاطئ، وعلى أقل من مئة وخمسين متراً عن موقع التخييم.

أمّا المرأة فكانت داخل الخيمة تقرأ.

كانت سترة الرجل موضوعة على مقعد السيارة الخلفي وفي جيبها الداخلي محفظة فيها خمس مئة ألف لير، أوراقاً نقدية من فئة العشرة آلاف. أبواب السيارة كانت مغلقة أمّا النوافذ فمفتوحة.

لم يقع نظر الرجل ولا الأولاد ولا الزوجة، على كائن من كان، بدءاً من الساعة الحادية عشرة وحتى الثانية عشرة والنصف، إنْ على مقربة من مخيّمهم أو على مدّ النّظر فوق الشاطئ كلّه.

إنّ البرزخ، بل ذاك الذي يطلقون عليه بالإيطالية اسم «ليدو» شريط رملي تشكّل على مرّ الزمان، من الطمي الذي تجرفه السيول الجبلية. ويصل امتداده إلى عدة كيلومترات بينما يتراوح عرضه، وفقاً للأماكن، ما بين مئة وخمسين وثلاث مئة متر. يتكوّم الرمل كثباناً بمحاذاة البحيرة وينبسط شاطئاً على البحر. ولا سبيل للوصول إليه إلا عبر منفذين: الأول جسر فوق مصرف البحيرة عند أسفل الدار ذات الأعمدة، حيث يقيم دون سيزار، ويسلكه القادم من بورتومناكوري، والثاني في الطرف الآخر ويقوم عنده مركز للجمارك.

كانت شهادة رجال دون سيزار قاطعة: منذ الفجر وحتى الظهر لم يعبر الجسر إلا اثنان من فلاحي كالا لونغا، قاما بقطع شيء من الخيزران في الأرض السبخة ولم يغيبا عن الأعين البتة.

أمّا رجال الجمارك فلم يتقدم إليهم من أحد طالباً الإذن بالعبور.

لم يصل السارق إذن الى البرزخ عن طريق برّي، إلا إذا كان قد اختبأ بين الكثبان من قبل بزوغ الفجر.

لقد قام المفوّض بتفحّص الأماكن. فوجد أنّ من يتخفّى بين ثنايا الكثبان أو وراء شجيرات ندى البحر، يتمكّن من الاقتراب بأمان ليصبح على بعد خمسين متراً من المخيم. لكن أنّى للمرء أن يبلغ الكثبان دون أن يراه رجال دون سيزار؟ تلك هو السؤال الذي ما انفكّ رجال الشرطة يتداولونه.

قال معاون المفوّض:

- إنّي لأتساءل، على كل حال، عمّا كانت تلك السويسرية تقرأ... حتى لم ترَ ولم تسمعْ شيئاً... كانت تطالع قصصاً داعرة دون شك...

فعقّب المفوّض قائلاً:

- لكنّ السويسريات باردات.

- لو كنّ باردات حقاً لما قصدن بلادنا بحثاً عن الذكور.

فسأله المفوّض باهتمام بالغ:

- وهل قامت هنا بمغامرة ما؟

أجاب المعاون:

- لا، فيما أعلم.

فقال المفوّض:

- مثل هذه الأشياء لا تخفى عن أحد. فما إن يتعلّق الأمر بالإناث حتى يعجز رجالنا عن ضبط ألسنتهم...

سُمع طرق خفيف على الباب ودخل القاضي أليساندرو. كان هو الآخر منشغلاً بقضية السويسري. وقد حمل البريد الذي جرى توزيعه بعد الظهر، رسالة من النيابة العامة في لوتشيرا، تطالبه بـ «التعجيل» في استكمال التحقيق في الدعوى التي رفعها المصطاف ضد مجهول. فالقنصلية السويسرية في روما بذلت مساعي لدى وزارة الداخلية. علماً بأنّ السويسري عضو في مجلس إدارة شركة قامت بتوظيف مبالغ كبرى في صناعة النفط الإيطالية...

أعرب المفوّض عن دهشته قائلاً:

- رجلٌ من أصحاب رؤوس الأموال! وبدلاً من النوم في فندق فخم، تجده يلهو بالتخييم فوق كثيب مجاور لأرض سبخة موبوءة بالملاريا؟ إنّها فكرة سويسرية حقاً...

فردّ القاضي بادي الاستياء:

- لو إنّكم ألقيتم القبض على السارق، لما تعرّضتُ أنا للوم النيابة العامة.

لقد ارتدى القاضي سترة صوفية قديمة قبل نزوله إلى مكتب المفوّض. كان يذرع المكان جيئة وذهاباً لامع العينين مرتعداً والعرق يتصبّب منه.

قال المفوّض:

- على رِسْلِكَ، يا صديقي العزيز، تفضّل بالجلوس، أتوسّل إليك.

أراح القاضي جسده فوق كنبة تقابل المكتب.

وانتقل المعاون إلى القاعة المجاورة تاركاً الباب مفتوحاً.

أشعل القاضي سيجارة. لكنّ الحمّى تجعل للتبغ طعماً مرّاً. فسحق السيجارة. قدّم المفوّض عرضاً لمراحل التحقيق.

لم يأتِ المخبرون بشيء حتى الآن. ولم يُلحَظْ إنفاق مبلغ غير عادي، إنْ في مناكوري أو في المدن المجاورة. ولا حتى في بورتو ألبانيزي أو فوجيا، كما لم تحمْ أية شبهة حول دور المتعة أو محلات الصاغة.

- إنّها أول مرّة يصبح فيها نصف مليون لير قيد التداول في مناكوري دون أن يلحظ أحد ذلك...

هتف القاضي ساخطاً:

- ما من احد يترك ثروة كهذه مرميّة بإهمال فوق مقعد سيارة.

فقال المفوّض:

- ذلك أنّهم في سويسرا لا يسرقون.

فردّ القاضي بعنف ظاهر قائلاً:

- ذلك أنّ السويسريين يأكلون حتى الشبع.

فخفض المفوّض صوته قائلاً:

- خذني بحلمك يا صديقي العزيز. فمعاوني يسمعك ولن يتوانى عن القول إنك اشتراكي.

فخفّف القاضي من حدّة صوته وهو يضيف:

- ألا ترى في ذلك استفزازاً؟ أليس استفزازاً إهمالُ نصف مليون ليـر على ذلك النحو، في بلد يعجّ بالعاطلين ويزخر بأنــاس يتــضوّرون جوعــاً؟ لــَكــَمْ كان بودّي إلقاءُ القبض على السويسري نفسه.

فردّ المفوّض قائلاً:

- مهمّتي أنا، إلقاءُ القبض على السارق، غير أنّ صديقك دون ســيزار لا يسهّل عليّ المهمّة.

وعاد ثانية فعرض رأيه في القضيّة.

لم يتمكّن السارق من أن يقترب من المخيّم إلا متخفيّاً بين ثنايا الكثبان.

لا بأس، ولكن كيف تمّ وصوله إلى الكثبان؟ إمّا سيراً على الأقــدام أو في مركب. لا بأس. لم يأتِ السارق سيراً على الأقدام وإلا لَكان شُوهد. لقــد جاء إذن في مركب. إنّ من يستخدم أحد قوارب الأرض السبخة أو البحيــرة يتمكّن، إذا ما سلك كافة أشكال الممرات والمعابر بين القصب، مــن التــسلل حتى الكثبان بعيداً عن الأنظار. لا بأس. لكنّ رجال دون سيزار وحدهم، دون سواهم، يعرفون أماكن المعابر بين القصب ولديهم القسم الأكبــر مــن تلــك القوارب. إذن، إمّا أن يكون السارق من داخل دار دون سيزار، أو أنّ له فيها أحد المتواطئين.

ذلك هو رأي المفوّض في القضية.

والواقع أنّ دون سيزار لم يقبل إلا أن يحضر بنفسه عملية استجواب رجاله.

استغرق ذلك نهاراً بطوله، فكنت تراه جالساً بكلّ المهابة، على الكنبــة الضخمة التي مسندها وظهرها من الخشب المحفور المذهّب، في حــين قعــد المفوّض ورجال الشرطة على أرائك خشبية. وحين يُقدّر دون سيزار أنّ أيــاً من رجاله قد أجاب بما فيه الكفاية، كان يقول له: «هيا، انصرف».

ويضجّ رجال الشرطة بالشكوى. إذ لا تزال لديهم أسئلة واستفسارات.

فيجيب دون سيزار باقتضاب:

- إنّني أعرفه. لم يعد لديه ما يقول لكم.

ثم يقول للرجل: «انصرف».

كان من المستحيل استجواب النساء، فقد حظر عليهن الإجابة. قال:

- أنا الكفيل الضامن لبراءة النساء والفتيات في داري.

وفي اليوم التالي، حظر دون سيزار على المفوّض دخول داره.

حاول رجال الشرطة جاهدين متابعة التحقيق. فهم يقصدون إلى هذا أو ذاك من الأكواخ المبعثرة فوق الأرض السبخة. إلا أنّ الأكواخ كانت تخلو من ساكنيها لدى اقترابهم منها. وقد لا يقعون فيها إلا على عجوز شمطاء لم تعد ترى أو تسمع. «ماذا بوسعي أن أقول لكم يا سادة؟» وما كان لرجال الشرطة أن يغامروا بالتجوّل وسط الأرض السبخة. فكثيرة هي الأكواخ التي لا يمكن بلوغها إلا على ظهر قارب. وقوارب تلك البقاع أخف واسطة إبحار. فهي تقوم على تجميع ثلاثة دفوف الواحد منها إلى الآخر، وقعرها مسطّح. وهي ضيّقة وحروفها عالية ورقيقة إلى درجة تبدو معها غير قابلة للتوازن إلا بتأثير دفعها السريع لحظة الانطلاق، والمياه هناك لا عمق لها، فما إنْ تغمس يدك فيها حتى تلامس الطين، وهو وحل سحيق بلا قرار يلتهم ثم يبتلع ثم يطوي.

تلك البقعة السبخة مقطّعة هنا وهناك بمعابر من الردم. ويشاهَد فيها دون سيزار ماشياً بخطى كبيرة وعلى ذراعه بندقية، يتبعه طونيو حاملاً الجعبة، بحثاً عن «طيور الحديد» التي ورد ذكرها في أسطورة ديوميد. وهي من الطيور الخاصة بالبحيرة والأرض السبخة. إنّه يمرّ دون أن يتفوّه بكلمة أو يلقي نظرة في اتجاهك. وعليك والحال هذه أن تقف متوازناً على حافة المعبر كي لا يلقي بك أرضاً لحظة مروره. أمّا طونيو فيسير على خطاه بسترته البيضاء المنشاة، صامتاً مثله أيضاً. إنّهما يسيران دونما ضجة

بأحذيتهما المطاطية ويتواريان وراء القصب. ويُسْمَع فجأة صفقٌ أجنحة يتلوه طلق ناري، يلي ذلك انزلاق قاربٍ بين القصب.

قال القاضي:

- علينا أن نفهم دون سيزار. لقد نشأ وسط التقاليد الإقطاعية وأصبح الآن أكبر سناً من أن يتحرّر منها.

فهتف المفوّض قائلاً:

- تلك هي العادة دائماً، فحين يدور الحديث على هفوات أحد كبار الملاّك، يتطوّع أحد الاشتراكيين للدفاع عنه.

فهتف القاضي بدوره قائلاً:

- فلنصادِرْ ممتلكاتهم، فلنصادِرْها، على أن لا يكون ذلك لصالح الكهنة...

ثم انخرط الاثنان كعهدهما دائماً في نزاع سياسي ونقاش حاد. فالمفوّض ديمقراطي مسيحي.

دار طونيو على اللامبريتا دورة أخرى حول الساحة، متمهّلاً.

تابعه العاطلون بأنظارهم. إنّ عيونهم في حركتها أشبه ما تكون بقرص دوار الشمس، فهي عالقة باللامبريتا وتدور معها في الوقت نفسه حول الساحة. تلك هي طريقتهم في النظر. فالزمن الطويل الذي أمضوه وقوفاً بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى أنساهم عادة تحريك رؤوسهم. فهم يشخصون بأبصارهم، وأحداقهم تتحرك ببطء داخل محاجر الأعين، مثل الميدوسات التي تبدو ساكنة بين المدّ والجزر في حين أنّها تقطع أشواطاً بعيدة، ولا يغيب من شيء عن أنظارها.

لقد أنجز طونيو المهام التي كلّفه بها دون سيزار كلّها. إنّه يحمل في جيبه مئتي لير، أخذها في غفلة عن عيني زوجته ماريا. وهو يتساءل عمّ عساه يفعل بهذا المبلغ. إنّ مئتي لير تمثّل نصف أجر امرأة عاملة في اليوم أو ثلث أجر الفاعل، أو ثمن نصف كأس من الويسكي في منهل نادي

الرياضة (ما من أحد هنا يشرب الويسكي حسب ما هو معروف، والزجاجة موضوعة هناك بانتظار اليوم الذي يلتهب فيه الحماس على شاطئ مناكوري، كما يقال). وتمثل مئتا لير أيضاً ثمن مئتي غرام من زيت الزيتون أو ليترين من النبيذ أو دخلة واحدة إلى المبغى. لكن ليس في بورتو مناكوري من مبغى، ولابد من دفع ست مئة لير أخرى أجرة باص للوصول إلى أقرب واحد في بورتو البانيزي.

ظلّ العاطلون يلاحقون طونيو بعيونهم دون أن يحرّكوا رؤوسهم. فقد يكون دون سيزار بحاجة لواحد من أجل تعشيب قنوات المياه في بساتين البرتقال والليمون. *«إنّ طونيو لا يرمقنا ولو بنظرة واحدة. فهو يريد أن تطول متعته في أن يختار أحدنا، ومتعته مشروعة باعتباره رجل دون سيزار المقرّب. لو تذكّر فقط أنّي ابنُ عمّ زوجته لما اختار سواي. لكن قد يكون دون سيزار بحاجة لمعاون من أجل صيانته؟ عندها سأذهب واستدعي الولد من البيت».* إلا أنّ طونيو تابع دورانه حول الساحة لمجرّد الاستمتاع بالظهور على صهوة اللامبريتا. وظلّ يتساءل عمّ عساه يفعل بالمئتي لير في جيبه.

أخذت الشمس تنحدر لتتوارى وراء الجزر، وأقبلت بنت موثّق العقود وبنت المحامي سلغادو وبنت دون أوتافيو، قادمات من شارع غاريبالدي. وبقدومهن تفتتح هذه النزهة اليومية، الباسيجياتا، وتُكْتَمَل بالدوران حول الساحة وفق عقارب الساعة. إنّهن يلبسن أثواباً من الشيت، من اللون الزمرّدي والليموني والوردي.

ينتفخ الثوب بسبب الشلحة التي يلبسنها تحته وهي ذات ثلاثة أدوار من الكشاكش.

وحين تجد إحداهنّ الفرصة ملائمة، تنتهزها لتسبقَ أترابها ببضع خطىً، ثم تستدير فجأة، فيستجيب الثوب لقانون القوة النابذة وينتفخ مثل الكأس، لينكشف من تحته تخريم أدوار الكشاكش الثلاثة البيضاء. لقد اشترين هذه الثياب لدى أشهر خياطة في فوجيا وهي تأتي بأزيائها من روما. إنّ دون أوتافيو هو الذي يملك، بعد دون سيزار، أكبر مساحة من الأراضي في بورتو مناكوري.

ولا يتعذّر على ابنة موثّق العقود أو ابنة المحامي سلغادو أن تتفقا على زينتهما وهندامهما ما تتفق ابنة دون أوتافيو، فوالد كل منهما يملك أرضاً. صحيح أنّها أصغر مساحة، لكنّ كلاً منهما يستطيع عند الضرورة أن يعيش من موارد أرضه. ولئن كانا يمارسان مهنة حرّة، فما ذلك إلا بدافع الحيطة والحذر. فقد تحدثت موسوليني أيام دراستهما الجامعية، عن مسألة تقسيم الأراضي الزراعية، ويضع الديمقراطيون المسيحيون قضيّة الإصلاح الزراعي ضمن برنامج حزبهم. فتبقى المهنة الحرّة والحالة هذه ضماناً في وجه المضلّلين.

أقبلت بنات المصطافين وأبناؤهم للانضمام إلى الباسيجياتا. إنّ هؤلاء روماويون[1]. وهم من أبناء المناكوريين الذين هاجروا إلى العاصمة وشغلوا فيها وظائف في الإدارات العامة. ترتدي الفتيات البنطال وقميصاً قطنياً فوقه يشبه هندام البحارة، ويعقد الشبان حول أعناقهم مناديل صارخة الألوان، وهذا الزيّ الذي شاهدوه في مجلة «أوجّي» هو السائد على شاطئ سان تروبيه.

من ثمّ يأتي دور أبناء المدينة القديمة، فيتدفّق هؤلاء من الأزقة النازلة بانحدار شديد من دير القديسة أورسولا، بنت مدينة أوريا، ومن المعابر والأدراج الصاعدة من المرفأ حتى مداخل قصر فريديريك الثاني دوسواب. ترتدي الفتيات في غالبيتهن العظمى أثواباً من الشيت تولّيْنَ خياطتَها بأنفسهنّ في البيوت. ذلك أنّ نماذج التفصيل التي تنشرها مجلات الأزياء الرخيصة أتاحت لهنّ مسايرة الدُّرْجة السائدة في هذه السنة. والواقع أنّ شعب مناكوري ذو ذوق رفيع، يسري في دمه حب الأناقة. حسبُنا أن نعرف أنّ بورتو مناكوري كانت مدينة في القرن السادس قبل الميلاد.

تمشي بنات المدينة القديمة بصمتٍ وتمهّل، مجموعاتٍ من ثلاث أو أربع متشابكاتِ الأذرع. ويمضي الشبان الهوينا أيضاً في مجموعات، فلا يتبادلون الحديث إلا حين يتوقفون، ودون أن يرتفع لهم صوت. أمّا العاطلون

(1) نسبة إلى روما.

فهم بمحاذاة الجدران يتابعون الفتيات بعيونهم من غير أن يحرّكوا رؤوسهم. فيما يتفرّد الروماويون بالكلام بأصوات عالية والضحك ضحكاً صاخباً.

أخيراً يأتي المراهقون، ويسمونهم «الواليوني». فهؤلاء الفتيان الذين بلغوا السنّ الحرجة، يحومون بحثاً عن غنيمة ما، سرقةً أو نشلاً، بين العمال المنهمكين بتعليق المصابيح الكهربائية، على أغصان صنوبرة الملك مورا، من أجل الحفل الذي سيقام هذا المساء. ويُشاهَد زعيمُهم بيبو وساعدُه الأيمن بالبو متكئَيْن على حاجز الرصيف باسترخاء، يضعان خطة تعود عليهما بالفائدة، بسبب الهرج والمرج اللذين سيسودان أثناء الحفل.

واصل طونيو دورانه حول الساحة على اللامبريتا متسائلاً عمّ عساه يفعل بالمئتي لير في جيبه. فبعد قليل يجتاح جمهورُ الباسيجياتا الساحة بأكملها. وعندها يمنع عناصر شرطة البلدية سير الآليات، فيضطر طونيو لإيقاف اللامبريتا. إنّ رؤية ذلك العدد الكبير من الفتيات زاده رغبة في امرأة لا يكون بطنُها منتفخاً مثل ماريا. وفكّر في ضرورة الاحتفاظ بالمئتي لير حتى يتمكن من مضاعفتها، وإذا ما سمح له دون سيزار باستخدام اللامبريتا ثانيةً، فيسعه الذهاب حينئذ إلى مبغى بورتو البانيزي. وإذا ما أضفنا إلى المئتي لير، وهي نصيب المرأة، ثمن البنزين والنفقات الجانبية الصغيرة (لا يسعه أن يتوانى عن تقديم سيجارة للبغيّ، وهو ملزم أدبياً بإعطاء عشرين ليراً على الأقل للقوّادة الجالسة لدى الباب) فإنّه بأربع مئة لير سيحقّق كلّ ما يتمنى وأكثر. عقله إذن يأمره بألا يبدّد المئتي لير هذا المساء أو يفرّط بها. بيد أنّه قدم إلى مناكوري ممتطياً صهوة اللامبريتا ولا يسعه الرجوع إلى السبخة دون القيام بعمل استثنائي. ينبغي أن ينتهي النهار بشيء من الترف.

وتبقى المشاركة في لعبة «القانون» حلاً موفقاً وسعيداً. صحيح أنّ الوقت مبكر الآن، لكن لا يُستبعَد أن يكون أحد الأشواط قد بدأ في حانة ما من المدينة القديمة، وبوسع أنطونيو، إذا ما حالفه الحظ، أن يشرب ما طاب له من

النبيذ دون أن يتكلّف ليراً واحداً. قليل من الحظ فقط ويصبح معلّماً أو وكيل معلّم حسب «القانون».

يعتقد طونيو أنّ المشاركة في لعبة «القانون» لا يقلّ متعة عن مضاجعة امرأة ليس لها في ذلك من رغبة، لكن لك حقوق عليها. فيجدر به والحال هذه أن يجازف بالمئتي لير.

بعد قليل تشير الساعة إلى السابعة. ويشير ميزان الحرارة على باب الصيدلي في شارع غاريبالدي إلى ٣٤ درجة مئوية في الظل. ونسيم البحر لمّا يأتِ. لم يأتِ نسيم البحر هذا العام البتة.

فصل الصيف هذا، هو فصلُ الرياح الأرضية، رياح اليابسة. فتيار السيروكو يهبّ من صقلية والليبيشيو من نابولي. والكل يعرف أنّهما يهبّان لكن ما من أحد يُحِسّ بهبوبهما، لأنّهما يلفحان، ومن الوراء فقط، تلك القمم الصخرية التي تشرف على بورتو مناكوري وعلى البحيرة والأرض السبخة.

فالسيروكو يتحوّل نحو الشرق والليبيشيو نحو الغرب، ويقومان بالالتفاف حول الخليج، واحد من الشرق والآخر من الغرب مثل ذراعين واقيتين. ومن ثمّ يلتقيان في عرض البحر مثلما تلتقي اليدان في طرف الذراعين بعد تطويق الشيء المراد حمايته. مرّت شهور والسيروكو والليبيشيو في حالة عراك فوق البحر على مرأى من بورتو مناكوري. ينشأ الليبيشيو في المغرب ويأتي محمّلاً بالغيوم لمروره فوق البحر المتوسط. أمّا السيروكو فينشأ في تونس وينتقل منها قفزة واحدة إلى صقلية فيظلّ جافاً. مهمة السيروكو إذن أن يُبقيَ في عِرض البحر كلَّ الغيوم التي يدفع بها الليبيشيو أمامه وهو مقبل. وعندما يتغلّب السيروكو على الليبيشيو، فإنّ حزم الغيوم تتراجع متقهقرة صوب الغرب، أمّا حين يحرز الليبيشيو الغلبة على السيروكو فإنّ السحب تتقدّم لتغطي الأفق بأكمله. لم يبدُ الليبيشيو في هذا العام، من نهاية الربيع وحتى الآن، على درجة من القوة تمكّنه من دفع الغيوم حتى بورتو مناكوري. وتابع العاطلون عن العمل يوماً بعد يوم، وهم وقوف

بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى، ذلك الصراع الدائر في عرض البحر بكل مراحله. والواقع أنّه لم تلامس وجه مناكوري نسمة واحدة، كأنّ المتصارعَيْن فوق البحر قد امتصا هواء الخليج بأكمله. وكأنّ المسافة الواقعة بين القمم الصخرية والبحر قد تحوّلت إلى فراغ جوي أو جيب هوائي، أو كما يحدث في كؤوس الهواء. ولو نظر المرء من أعلى دير القديسة أورسولا بنت أُوريا، الواقع على قمة المدينة القديمة، عبر منظار مقرّب، لشاهد فوق البحر رؤوس الحراب الكبيرة التي يتراشق بها السيروكو والليبيشيو. لكنّ البحر في خليج بورتو مناكوري ظلّ ساكناً دون حراك. فالحراب المضادة تتبدّد فوق الرمال، أمّا جانب البحر المحاذي للشاطئ فيظلّ راكداً كالمستنقع، وإذا ما نفذت حربة مضادة، بشكل خارق للعادة وتخطت كل الحواجز فإنّها تحدث انتفاخاً بطيئاً تحت سطح الماء، كانتفاخ الرصاص في البوتقة لدى انصهاره، لكنّه انتفاخ مثل تورّم بسيط ما يلبث أن يأتي ليتلاشى على السطح بهدوء.

أوقف طونيو اللامبريتا إلى جانب السطيحة التي تشرف على المرفأ والخليج، ثم سلك أزقة المدينة القديمة بحثاً عن حانة تدور فيها لعبة «القانون».

جلست آنا زوجة المفوّض قرب النافذة في طابق السراي الثالث وأخذت تراقب الباسيجياتا، فبنات الأعيان في بورتو مناكوري يشاركن في الباسيجياتا اليومية بينما نساؤهم يلزمن البيوت. أمّا في المدن الداخلية الصغيرة فيقتصر الأمرعلى الشبان فقط، وترى السيدة آنا أنّ بورتو مناكوري أكثرُ تقدماً من مدن الداخل، إلا أنّها أقل تقدماً من لوتشيرا، ولم يسعفها الحظ بالزواج إلا من موظف جرى تعيينه في بورتو مناكوري. «هكذا تقتضي سُنّة الحياة». ذلك ما كان يدور في خلدها.

نفذت السيدة آنا بنظرها بعيداً، حتى ما وراء الساحة الكبرى والمرفأ حيث ترسو بضع زوارق للصيد. فقبل الحرب، كانت لبورتو مناكوري تجارة مع الساحل الدلماسي، وكانت المراكب تأتي محمّلة بالأخشاب، ثم تبحر محمّلة بالبرتقال والليمون، وبعدها جاءت القطيعة بين الحكومتين الإيطالية

واليوغسلافية، فكفّت المراكب عن الرسو في المرفأ، وأخذ الرمل يعلو عاماً بعد عام على طول المكسر.

حدّقت آنا في السفينة المبحرة التي توقفت على بضع مئات الأمتار من المرسى، وانفصل عنها زورق يحمل عدداً من الأجانب، قدموا بعد الظهر، وهدفهم الوصول إلى الجُزُر لممارسة هواية الصيد تحت الماء. ولسوف تتوقف الباخرة غداً وقت الضحى، وهي في طرق العودة، لتحملهم نحو مرفأ انطلاقها في بورتو البانيزي. وهذه الأخيرة مدينة تشبه بورتو مناكوري كل الشبه مع فارق وحيد فقط هو وجود مبغى فيها، لا يكفّ الرجال عن ذكره والإفاضة في التحدث عنه. أمّا الجزر فهي مرتفعات صخرية ثلاثة يقيم فيها قرابة مئة من الصيادين الذين يؤجّرون مساكنهم صيفاً للأجانب القادمين لممارسة الصيد تحت الماء، أمّا هم فينامون طول هذه الشهور في الإصطبل مع الحمار. ورأت آنا أنّ السفينة نفسها تتحرك أيضاً على طريق مسدود.

اتخذت دونا لوكريزيا، زوجة القاضي أليساندرو، مجلساً لها وراء نافذتها المشقوقة قليلاً، في الطابق الأخير من السراي، فوق غرفة آنا زوجة المفوّض. إنّ شعرها الغزير مرفوع الآن وملفوف كُعَيْكة منتظمة فوق رأسها، وهي ترتدي ثوباً عالي الياقة طويل الأكمام كعادتها دائماً، وينتفخ الثوب عند صدرها. إنّها جالسة تراقب فرانشيسكو بريغانتي، طالب الحقوق الذي جلس لتوّه على رصيف المقهى التابع لنادي الرياضة المواجه للسراي، تحت سطح البريد. وتردد بصوت خافت وهي تنظر إليه: «أحبه، أحبه».

اختار فرانشيسكو بريغانتي أن يجلس إلى طاولة تمكّنه من النظر إلى مصراعي النافذة المشقوقين في طابق السراي الرابع، دون أن يتمكّن باقي الزبائن من تمييز الوجهة التي ينظر إليها، وكان يتمتم في قلبه: «أحبها، أحبها».

وطول أصيل ذلك اليوم تغلب السيروكو ببطء على الليبيشيو حتى أنّ الغيوم وراء الجزر لم تعد إلا هُدُباً تلتهب بأشعّة الشمس الغاربة.

واصل القاضي أليساندرو والمفوّض أتيليو نقاشهما بصوت معتدل في مكتب المفوّض.

طرقت أسماعهما، عبر الباب المفتوح، جلَبة أناس، نساءً ورجالاً، أمّوا مكتب المعاون في القاعة المجاورة طلباً لوثائق رسمية، إذ لا بد للمرء في سبيل الحصول على جواز سفر من أن يجمع ما بين عشرٍ وخمسَ عشرة منها.

أدّى ذلك إلى ظهور مكاتب اختصاصية، ازدهرت بسرعة في المدن الكبرى، تتولّى مهمة استخراج الوثائق المطلوبة كلّها. وترى العاطلين حول الساحة الكبرى يتحسّسون من وقت لآخر جيوبهم ليطمئنوا إلى أنّهم لم يفقدوا وثائقهم: بطاقة هوية، دفتر البطالة، دفتر الخدمة العسكرية، شهادات المخدِّمين أو أرباب العمل وغيرها وغيرها، وكلّها وسخة ودرنة، ممزّقة عند ثناياها، مكسّرة على زواياها، لكنّها ثمينة إلى الحد الأقصى. فالذي يفقد وثائقه يصبح بلا حقوق وبلا وجود شرعي: يصير باطلاً.

بعد أن انخرط المفوّض في مجادلات سياسية على غير قناعة حقيقية بها، تحوّل بالحديث نحو الشغل الشاغل الأكبر له، ولكلّ موظفٍ إيطالي في الجنوب، ألا وهو الانتقال إلى مدينة في الشمال. إنّه ينتظر ذلك دون جدوى. أمّا القاضي أليساندرو، فهو دونما شك، رجل القضاء الوحيد في مقاطعة فوجيا الذي لم يطلب نقله البتة. فالإجلال الذي يُكنّه للإمبراطور فريديريك الثاني دوسواب كان يشدّه إلى هذه المنطقة بأواصر قوية.

لاحت بارقة أمل جديدة أمام المفوّض، إذ تعرّفت زوجته مؤخراً على فتاة روماوية على الشاطئ، هي صديقة حميمة لابنة شقيق أحد الكرادلة.

كان القاضي ما يزال يرتعد في سترته الصوفية، وقد قاطع المفوّض قائلاً:

– ليس هذا أيضاً بالسبيل المأمون، فعدد بنات إخوة الكرادلة في إيطاليا كبير جداً ويكاد يضاهي عدد العاطلين...

في تلك اللحظة ظهر المعاون لدى الباب قائلاً:

- إنّه البنّاء ماريو من جديد، ويلحّ طالباً مقابلتك.

قال المفوّض:

- لا وقت لديّ.

فارتفع صوت قوي من القاعة المجاورة صائحاً:

- ها قد مضى عامان وأنا أنتظر، إنني أطالب بجواز سفري، هذا حقي.

فصاح المفوّض:

- تعال إلى هنا.

دخل الرجل، طويلاً قوي البنية، ببنطال عتيق وحذاء سميك. وبدا قميصه مهترئاً عند ياقته وكمّيه.

قال المفوّض للقاضي:

- أستميحك عذراً يا صديقي العزيز، سأجتذب انتباهك نحو هذا الرجل، فهو صاحب حق، وفي بلد ديمقراطي، صاحب الحق سلطان.

لم يجب القاضي بل أشعل سيجارته وسحب منها نفساً فظهرت على وجهه علائم التقزّز فأطفأها.

تقدّم الرجل. كان يحمل قبعته بيده، ثم بقي واقفاً أمام مكتب المفوّض. فسأله المفوّض:

- ماذا استجدّ؟

- بعد أسبوع يكون قد انقضى عامان على طلبي جواز سفر إلى فرنسا. تقدّمت بالأوراق الثبوتية كلّها بما فيها شهادة مخدّمي هنالك.

- وماذا بعد؟

- لم أستلم الجواز حتى الآن.

- وما بوسعي أن أفعل؟

- الدستور الإيطالي يمنح كل مواطن حق السفر إلى الخارج بحرية.

- أنت تعرف الدستور جيداً.

- أجل، سيدي المفوّض.

- أنت غير محكوم أبداً؟

- حُكم عليّ بالسجن خمسة عشر يوماً لمشاركتي في احتلال الأراضي البور لدون أوتافيو في ١٥ آذار ١٩٤٩.

- كنتَ أنتَ المحرّض.

- الواقع أنّني شجعت العاطلين على الإقامة في الأراضي البور، واعترفت بذلك أمام المحكمة. لكنّ الحكم شمله العفو، وهو غير مدوّن في خلاصة السجل العدلي المرفقة بطلب الجواز. لديّ إذن كلّ الحق في الحصول على جواز سفر.

- لا ريب في أنّ لقسم الشرطة رأياً مغايراً.

- إنّي عاطل عن العمل، وقد وجدت عملاً في فرنسا، إنّي أطالب بحقي.

- طالب القسم بحقك، فهو الذي يقرّر.

- لكنّ القسم أحالني إليكم.

فقال المفوّض:

- هنالك من يعرف تدبُّر أموره خيراً منك.

- لم أفهم قصدك.

هل تتذكّر بييترو، نجار الإسمنت المسلّح؟

- كلاّ.

- يقولون: «كلاّ، سيدي المفوّض».

- كلا، سيدي المفوّض.

- أنا أعتقد أنّك تتذكره.

- كلا، سيدي المفوّض.

- بييترو كان أحمرَ مثلك.

- لا أعرف سيدي المفوّض.

- أمّا أنا فأعرف، أعرفه لأنّه أتى إلى هنا ومعه بطاقة حزبه، بطاقة حزبك، فمزّقها أمامي.

- لا أعرف، سيدي المفوّض.

- لقد منحه القسم جواز سفر.

فقال الرجل:

- أريد حقّي.

فالتفت المفوّض إلى القاضي وقال:

- أنت ترى، يا صديقي العزيز، كيف لا تُجدي محاولة تأدية الخدمة للناس؟

كان القاضي يعبث بالسجارة المطفأة. فلم يرد.

قال الرجل:

- سوف أوكل محامياً.

- أنصحك بتوكيل محام قدير.

- لن أوكل محامياً من بورتو مناكوري.

وابتسم المفوّض، فقد كان على علاقة سيئة بالمحاميين الاثنين المقيمين في بورتو مناكوري.

ثم قال:

- أتمنى لك حظاً سعيداً.

ظلّ الرجل واقفاً بلا حراك.

- لم يعد لديّ ما أقول لك.

تقدّم المعاون فوضع يده على كتف الرجل ليسحبه إلى القاعة المجاورة فاستجاب الرجل ببطء، ومشى معه.

فأخذ المعاون يوبّخه قائلاً:

- أيها الغبي، إنّهم يلقنونك ما ينبغي أن تفعل، وأنت رأسك مثل رأس البغل، فلا تفقه في مصلحتك شيئاً...

ودخلا القاعة المجاورة.

قال القاضي:

- أنت لا تحترم القانون.

فارتدّ المفوّض بكنبته إلى الوراء وقال:

- رويدك يا صديقي...

فقاطعه القاضي قائلاً:

- إذا كان المكلّفون بفرض احترام القانون، إذا كان هؤلاء على وجه التحديد...

فنهض المفوّض وهرول على رؤوس أصابعه فأغلق الباب، ثم استدار نحو القاضي واضعاً إصبعه على شفتيه التزاماً بالصمت، ثم رفع ذراعيه نحو السماء وقام بحركة العاجز عن تحقيق شيء. ثم أغرق في الضحك. قال:

- إنّ المرء ليقول، يا صديقي العزيز، إنّك قد آليت على نفسك أن تمضي حياتك الوظيفية كلّها في بورتو مناكوري.

قال القاضي:

- ولم لا؟

- لأنّ المرحوم فريديريك الثاني دوسواب لن يساهم في ترقيتك درجة واحدة.

فقال القاضي:

- هذا الرجل الذي تمنعه من السفر إلى الخارج طلباً للرزق، لديه أطفال يموتون جوعاً.

فمال المفوّض نحو القاضي وأمسك به من كتفيه وقال:

- ونحن، يا قاضي، ونحن، ألا ترى أننا نموت داخل هذه المدينة التي لم يتمكّن أحد قط من النجاة منها بنفسه؟

* * *

قُـتِلَ طونيو، رجل دون سيزار المقرّب، سادساً في الشوط الذي بدأ لتوّه بمبادرة من ماتيو بريغانتي، في واحدة من حانات المدينة القديمة. «والقانون» يمكن أن تُلعب بخمسة لاعبين أو ستة أو سبعة وحتى أكثر. لكن ستة لاعبين يُعتبَر عدداً جيداً.

يتولّى ماتيو بريغانتي مراقبة كل شيء في بورتوماناكوري، بما في ذلك لعبة «القانون». لقد كان فيما مضى عريفاً بحرياً في سلاح البحرية الملكي. وما إنْ عاد إلى مسقط رأسه بعد الهزيمة عام ١٩٤٥ حتى فرض نفسه مراقباً. ولئن كان على أبواب الخمسين فإنّه ما يزال محافظاً على مظهره العام عريفاً بحرياً، يتوقع الكل، في أية لحظة، رؤيته يمد يده فجأة ليرفع صفارة التدريب إلى فمه. إنّ فمه رقيق وشفتيه مزمومتان دوماً تحت شارب ضيّق، أسود وقاس، حتى حين يضحك. وهو مع مراقبته لكل شاردة وواردة، ومع عدم تأديته لأيّ عمل، لم يتعرّض يوماً لإدانة في المحاكم، إلا قبل الحرب، حين طعن غلاماً قام بهتك عِرض إحدى شقيقاته. لكنّ تلك الجريمة مفخرة يعتزّ بها، إنّها إحدى «جرائم الشرف» التي تلقى من محاكم الجنوب كل التساهل. فهو يراقب الصيادين بالقوارب والصيادين على الترابوكو والصيادين بالديناميت. إنّه يراقب بائعي الليمون ومشتري الليمون وسارقي الليمون. يراقب الذين يتعرضون للسرقة في معاصر الزيتون، ويراقب الذين يسرقونهم. يراقب المهرِّبين الذين يتوجّهون إلى عرض البحر فيوقفون زوارقهم بمحاذاة اليخوت المحمّلة بالسجائر الأميركية، ويراقب رجال الجمارك الذين يروحون ويغدون في زوارقهم البخارية بمحاذاة الشاطئ،

فيضيؤون فجأة أنوار مصابيحهم القوية المبهرة التي تكشف عن كل الخبايا، أو لا يضيؤونها مطلقاً، إذا ما ساومهم بريغانتي من قبل حول ما يطلبون لقاء غضّ النظر. وهو يراقب الذين يمارسون الحب والذين لا يمارسونه والأزواج المخدوعين والذين يجعلون منهم أزواجاً مخدوعين، ويقدّم معلومات للصوص ومعلومات للشرطة فيتمكّن على ذلك النحو من مراقبة اللصوص ومراقبة الشرطة. فيدفعون له أجراً من أجل أن يراقب كما يدفعون له من أجل ألا يراقب. وهكذا يجبي ضرائبه من كل صفقة تجارية أو غير تجارية تُعقد فوق أرض بورتو مناكوري والنواحي المجاورة. ثم ازدادت أعباء ماتيو بريغانتي في المراقبة فرأى لزاماً عليه أن يوظّف عنده بيزاشيو، أجير الفرّان، فوضعه في خدمته مراقباً من المرتبة الثانية.

في هذا المساء ارتأى المبتزّ بريغانتي أن يدعو وكيله قبل الذهاب لمراقبة الحفل الذي تقيمه البلدية للمصطافين، إلى لعب مباراة في «القانون». وكلمة بيزاشيو ليست اسماً، بل هي لقبٌ أُطلِق على الرجل حيث كان يعمل أجير فرّان، واللقب مشتق من أكلة البيزا المعروفة، ومحرّف حتى صار يعني «البيزا الرديئة» أو «فطيرة البيزا النتنة». كذلك كانت الحال في عهود فلورنسا البطولية، فكان لورانزاشيو اسم الانتقاص من لورانزو.

أمّا شركاء طونيو الآخرون فهم الأميركي، وهو مغترب سابق في غواتيمالا، عاد ليمضي باقي أيامه فوق أرض الوطن حيث ابتاع بستان زيتون صغيراً. والأسترالي، وهو أيضاً مغترب عائد، لديه شاحنة صغيرة لنقل السمك والفواكه. وأخيراً دون روجيرو، إبن دون أوتافيو، وهو طالب حقوق في جامعة نابولي، يفضّل أثناء العطلة الصيفية ملاحقة نساء الفلاحين الذين يعملون في أراضي والده، واحتساء النبيذ في الحانات، بدلاً من مغازلة بنات أعيان مناكوري اللواتي يرى أنّهن حمقاوات.

لم يكن طونيو، بالمئتي لير التي اختلسها في غفلة عن عيني زوجته ماريا، على مستوى شركائه في اللعب. لكن يسعه الصمود لبعض الوقت. والواقع أنّ الرهان قد حُدد لكل جولة بلتر من نبيذ أندريا الأحمر عيار ١٤

درجة، وسعره مئة وعشرون ليراً. ولكل ستة لاعبين أربعةٌ خاسرون. وبقسمة مئة وعشرين على أربعة ينتج ثلاثون. وبقسمة مئتين على ثلاثين ينتج ستة ويبقى عشرون. وعليه فإنّ طونيو يستطيع بالمئتي لير أن يغامر بحظه ست مرات، بل سبعاً لأنّ الساقي يمكن أن يقرضه عشرة لير. والواقع أنّ أهمية لعبة القانون ليست في المال الذي يقامر به اللاعب ولا في النبيذ الذي يشربه، لكن في قانون اللعبة ذاته، فهو مرير كالعلقم حين يُطبّق عليك وعذب سائغ وأنت تطبّقه على سواك.

تنتشر لعبة «القانون» في أرجاء جنوب إيطاليا كلّها. وهي تُقسم إلى مرحلتين. المرحلة الأولى هدفها اختيار فائز واحد يسمونه «بدروني» أي المعلّم، وهي تنفّذ بأسرع ما يمكن، ويتم الاختيار عن طريق الورق أو حجر النرد. أمّا في ذلك المساء فقد فضّلوا استنطاق الحظ عن طريق ورق التاروت[1].

وكان أن كسب بيزاشيو أول دورة لورق التاروت، وتمّ على هذا الأساس تعيينه معلّماً.

أحضر الساقي قلّة صغيرة من النبيذ وضعها قرب بيزاشيو. فأقبل عدد من الرجال كانوا يحتسون الكؤوس من المنهل فتحلّقوا حول المائدة والتزموا الصمت جميعاً.

تبدأ المرحلة الثانية من لعبة «القانون» إثر اختيار المعلم مباشرة. وتتكوّن من حركتين، إذ يقوم المعلّم أولاً باختيار الـ «سوتوبدروني» أي وكيل المعلم.

تنقّل بيزاشيو بين اللاعبين الخمسة الآخرين على التوالي متفرّساً في وجه كل منهم على حدة، فيعود إلى هذا ثم ينتقل إلى ذاك متصنّعاً الارتباك مطيلاً الانتظار، ذلك أنّه يعرف «القانون» حقّ المعرفة.

قال الساقي:

---

(١) تاروت: ورق لعب أطول من الورق العادي يحمل صوراً مختلفة وعدده ٧٨ ورقة. (المترجم).

- هيّا بنا، فطبختك قد نضجت.

فأجاب بيزاشيو:

- ليس بعد، لمّا تتضجْ تماماً.

قال ذلك وهو يحدّق في وجه طونيو.

ثم افتتح اللعب قائلاً:

- طونيو له ابنة حمٍ جميلة...

تحوّلت الأنظار كلّها نحو طونيو الذي بقي ساكناً، غاضّ الطرف، باسطاً كفيه فوق المائدة. إنّ الرابح، أيّ المعلم، يسنّ القانون، فله الصلاحية المطلقة في أن يقول أو لا يقول، في أن يَستجوب وأن يجيب نيابة عن المُستجوَب، في أن يمتدح وأن يذمّ، وله الحق في أن يغتاب وأن يشتم وأن يعرِّض وأن يفتري وأن يمسّ العِرض. أمّا الخاسرون الذين يطالهم القانون، فمن واجبهم الرضوخ مع التزام الصمت والسكون. تلك هي القاعدة الأساسية في لعبة «القانون».

وأردف بيزاشيو قائلاً:

- من المفيد للمرء أن يختار وكيلاً، له ابنة حمٍ جميلة، ولو أنّي عيّنت طونيو وكيل معلم لكان من المحتمل أن يُعيرني ماريت...

ظلّت الأنظار مسلّطة على طونيو، فقد كان معروفاً لدى الجميع أنّه يحوم حول ماريت التي ليس لها فيه من رغبة. إنّ العزلة الزائفة التي يعيشها الناس في مناكوري، وفي السبخة بشكل خاص، هي السبب في أنّ عيون الرجال في العائلة تكون دوماً بالمرصاد، حتى ليوشك الاستحواذ على النساء داخل الأسرة الواحدة، أختاً كانت أم أخت زوجة أم زوجة أخ أم ابنة، أن يذهب بعقولهم. رمى بيزاشيو إذن فأصاب الهدف، والإصغاء إليه وهو جالس يلعب «القانون» متعة ما بعدها متعة. وبقي طونيو ساكناً صامتاً في سترته البيضاء المنشّاة حديثاً. فمرحى له أيضاً.

استأنف بيزاشيو قائلاً بهدوء:

- إن كنتُ راغباً في امتلاك ماريبت فالأجدر بي أن أتوجّه بالطلب إلى ماتيو بريغانتي. هكذا يفكّر الإنسان الحصيف...

ما من أحد يجهل أنّ ماتيو بريغانتي كان يحوم بدوره حول ماريبت، وأنّه غالباً ما يتوجّه إلى الدار ذات الأعمدة، وأنّ الفتاة تردّ بضحكات استفزازية على التورية الدائمة في كلامه. وكلما رآه طونيو فوق جسر مصرف البحيرة متوجّهاً بخطوته الواثقة نحو دارة دون سيزار، اكفهرّ وجهه وآثر عدم الردّ على تحيته مع أنّه يخشاه. فبريغانتي يحب الأبكار. لذا كان الخاطبون والعاشقون والأخوة والآباء يتردّدون في التصدي لذلك المبتزّ. علماً بأنّ دافع الثأر للعِرض يمكن أن يؤدي إلى الجنون. لذا يحمل بريغانتي سكينه على الدوام، وهو سلاح مرهوب الجانب ومشحوذ كشفرة الحلاقة، وليس بخنجر بل موسى تُستخدم للتطعيم وتُعتبر بالإضافة إلى حملها المشروع، أداة العمل الأكثر استخداماً وشيوعاً في بلد معظم سكانه من البساتنة. إنّها سلاح خطر، ويتماشى مع القانون، مثل بريغانتي نفسه، فهو أكبر مراوغ في التخالف بالسكين. ولا يجرؤ طونيو أبداً على التفكير في مجابهة مكشوفة معه. والكل يعرف ذلك حق المعرفة، لذا بقيت العيون شاخصة إلى طونيو.

وسأل بيزاشيو ماتيو بريغانتي قائلاً:

- هل تعيرني ماريبت؟

- بعد أن أكون قد مهّدت الطريق.

- سيصبح الدرب أكثر سهولة ويسراً، لقد عيّنتُك وكيل معلم.

علت بين الجمهور همهمة موافقة وثناء، فالجولة بدأت بداية حسنة، قاطعة وحاسمة، وخالية من العثرات.

وهذا طونيو ساكن لا يطرف له جفن. فمرحى له أيضاً.

دفع الخاسرون الثمن. أعطى كلٌّ من الأميركي والأسترالي ودون روجير وطونيو ثلاثين ليراً للساقي.

مدّ بيزاشيو يده، بوصفه معلّم الجولة الأولى، فملأ كأسه نبيذاً ورفعها إلى شفتيه، وبدأت على هذا النحو، حسب مقتضى القواعد، الحركة الثانية من المرحلة الثانية للعبة «القانون». وهتف بنشوة:

– هذا النبيذ يليق بالملوك، خذْ، تذوّقْ يا وكيل المعلم.

كان من الطرافة اللاذعة سماعُ بيزاشيو يخاطب ماتيو بريغانتي من علٍ، فهذا الانقلاب بالمناصب والمراتب ليس إلا صدىً لما كان يحدث أيام أعياد زحل[1] في روما القديمة، ومن شأنّه زيادة عنصر الإثارة في لعبة «القانون».

ملأ بريغانتي كأسه فتذوقه ثم قال:

– من يسمح للخنازير بارتشاف مثل هذا النبيذ يرتكب خطيئة مميتة.

فقال بيزاشتو:

– افعل ما تراه مناسباً، فأنت وكيل المعلم.

حينئذ أفرغ بريغانتي كأسه دفعة واحدة، وتمهّل قليلاً ثم قال:

– سأشرب كأساً أخرى.

فقال بيزاشيو:

---

(١) كانت أعياد زُحل تُقام بكل أبّهة وعظَمة في روما. وتدوم سبعة أيام تتوافق والانقلاب الشتوي، من١٧ حتى ٢٣ كانون الأول. وتشكل تلك الأعياد هدنة حقيقية في كافة ميادين النشاط العام والخاص. وتشكّل كذلك قطيعة تامة مع كافة مظاهر العادات والتقاليد السائدة في الأحوال العادية: يتمّ من اليوم الأول القبول بالخدم والعبيد للمشاركة في احتفالات تقديم أضاحي الافتتاح، على قدم المساواة مع أسيادهم ومع الناس الأحرار... ويتوقّف التمييز بين الطبقات طول ستة أيام. بل المألوف أن يتولى السيد بنفسه خدمة عبيده الجالسين متكئين إلى الموائد. وتسود المدينة حرية مطلقة، ناهيك بإباحية قصوى. ويغدو الهمّ الأوحد للمواطنين، إقامة الولائم والاحتفالات وتبادل الهدايا. ولا يمكن في تلك الفترة عقد أية صفقة أو تسيير أي شأن. وتمتدّ الهدنة لتطال المتقاتلين. وتعلّق المحاكم أعمالها.

وتمثّل أعياد زُحل، في نهاية المطاف عودة الى حال المشاعية التي يُفترَض أنها كانت سائدة قبل التراتبات الاجتماعية. ويرجع المجتمع البشري سنوياً ليغرق في فوضى البدايات المفرطة في حيويتها وفتوّتها. (المترجم)

- هذا من حقك.

سكب بريغانتي كأساً ثانية، فالقلّة تتسع لسبع. ولم يبقَ فيها سوى أربع.

يحصل أحياناً أن يشرب المعلم ووكيل المعلم القلّة كلّها دون تقديم كأس واحدة للخاسرين. هذا حقهما. لكنْ لا تتجلى أهمية ذلك التصرف إلا في آخر السهرة.

وبعد جولات عديدة، إذا ما تضافر الحظ مع المكر والدهاء، لمنع لاعب أو أكثر من الوصول إلى منصب المعلم أو الوكيل ولو لمرّة واحدة، فالغيظ يستبدّ بهم ويشتدّ أكثر فأكثر وهم يرون الذين بيدهم القانون يرتشفون الكأس المرة تلو الأخرى فيفرغون القلّة أمام أعينهم وهم صاغرون. إنّ عنصر الإثارة هذا لا يمكن دائماً إهماله. لكنّ بيزاشيو وبريغانتي أكثر براعة في اللعب من أن يستخدماه منذ بداية الشوط، لا سيّما أنّ كل واحد ما يزال مسيطراً على أعصابه.

شرب بريغانتي بتمهّل كأساً ثانية من النبيذ.

قال دون روجيرو:

- أكاد ألفظ أنفاسي من شدة العطش.

فقال بريغانتي:

- هل نسقيه كأساً؟

أجابه بيزاشيو:

- افعلْ ما تشاء.

ملأ بريغانتي من فوره كأس دون روجيرو. لم يكن من المصلحة في شيء جعل مثل هذا الفتى ينتظر عبثاً، فهو يُمضي القسم الأكبر من العام في نابولي، حتى أضحى غير مبالٍ بما يعتمل داخل بورتوماناكوري من شرور. وهو أعلى مقاماً، بسبب كرَم محتده، من أن يكون عرضة لسهام اللاعبين الآخرين المُذِلة والمهينة. فدون روجيرو أدنى من غيره لاعباً. ولئن كانوا

يقبلون به شريكاً فذلك لئلا يغيظوه، لا سيّما أنّ له بعض المناقب، فهو يعير دراجته الفيسبا دونما تردد، ويعير زورقه أيضاً، كما أنّه لا يتردد في دعوة الآخرين إلى شرب كأس على حسابه، أضف أنّه قادر، إذا ما أُهين في اللعب، على ردّ الصاع صاعين، وهذه الفضيلة الأثمن في لعبة «القانون».

لم يبقَ في القلّة إلا ثلاث كؤوس.

سأل الأميركي بريغانتي قائلاً:

- هل تسقيني كأساً؟

إنّ عبارة «هل تسقيني كأساً؟» هي صيغة السؤال المقرّرة وينبغي توجيه الطلب إلى وكيل المعلم لا إلى المعلم. فلقد خالف دون روجير القاعدة حين صاح دون أن يقصد واحداً بعينه قائلاً: «أكاد ألفظ أنفاسي من شدة العطش». إلا أنّ الأسباب التي ورد ذكرها قبل قليل جعلتهم يتغاضون عن زلّته تلك.

وبموجب «القانون» توجّه بريغانتي بالسؤال إلى معلمه قائلاً:

- هل نسقيه كأساً؟

فأجابه بيزاشيو:

- افعل ما تشاء.

قال ماتيو بريغانتي:

- أنا أرى ألا نسقيه كأساً، فهو امرؤ شحيح وعلينا ألا نشجّع الشحّ.

فسأله بيزاشيو:

- أهو شحيح حقاً؟

فقال بريغانتي:

- إنّه أكثر شحاً من زيتوناته.

كان بخل الأميركي في الواقع مضرب الأمثال، ومشهوراً شهرة الوضع المتردي لبستان زيتونه. ولا ريب في أنّ هذا هو السبب. فعندما رجع الأميركي

إلى أرض الوطن عائداً من غواتيمالا، كان يمتلئ فخراً واعتزازاً وهو يروي لمستمعيه الحكايات عن البساتين الأسطورية، العائدة لاتحاد شركة الفواكه الأميركية، التي عمل فيها مديراً لأحد استثماراتها. ويبدو أنّه قد نسي ما في الجنوب من مكر ومرواغة. فباعه تاجر الأراضي بثمن باهظ زيتونات ما عادت تنتج شيئاً. فخلّفت تلك الصفقة في نفسه حقداً دفيناً. أطال كلّ من بريغانتي وبيزاشو متعة تحريك النصل داخل الجرح، وتلذّذا بها. فكانت عيون اللاعبين والمتفرّجين لا تفارق الأميركي فيما لونه يمتقع أكثر فأكثر. ولا بدّ من أن تنتابه ليلاً نوبة ملاريا، إلا أنّه بقي رغم ذلك صامداً، لا ينطق بكلمة ولا يؤاتي بحركة، لكنّ الصحيح أنّه ضحيّة مضحكة وأنّهم يفضّلون طونيو عليه، فالجراح المرتبطة بهزائم الهوى أكثر تسلية واجتذاباً للمتفرجين.

وجاء دور الأسترالي ليسأل:

- هل تسقيني كأساً؟

كان سؤاله بلهجة الواثق، فبينه وبين بريغانتي عدد من المصالح التي تدعو هذا الأخير لئلا ينغّص عليه جلسته. فهو ينقّل في شاحنته، تحت صناديق الفواكه، علب السجائر الأميركية التي يتمّ تهريبها عبر الشاطئ، ويقدّم دوماً كشفاً دقيقاً بعددها للمبتزّ، الذي يتحقق على ضوء ذلك من صحة تصريحات المهربين. إنّ المصالح العادية جداً والخاصة باللاعبين قد تدخّلت بالنسبة للاسترالي، كما تدخلت من قبل مع دون روجيرو، تدخلاً يتعارض ومتطلّبات لعبة «القانون». فالواقع أخضع قوانين المسرح، واللعب لا يكون صحيحاً إذا لم يُدَرْ بموجب قواعده الخاصة، حتى إنّ هذا لينطبق على ألعاب الحظ والمصادفة الخالصة، مثل لعبة الروليت، فالمقامر الذي لا تضايقه الخسارة هو الأوفر حظاً في الربح.

تبادل بيزاشيو وبريغانتي بعض التعليقات الساخرة السمجة، حفظاً للمظاهر، حصل بعدها الأسترالي على كأسه.

ثم سكب بيزاشيو كأساً لنفسه وارتشفها بكل صمتٍ وتمهّل. فهذا امتياز له معلماً. وتوجّه إلى طونيو قائلاً:

- وأنت، ألا تطلب شيئاً؟

أجاب طونيو:

- كلا.

- هذا أيضاً حقك.

كرع بريغانتي الكأس الأخيرة دفعة واحدة. فانتهت على ذلك النحو الجولة الأولى للسهرة.

في الجولة الثانية وقع اختيار أوراق التاروت على الأميركي معلّماً، فانتقى دون روجيرو وكيل معلم، لأنّه اللاعب الوحيد، الذي يمتلك الجرأة الكافية للنيل من ماتيو بريغانتي، عندما تحين الفرصة. لكنّ دون روجير كان يستبدّ به الضجر. فهو منصرف بفكره إلى مطاردة الأجنبيات في شوارع نابولي، وإلى الباخرة وهي ترسو في كابري فتتدفّق منها الإنكليزيات والسويديات والأميركيات، وكلّهنّ قنّاصات ماكرات، متنكّرات في لبوس الطرائد، والفرنسيات أيضاً بدأن بالانضمام إلى ذلك القطيع في السنين الأخيرة، فالفرنسيون فقدوا، دون أدنى شك، رجولتهم التي كانت مضرباً للمثل.

يرى دون روجيرو أنّ موسوليني كان على حق حين تحدّث عن انحطاط هذه الأمة. سار باللعب، شارد اللّبّ فشرب ثلاث كؤوس متتالية. فكلما أسرع بالاقتراب من مرحلة السكر اقتربت بالنسبة له نهاية هذه السهرة المحلية المملّة. وحين سأله طونيو: «هل تسقيني كأساً؟» أجاب «كلا» دون أن يقدّم أي تفسير، إذ ليس من مستواه هو أن ينتقّص من قيمة طونيو. وكان بوسعه أن يجيب بـ «نعم» حتى لكأنّه قال «كلا» بمحض الصدفة. ولربما تكون هيئة الضيق البادية على طونيو قد ذكّرته بفتاة أجنبية، تظاهرت في اليوم التالي، بأنّها لم تعد تتذكّر أي شيء.

وما لبثت الجولة الثالثة أن بدأت فوراً فخرجت أوراق التاروت في صالح بريغانتي معلّماً فاختار بيزاشيو وكيل معلم.

شنّ بريغانتي هجومه على طونيو من قبل أن يشرب كأسه الأولى، أي كأس الشرف.

فقال له:

- ألا تطلب شيئاً من وكيلي؟

أجاب طونيو:

- كلا.

وظلّ باسطاً يديه فوق الطاولة. إنّهما يدا رجلٍ مقرّب بيضاوان بضتّان، وعيناه تحدّقان فيهما.

ألحّ بريغانتي في السؤال:

- لمَ لا تطلب من بيزاشيو أن يسقيك كأساً؟ لقد خسرتَ ثلاث جولات حتى الآن ولمّا تتذوقْ كأساً واحدةً. فأنا أرى أنّ لك الحقَّ كلّه في أن تروّي ظمأك.

- ولي الحقُّ كلُّه في ألا أطلب شيئاً.

فعلت همهمةٌ تأييدٍ وموافقة. لقد صمد طونيو في وجه الاستفزاز.

قال بريغانتي لبيزاشيو:

- إنّ طونيو لا يُستثار بسهولة. وقد قيل لي إنّه رجل دون سيزار المقرّب أو وكيله. وينبغي للوكيل في الواقع أن يفرض هيبته...

فقال بيزاشيو:

- لكنّ المرء يقع في دار دون سيزار على وكيلات...

قال بريغانتي:

- هلاّ أوضحتَ لي ذلك...

فتولى بيزاشيو الإيضاح:

- قبل ثلاثين عاماً كانت العجوز جوليا ذات نهدين جميلين. ولما روّى دون سيزار غليله منهما زوّجها من رجلٍ بائسٍ ما لبث أن مات عاراً.

قال بريغانتي:

- فهمت، فالرجل المسكين كان في الظاهر رجل دون سيزار المقـرّب، أمّا في الخفاء فالأمر والنهي بيد جوليا.

فتابع بيزاشيو يقول:

- آنذاك، كنتَ أنتَ في البحرية، فلا يسعك أن تعرف مجريات الأمـور كلّها، إلا أنّها جرت مثل ما خمّنتَ تماماً... كان الرجـل المـسكين، قبـل أن يموت، قد استولد جوليا ثلاث بنات، واسم الكبرى ماريا.

فهتف بريغانتي كمن وجد حلاً للّغز:

- إنّها ماريا طونيو.

- تريّث قليلاً كي أكشف لك الأمر على جليّته... حـين بلغـت ماريـا السادسة عشرة من العمر استظرفها دون سيزار، أضف أنّ نهديها كانا أكثـر تكوّراً منهما لدى أمها، وقد أفعمها دون سيزار دغدغة وملاطفة ومداعبة إلـى أن انتفخ بطنها، ولم يبق عليه سوى العثور على ذي قرنين ليزوّجـه منهـا، فكان أن تقدّم طونيو...

فكر طونيو قائلاً في نفسه:

- تحدّثا وقولا ما طاب لكما، سوف يأتي دوري لأصبح معلمـاً، أو وكيـل معلم، وعندها ستسمعان ما يروقكما.

أنت تعتقد أنك أصبحت شخصية مرموقة، يا ماتيو بريغانتي، مذ أن صـار لك حسابٌ جارٍ في مصرف نابولي، لكن لم ينسَ أحد أنّ كافة البحارة في ميناء أنكون، قد ترددوا على زوجتك بالتناوب، بينما كنتَ أنتَ تبحـر فـوق البـوارج الملكية. وما اشتريت البيت الذي تقطنه الآن في القصر القديم، إلا بالمـال الـذي كانت تدسّه في جواربها. أمّا أنت يا بيزاشيو، يا فطيرة البيزا النتنة، فحسبك أنـك تمضي بصحبة الشاذين من السواح الألمان مقابل خمس مئة ليرة...

كان طونيو يفكر على هذا النحو وهو يستعد لـردّ الـصاع صـاعين لجلاديه، منتقياً بكل عناية، الكلمات المقذعة التي سـيكيلها لهمـا. فالأنظـار كلّها متوجّهة إليه، بيد أنّه بقي ساكنا صامتاً، كأنّه قُدّ من صخر، فـي سـترته البيضاء المنشاة حديثاً. بل إنّ ماتيو بريغانتي وبيزاشـيو همـا اللـذان بـدأا يفقدان أعصابها.

قال بريغانتي:

- إنْ كنتُ قد أحسنتُ الفهم، فإنّ طونيو هو، حسبما يظهر للعيان، رجل دون سيزار المقرّب، إلا أنّ ماريا هي التي تمسك بالمقبض عملياً.

فأجاب بيزاشيو:

- بقيت ماريا لزمنٍ طويلٍ تمسك بالمقبض...

وضحك ضحكة قصيرة ثم وَقْوَق، ومال نحو طونيو ليتفرّس في وجهه جيداً ثم تابع يقول:

- ومن بعدها جاء دور إلفيرا، شقيقة ماريا، التي بلغـت أيـضاً الثامنة عشرة...

قال بريغانتي:

- فما كان من دون سيزار إلا أن ناولها المقبض...

فقال بيزاشيو:

- واقترب الآن دور ماربيت.

- إنّ دون سيزار ثور.

فقال بيزاشيو:

- والثيران الأصيلة لا تشيخ. فليتك ترى كيف ترتعش ماربيت وهـو ينظر إليها.

وانحنى بريغانتي بدوره نحو طونيو. قال له:

- إذا ما ذُكِرتِ الدور، فإنّ دارَك دارٌ حقيقية.

وتابع بيزاشيو قائلاً:

- فالباب مفتوح والنوافذ مغلقة.

فكّر طونيو في نفسه: «قولا ما بدا لكما»، وبدأ يشحذ كلماتٍ رهيبة سيوجهها إليهما عندما يأتي دوره في الحكم. إلا أنّه بدأ في الوقت نفسه يراجع حساباته، فقد أنفق حتى الآن ثلاثين ليراً على ثلاث دفعات ولم يتبقَّ أمامه أكثر من أربعة أشواط يجرّب فيها حظه عسى أن يصير معلماً.

يحدث أحياناً أن يخسر لاعب من بين ستة لاعبين، خمس عشرة مرة متتالية أو عشرين. وليس «القانون» لعبة تتوافق ومبادئ العدالة، لأنّ الذي لا يملك في البدء غير رأسمال صغير لا يسعه أن يجرّب حظه كاملاً.

كان طونيو يفكّر على هذا النحو وعيناه لا تفارقان يديه البيضاوين البضّتين المبسوطتين على المائدة. وما كانت يداه لترتجفا، لكنّ شيئاً ما داخل صدره بدأ ينقبض غمّاً، لمجرّد التفكير في أنّ أمامه أربعة احتمالات فقط كي يصبح معلماً.

ابتعد عدّة مشاهدين عن المائدة وبدؤوا يتحاورون بصوت خافت حول سير اللعب، فرأى البعض منهم أنّ بريغانتي يسبغ على اللعب روحاً عدائيةً جداً، بينما يُبدي بيزاشيو تذلّلا لا حدود له تجاه سيده، ويتطلّب «القانون» إبقاء الضحيّة على مدى لا يصحّ تجاوزه. كما يقتضي تنويعاً في اختيار الضحايا، وينبغي إنزال الجراح كما على سبيل المزاح. أمّا البعض الآخر فقد أطرى الرجلين بحرارة، لأنّ الطعنات يجب أن تُسدَّد حسب رأي هؤلاء نحو هدف واحد بحيث يكون إذلال الضحيّة تاماً ومبرماً. إنّهما رأيان مختلفان لمدرستين متعارضتين.

أدرك ماتيو بريغانتي وبيزاشيو أنّ النقاش يدور حول طريقتهما في اللعب. فعجّلا في إنهاء الجولة، وملأ كل منهما كأسه.

قال بيزاشيو:

- هذا نخب نساء دون سيزار.

فقال الأسترالي:

- هل تسقيني كأساً؟...

وواصلوا اللعب.

* * *

بدأ الحفل الراقص لتوّه تحت صنوبرة مورا، فالمصابيح الكهربائية المعلّقة على الأغصان الرئيسة تضيء بنور ساطع قسماً من الساحة الكبرى ومدخل شارع غاريبالدي.

ارتفع حاجز خشبي أخضر، ليفصل حلبة الرقص ومنصّة العازفين والمنهل وركن المأكولات وبعض الموائد والكراسي المتحلقة حولها، عن باقي أرجاء الساحة. حُدِّدَ سعرُ الدخول بمئتي لير، فيما تابعت أعدادٌ من الفتيان والفتيات، غير القادرين على إنفاق مئتي لير من أجل الرقص، نزهتهم حول الساحة في اتجاه عقارب الساعة. أمّا العاطلون عن العمل فتوجّهوا إلى المدينة القديمة وولجوا الدور المتجاورة والمتشابكة والمتداخلة والمتراكبة: فأرضية بعضها تقع فوق سقف البعض الآخر، وسطح هذه الدار هو باحة لتلك، وكل غرفة مكان قبو أو مستودع غلال، بدءاً من مكسر المرفأ وحتى دير القديسة أورسولا بنت أوريا، الذي يُتوّج بورتو مناكوري. لقد تكوّم كل واحد منهم فوق سرير أو حشيّة أو بساط تبعاً لدرجة فقره، ثم أخذوا ينصتون لأنغام الجاز التي تُعزف في الحفل، فتتسرّب صعوداً أو هبوطاً لتصل إليهم. هذا، وميزان الحرارة على باب الصيدلي بشارع غاريبالدي يشير إلى ٣٠ درجة.

دعا المفوّض أتيليو المهندسَ الزراعي الحكومي لتناول كأس بصحبته فوق رصيف النادي الرياضي الذي يواجه السراي، عند زاوية الساحة الكبرى. فالحفل بتوابعه كلّها يقع تحت أنظارهما.

كانت مبادرة كريمة من المفوّض أن خوّل مدير النادي، تسهيلاً للحفل (الذي تقيمه البلدية للمصطافين)، تجاوز حدود الرصيف والنزول إلى أرض شارع غاريبالدي. فأضحى الصف الأول من الموائد في متناول يد نوافذ السجن، في طابق السراي الأرضي. وليس من يجلس إلى موائد الرصيف سوى المصطافين، فيما أبناؤهم وبناتهم يرقصون حول صنوبرة مورا. كانت غالبية الجالسين من التجار والموظفين القادمين من مدينة فوجيا ومدن الداخل الصغيرة الأخرى. أمّا أغنياء المنطقة فيقضون إجازاتهم على شواطئ الشمال أو في منتجعات أبروزي الجبلية. وينضمّ إلى هؤلاء أيضاً عدد من أعيان مناكوري مثل موثّقي العقود والمحامين والأطباء، لكن دون نسائهم. إنّها موائد رجال. كان البعض منهم يفكّر في السجناء القابعين وراء نوافذ السجن، والبعض الآخر لا يفكر فيهم، فالأمر تابع لهواهم وميل قلوبهم. أمّا السجناء فيصغون من وراء القضبان لأنغام الجاز وينصتون لذلك المزيج من الأصوات في تلك الأمسية الاستثنائية. لكنّهم لا يشاركون في الغناء لأنّهم لا يعرفون ألحان الجاز، وهم على كل حال سجناء صغار، موقوفون من قبل القاضي أليساندرو وضمن اختصاصه قاضيَ صلح، وقد أُلقي القبض عليهم بتهم مختلفة منها سرقة البرتقال والليمون، والصيد بالديناميت، والطعن بالمدى دونما خطورة.

قال المهندس الزراعي:

- لديكم فرقة جاز جيدة.

فأجاب المفوّض:

- بل ممتازة بالنسبة لمدينة صغيرة كهذه.

ولاحق بنظره جوزبينا التي كانت ترقص تحت الصنوبرة في الجانب الثاني من الحاجز الأخضر.

فأردف المهندس قائلاً:

- كنت وأنا طالب في كريموني رئيس فرقة الجاز الخاصة بكلية الزراعة.

كان المهندس الزراعي من أبناء الشمال، أشقر، ذا جبهة محدّبة. وهو لومباردي متورّد الخدين عمره ستة وعشرون عاماً، يقيم في بورتومناكوري منذ ثلاثة أعوام أي منذ بدء تعيينه. وينصبّ اهتمامه على تربية الماعز. فيقيم في دار منفردة فوق التلال اليابسة غربي البحيرة، وقد أنشأ فيها إصطبلاً نموذجياً وضع فيه اثنين من تيوس الإنتاج التي تقدّمها الحكومة مع عنزات من فصائل متنوعة، أحضر بعضها على نفقته الخاصة من آسيا الصغرى. أمّا الهدف الذي وضعه نصب عينيه فيتمثّل في إنتاج عِرق جديد من الماعز يتكيّف مع الساحل المناكوري، وينتِج من اللبن ضعفَين إلى ثلاثة أضعاف ما تعطي العنزات الضامرة الهزيلة التي يقودها رعاة دون سيزار. ويحلم بأن يحقّق ذلك في بحر عشرين أو ثلاثين سنة. وهو تقنيٌ نزيه من أبناء الشمال مولداً ونشأةً، إنّه بكلمة واحدة لومباردي عنيد.

أضاف المهندس الزراعي قائلاً:

- بودي هنا أيضاً لو أقود فرقة جاز، لكن ما إن يصير المرء موظفاً حتى يحسب للرأي العام ألف حساب.

فقال المفوّض:

- مازالت لدينا اعتبارات تستعبدنا.

واستأنف المهندس يقول:

- أنا أبدو أصغر من حقيقة سني. ولو شاهدني الفلاحون وأنا أعزف على آلات الجاز لفقدتُ في نظرهم كل مهابة واعتبار.

قال المفوّض ساهياً:

- إنّهم متخلفون.

- ليس بالأمر اليسير أن تقنعهم بأنّ تحسين العنزة أمر ممكن.

فقال المفوّض:

- هذا راجع إلى ما يبتغون منها.

وضحك كاشفاً عن أسنانه، إنّ أسنانه جميلة، وهو بها جد فخور. ولم يفهم اللومباردي تلميح المفوّض. فاستطرد قائلاً:

- في مدن الشمال حلقات تضم هواة الجاز، ولا يُلام موظف ينتمي إلى حلقة فيها محامون وأطباء. أمّا حلقة الجازعندكم فلا تضمّ سوى الفتيان.

- لم تكن سعيد الحظ حين عيّنوك في مناكوري.

فقال اللومباردي:

- الوضع ممتع.

- ستظلّ تنتظر طويلاً قرار نقلك. أعرف موظفين بلغوا سنّ التقاعد دون أن يطالهم النقل.

- لكنني لم أتقدم بطلب نقل فالماعز تستهويني.

قال المفوّض: «حقاً...»

وتابع بعينيه جوزبينا وهي تُراقص أحد الروماويين، فالشاب طويل ومنطلق، فمه روماوي الشكل والشفة السفلى مقلوبة بازدراء. جوزبينا تضحك. ها هي تضع يدها على صدر الشاب وتبعده مغرقة في الضحك. أمّا جسدها النحيل فيشبه انحناءة قوس مشدودة، وهي تلاصق الشاب الطويل ذا الهيئة المتعجرفة.

قال المفوّض:

- لو كنتُ مكانك لما ألححت في الطلب لتأتي ماريت دون سيزار فتعمل عندي.

يقوم شخصان اثنان بالعمل عند المهندس الزراعي، فيتولّى رجل مهمة الإشراف على الإصطبل النموذجي، وتتفرّغ إمرأة لشؤون البيت. لكنّ الإصطبل بات يتطلّب عملاً متزايداً، فقصد إلى العجوز جوليا طالباً ابنتها الصغرى لإدارة شؤون بيته. واتفقا على ذلك وحددا الأجر، إنّما ينبغي أولاً أخذ موافقة دون سيزار. لكن لِمَ ذلك؟ أليست جوليا حرّة في تشغيل ابنتها

حيثما تشاء؟ وكيف استطاع المفوّض أن يعرف بحقيقة الأمر؟ لا شكّ في أنّ مهنته هي أن يحيط بكل شيء علماً...

ضحك المفوّض كاشفاً عن أسنانه. وقال:

- كلّ واحد هنا يعمل مُخبِراً للآخر، وما يقوم به الآخرون هواةً أقوم أنا به محترفاً... لذا أنصحك بألا تضع بنتاً بكراً في خدمتك...

اصطبغت وجنتا اللومباردي الورديتان بلون الأرجوان. وبدا ساخطاً. إذن ما النوايا التي ينسبون إليه؟

قال المفوّض:

- أبكار الجنوب شرّيرات.

فقال المهندس الزراعي:

- لسْنَ بأسوأ من أبكار الشمال.

- بنات الشمال يرضخن في نهاية المطاف.

- هذا لا ينطبق على كافة الأحوال والأوقات.

- لكن عندما يرين أنّ الغيظ الذي استبدّ بالرجل من أجلهن، قد بلغ به حافة الجنون، فإنّ الشهامة تدفع بهنّ للرضوخ.

- ليست المسألة مسألة موقع جغرافي.

فتابع المفوّض قائلاً:

- إمّا أن تضاجع مارييت أو لا تضاجعها. سوف يتوفّر على كل حال عشرةَ شهود يُقسِمون على أنّك اغتصبتها أو شرعت في اغتصابها، والأبرشيّة كلّها ستتدخل في القضية والكاهن أيضاً، ولسوف يجرّونك للمثول أمام المحكمة، ولن يبقى لك من اختيار إلا أن تتزوجها أو أن تُرتِّب لها نفقة....

رفض المهندس الزراعي إمكان وقوع مثل تلك الشرور مؤكّداً على حسن نواياه وصفائها. وانتهى الرقص فذهبت جوزيبينا لتجلس على مقعد

بجانب ابنة المحامي سلغادو. كان المفوّض يحاول إقناع المهندس الزراعي بضخامة المخاطر التي يعرّض نفسه لها، إذا ما أصرّ على أخذ ماريت لتعمل عنده.

- أنتَ لا تعثر في الجنوب إلا على قانونيين، والعامل الزراعي نفسه، الذي لا يجيد القراءة والكتابة، تلقاه في واقع الأمر رجل قانون كبيراً...

المهندس الزراعي لديه سيارة. لا بأس. لكن وقع له أكثر من مرّة أن كان على إحدى طرق الجنوب، فأُرغِم على ضغط المكابح بأسرع من لمح البصر، ليتفادى دهسَ راكب درّاجة، كان أمامه، فانعطف بغتة نحو اليسار. أجل. لكن كيف يتصرّف سائق الدرّاجة عادةً؟ إنّه يومئ باسطاً ذراعه وينعطف بعدها من فوره نحو اليسار، غير عابئٍ بسيارة قد تكون قادمة من ورائه بسرعة مئة في الساعة. فلِمَ يتصرّف على مثل هذا النحو؟ لأنّ ذلك من حقّه. لقد بسط ذراعه حسبما يفرض عليه القانون أن يفعل، فبات من حقّه أن ينعطف. ولا يخطر على باله أن يتساءل عن قدرة السائق القادم من ورائه على كبح السرعة قبل فوات الأوان. هذا من شأن السائق وحده، أمّا هو فعليه أن ينعطف لأنّ له كامل الحق في الانعطاف، وصوناً لكرامته، حتى وإنْ كلّفه الأمر حياته. ذلك أنّه لو رضخ فأفسح المجال للسائق، فيما هو نفسه يملك الحق على السائق، لَسُلِب شرفه، وانتُقِص من كرامته التي يتمسّك بها أكثر من تمسّكه بحياته.

أبدى المهندس رأياً معارضاً حين نفى أن يكون الجنوب هو الذي يجعل من الفقراء قانونيين، بل فقرهم نفسه يجعلهم كذلك. فالفقير لا يملك غير حقّه. لذا تراه يحرِص عليه أكثر من حرصه على حياته التعيسة. أمّا الغني فيملك من الحقوق ما يدفع به إلى التساهل بشأن البعض منها.

كان الرجلان يتناقشان على تلك النحو. ثم بدأت الفرقة تعزف لحن رقصة جديدة. إنّ فرانشيسكو، ابن ماتيو بريغانتي، الطالب في كلية الحقوق،

يتولى قيادة فرقة الجاز. تحولت جوزيبينا لمراقصة المدير الشاب لفرع مصرف نابولي.

سأل المفوّضُ المهندسَ الزراعي:

– قل لي بحقك، كيف راودتك فكرة استخدام مارييت دون سيزار في دارك؟

يصحّ التساؤل حقاً: كيف بدأ ذلك؟ الواقع أنّ اللومباردي قصد مراراً دار دون سيزار، للتحدّث إليه في شؤون الماعز، ولم يجنِ من زياراته تلك فائدة تذكر. فمثل هؤلاء الإقطاعيين ماعادوا يولون مصالحهم الخاصة كبير اهتمام. وبدا دون سيزار أكثر حرصاً ومحافظة على رعاة العهود الغابرة منه على تحسين نوعية قطعانه. قيل إنّه يقوم بعمليات تدقيب، وإنّه بات يعرف طرائق صنع أجبان الماعز في القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أنّه لا يكلّف نفسه، في الوقت ذاته، عناء الطلب إلى الرعاة كي يقوموا بتحضير أجبانهم، بل أجبانه هو، في أوعية نظيفة. وأثناء تلك الزيارات استرعت مارييت الصغيرة انتباه المهندس الزراعي، فقد وجدها متوقّدة، أي نشيطة يقظة. وبما أنّه بحاجة إلى شخص ما...

– ألا تذكر أنّ أحداً قد أوحى إليك بهذه الفكرة؟

تذكّر المهندس أنّ امرأة طويلة القامة، متينة البنيان، سمراء البشرة – بل قيل له في الواقع إنّها إلفيرا، عشيقة دون سيزار وشقيقة مارييت – لم تخفِ عنه دهشتها واستنكارها لقيام امرأة، مهمتها العناية بالماعز، بإدارة شؤون داره وتدبير منزله.

فصاح المفوّض ظافراً:

– ها أنت قد وقعت في الشراك أخيراً.

فردّ المهندس قائلاً:

– ولم لا؟

«إنّها تتستحوذ عليه». هكذا فكّر المفوّض. وهذه العبارة، بحد ذاتها، تستهويه. فبين بني البشر أناسٌ يستحوذون على أناسٍ آخرين.

ويصبح المالِكون بدورهم مملوَكين. وتتداخل حالات الامتلاك فيما بينها وتترابط فلا يعود الإفلات منها بالأمر المستطاع. لقد امتلك هو نساءً كثيراتٍ، كنّ في غالبيتهن متزوجات. وتقدّم له مهنته تسهيلات في هذا الصدد لا تتوفر لآخرين، فكان يأخذ على الدوام زمام المبادرة إلى القطيعة، إلا أنّ المرأة تبقى في الغالب مملوكة له، لأنّها كانت تلحّ بالسؤال رغبة في لقاء أخير. وعلى هذا النحو المتكرّر يكون الوصال الأخير، فيخرج منه ونشوة النصر تملأ رأسه. أمّا الآن فإنّ جوزيبينا هي التي تمتلكه.

– هل سبق لك أن سمعت مارييت تغني؟

فرد المهندس بالنفي.

قال المفوّض:

– إنّها موهوبة، فهي تتمتّع بصوت حاد، صوت عالٍ جداً، يخلّف في النفس أبلغ الأثر حين تغني بعض الأغاني المحلية. وقد يعثر المرء على صوت من هذا النوع بين قرويات المنطقة. وقد لا يستوعبه بكافة أبعاده من لم يكن مولوداً وناشئاً على أرض الساحل المناكوري. من المحتمل أن لا تستسيغه أنت. بيد أنّ «الصوت» ليس خالياً من علاقة بالغُنّة التي تميّز أصوات النساء المغربيات.

قال اللومباردي مستفسراً:

– قلت: الصوت؟

– نحن نطلق اسم «الصوت» على هذا النوع من الأصوات. والنساء اللواتي يتمتعن بموهبة «الصوت» يكنّ ساحرات.

فسأله اللومباردي:

– وهل تؤمن بالسحر؟

فكّر المفوّض في أنّ أبناء الشمال تعوزهم، بكل تأكيد، النباهة وحضور الذهن. ثم أجاب:

– كلا، أنا لا أومن به أبداً، لكنْ لكل شيء ثمن. فالذين يرثون موهبة خاصة تحرمهم الطبيعة من شيء آخر.

فقال المهندس الزراعي:

– أنتم أبناءَ الجنوب تميلون دوماً إلى الفلسفة.

فواصل المفوّض يقول:

– لكن حذار، فالموهوبون تنقصهم الرأفة. وماريّيت ذات نظرة قاسية. ولسوف تتملّكك...

فأجاب المهندس الزراعي:

– هؤلاء الفتيات، اللائي نشأن نشأة قاسية في ممتلكاتكم الواسعة في الجنوب، يصرن ربات بيوت من الطراز الأول.

* * *

الأكيد أنّ لعبة «القانون» اتخذت مساراً على أحسن ما يرام. فقد انقضت سبعة أشواط دون أن يقع اختيار أوراق التاروت على طونيو معلّماً. كما لم يعيّنه أي معلّم وكيلاً له. ولكي يكون «القانون» لعبة مبهجة وممتعة، لا بدّ من أن يتعاون الحظ مع اللاعبين على اختيار ضحيّة بعينها، يلاحقونها ويحاصرونها حتى الإرهاق. وعلى هذا النحو فقط تأخذ لعبة الفقراء هذه منحى لا يقل إثارة عن الصيد بالسوط من على متن الجياد أو مسابقة الثيران، مع الفارق الأكبر في أنّ الطريدة هنا رجل.

حين بدأ الشوط الثامن، قَبِلَ الساقي أن يديّن طونيو بعد أن خسر المئتي لير وعشرة فوقها. كانت أوراق التاروت بطيئة في إعلان النتيجة حتى ساد الاعتقاد بأنّ رجل دون سيزار المقرّب سوف يفوز أخيراً. وكادوا يأسفون على ذلك. بيد أنّ القاعدة ليست مطلقة واللعبة لا تفقد متعتها دوماً إذا ما شاء

الحظ أن يتحوّل فجأة ليقف إلى جانب الضحيّة. فالتحوّل يؤدّي أحياناً إلى نتائج مثيرة جداً، وكل شيء متوقف على نوعية الضحيّة. فماتيو بريغانتي على سبيل المثال وكذلك بيزاشيو، عندما يحالفهما الحظ بالفوز بعد جولات عديدة من الخسارة، تجد أن ذكرى ما أصابهما من إذلال أو امتهان، قد فجّر طاقات الخبث الطبيعي الكامن فيهما وضاعف من قدراته. وحالهما هنا كحال ثور المصارعة، من الفصائل الممتازة، حين يسقط في الحلبة، فيتبادر إلى ذهن الجميع أنّه قد انتهى ثم تراه يهب فجأة فيحمل على المصارع. فليس ما هو أجمل من ذلك. بيد أنّ طونيو تلقّى كثيراً من الإصابات حتى الجولة الثامنة فبات من الصعب عليه القيام بحملة ذات شأن. صحيح أنّه ماكر بطبعه، لكنّه فقد رباطة جأشه التي تسمح لمكره بالظهور. زدْ أنّه صار ينوء الآن تحت عبء الدين وهموم الخسارة، أي أنّه لو فاز الآن لظلّ عاجزاً عن شرب كأس النصر حتى الثمالة، وإبادة الخصم بحيث لا تقوم له قائمة من بعد، كما يفعل قائد عسكري محنّك ولاعب «قانون» خبير. ومن حسن الحظ أن اختارت أوراق التاروت دون روجيرو معلّماً، فازداد انخراطاً في اللعب واختار ماتيو بريغانتي وكيلاً لاقتناعه بأنّه الأكثر لؤماً.

فما كان من طونيو إلا أن نهض.

قال للساقي:

– لك بذمتي أربعون ليراً...

وأزاح الكرسي وتوجّه نحو الباب قائلاً:

– ... أسدّدك إياها في المرّة القادمة.

فصاح بيزاشيو:

– هاهو ينسّلّ هارباً خاوي المعدة.

قال طونيو:

– تصبحون جميعاً على خير.

وصار عند عتبة الباب حين صاح به دون روجيرو:

- يا طونيو.

فتوقف واستدار وقال لدون روجيرو:

- ماذا تريد مني؟

قال:

- ليس لك الحق في الانصراف.

قال الساقي لطونيو:

- أصغِ إليه، فسوف يصبح محامياً عما قريب. إنّه يعرف ما يقول.

فتابع دون روجيرو يقول:

- ليس لك الحق في الانصراف لأنك لم تُنْهِ عقدك.

وسُمعت تمتماتٌ مؤيّدة لكلام دون روجيرو. ذلك أنّه أسبغ على الجولة طابعاً ظريفاً. ثم أضاف:

- أصغِ إليّ. أنت رجل دون سيزار المقرّب. هبْ أنّك أحضرت نيابة عنه مرابعاً. سوف تقيم بينك وبين هذا المرابع عِقداً شفوياً. هل أدركتَ ما أقول؟

أصغى طونيو متجهّم الوجه مقطّب الجبين.

- إنك بموجب هذا العقد لا تملك حق الاستغناء عن خدمات المرابع دون إنذار مسبق. والمرابع أيضاً، لا يملك حق التوقف عن العمل دون إشعار سابق. فهل توافق على كلامي؟

أجاب طونيو بشيء من التردد:

- أجل.

- حين بدأتَ اللعب، أقمتَ بينك وبيننا عِقداً شفوياً، ولا يحقّ لك بموجبه الانصراف دون سابق إنذار.

قال طونيو:

- ليس الحال على ما يرام، تصبحون جميعاً على خير.

إلا أنّه تردّد في اجتياز العتبة.

قام دون روجيرو بحركة واسعة من ذراعه.

- أُشهدُكم جميعاً على أنّ رجل دون سيزار المقرّب ضرب المثل على خرق عقدٍ دون إشعار مسبق!

فكرر طونيو القول:

- طاب مساؤكم جميعاً.

لكنّه ظلّ متردداً.

فقال الساقي:

- وأنا أسحب منك ائتماني، إذا لا يسعني أن أئتمن رجلاً لا يتقيّد بعقد عقده.

فأعلن دون روجير قائلاً:

- لقد نشأ هنا وضع جديد.

هبّ مسرعاً نحو طونيو فوضع يده على كتفه وقال:

- عندما لا يكون لدى المرء ائتمان، يتوجّب عليه الدفع قبل الانصراف. إدفع له الأربعين ليراً التي أنت مدينٌ بها.

فقال طونيو:

- لا مال لديّ.

- هذه اسمها جنحة نصب واحتيال. والبتّ فيها من اختصاص المحكمة.

ارتفعت من جديد تمتمات تؤمّن على الكلام ثم علا التصفيق. فبوسع طالب في كلية الحقوق إذا ما شاء، أن يضيف إلى لعبة «القانون» توابلَ تضفي عليها طعماً جديداً.

صاح الأسترالي :

- هذا صحيح، وقد رأيت بأمّ عيني مثل هذه الحال في فوجيا. فقد حاول الرجل الخروج دون أن يسدّد ثمن الطعام، فاستدعى صاحب المطعم رجال شرطة البلدية فأوقفوه.

قال الساقي:

- لن أكونَ سيّيء الخلق لأتصرّف على ذلك النحو. حسبي أن يعدني بالبقاء حتى نهاية اللعب لأعيد إليه ائتماني.

صفّق الحضور للساقي. وأحاطوا بطونيو فدفعوا به دفعاً نحو المائدة.

قال:

- أنتم تمتلكونني، أعرف حقّ المعرفة أنكم تمتلكونني...

وعاد ليجلس في مكانه .

على الفور سأل الأسترالي وكيلَ المعلم، ماتيو بريغانتي، قائلاً:

- هل تسقيني كأساً؟

فقال بريغانتي:

- المسألة منوطة بك، فلْنرَ أولاً إنْ كنتَ تُحسِن الجواب.

- هيا اسأل...

- بودِّيَ أن أعرف أولاً لماذا طونيو يسيءُ فهم المزاح؟

- لأنّ مارييت جعلت دمه يغلي ويفور.

- إجابتك لا بأس بها. لكن قل لي: لماذا مارييت جعلت دمه يغلي؟

- شاهدتها قبل أيام وهي ذاهبة لإحضار السمك من عند صيادي دون سيزار. كانت عارية تحت قميصها، وكان العرق يجعله يلتصق بجسدها، حتى لترى كل شيء: نهدين كالليمون وردفين كالرمان.

- ماذا يبغي طونيو من مارييت؟ هذا ما أود معرفته.

أجاب الأسترالي :

- يبغي أن ينال بكارتها، بيد أنّ طونيو ليس الراغب الوحيد في بكارة مارييت.

- ومن سينالها حسبما ترى أنت؟

أجاب الأسترالي:

- دون سيزار.

فقال ماتيو بريغانتي:

- كلا.

فكرّر الأسترالي مجيباً:

- قلتُ لك إنّه دون سيزار.

وتشبّث الأسترالي برأيه. فدون سيزار سيّد حقيقي، ولم يسمع أحد أنّ بكارة فتاة من أهل داره ظلت بعيدة عن مناله. فأبوه من قبل كان أيضاً ثوراً حقيقياً من الأسياد. وكذلك جده من قبل أبيه. صحيح أنّ دون سيزار قد بلغ الثانية والسبعين الآن، لكنّ عشيقته إلفيرا لا تشكو من قصور لديه. إنّها أسرة يبقى فيها الفرد ثوراً فحلاً على الدوام مهما طال عمره. فجدّه كان يفترع بنات السبخة وهو في الثمانين من عمره.

كان الأسترالي يتحدث عن ذلك بنوع من التهليل والتعظيم. فتجمّع حوله عدد كبير من رواد الحانة التي كانت تغص بالزبائن. ملأتِ الجميعَ نشوةُ الابتهاج والتهليل فصاروا يرددون: «ثور، فحل... تيس فحل...». فبدا كأنّ فحولة دون سيزار قد رفعت رؤوسهم جميعاً.

قال ماتيو بريغانتي:

- أسأتَ الإجابة. فلن تنال نبيذاً.

وجاء دور الأميركي بالسؤال:

- هل تسقيني كأساً؟

- قل لي أولاً من الذي سينال بكارة مارييت؟

أجاب الأميركي:

- أعرف ذلك حق المعرفة، فبستاني ملاصق للأرض السبخة حيث لا تفوتني شاردة ولا واردة، وأنا مُلِمٌّ بالخطة التي رسمتها نساء دار دون سيزار بشأن بكارة ماريت.

- قل إذن.

- ماريت مُعَدَّة للمهندس الزراعي.

فقال ماتيو بريغانتي:

- أنتَ تكذب.

الواقع أنّه شرب كثيراً من النبيذ، فمن بداية اللعب وهو بصورة شبه مستمرة معلم أو وكيل معلم. فبات لعبُه مفتقراً للكياسة. ليس هذا من دواعي الأسف على كل حال، إذ يأتي وقت يحمى فيه وطيس اللعب فيُعطي العنفُ «القانونَ» قوةً وبأساً ممتعين. والمتفرجون بدورهم شرب معظمُهم كثيراً. فصار ضحكهم أكثر صخباً وتعليقاتهم أكثر جرأة.

روى الأميركي ما فعلت والدة ماريت وشقيقتاها ماريا وإلفيرا في سبيل اجتذاب المهندس الزراعي. فماريت سوف تذهب للعمل في بيته... ولن يتوانى عن مدّ يده إلى الليمون والرمان...

تساءل دون روجيرو:

- وهل ماريت لها أظلاف؟

فأغرق الجميع في ضحك صاخب. ذلك أنّ إنشاء الإصطبل النموذجي حمل سكان المدينة على الاعتقاد بأنّ المهندس الزراعي يشاطر رجال السبخة رغباتهم. فهو يؤوي عشيقاته في قصر.

وشرع المشاهدون في تقليد ثغاء الماعز، ولكلّ واحد طريقته في الثغاء. أخذ البعض يرمحُ الأرض بقدميه كما يفعل التيس قبل الوثب، بينما يطأطئ البعض الآخر الرأس راسماً بيده في الهواء قروناً وهميّةً. وما عاد من أحد

يلقي الى طونيو بالاً. فمارييت هي عنزة صغيرة ذائعة الصيت. بل إنّ أحدهم استند إلى زاوية الطاولة وأخذ يهزّ الظهر مقلّداً التيس في الرهز متلفّظاً باسم مارييت مع كل حركة. وماعاد للضحك والثغاء من نهاية.

أخيراً هدأ الجو بعض الشيء.

فقال بريغانتي للأميركي:

- لقد أسأتَ إجابةً، فلن تنال نبيذاً.

فقوبل قرار بريغانتي بصيحات الاستنكار.

وهنا سأله بيزاشيو:

- هل تسقيني كأساً؟

كان يبتسم إبتسامة الواثق من نفسه.

فقال بريغانتي:

- لنرَ أولاً ماذا وجدت.

- ليس دون سيزار هو الذي سيغتصب مارييت وليس المهندس الزراعي أيضاً، إنّما أنت يا ماتيو بريغانتي.

علت صيحات الاستنكار مجدداً، فهو في منتهى الخِسّة والعبودية تجاه معلمه الدائم، وهذا لم يعد لعباً.

قال ماتيو بريغانتي بعزم:

- لقد أحسنتَ إجابةً.

وقوبل من جديد بصيحات الاستنكار.

أخذ بريغانتي كأساً فملأها وقدّمها لبيزاشيو قائلاً:

- بوسعك أن تطلب مني كأساً ثانية وثالثة، بل الجرة كلّها إذا ما شئتَ...

تضاعفت الأصوات مستنكرة ومستهجنة. وكأنّ الحانة باتت ملجأً للغوغاء. خبط ماتيو بريغانتي على المائدة بقبضة يده صائحاً:

- أصغوا إليّ.

مرّ وقت لا بأس به حتى ساد الصمت من جديد.

- أصغوا إليّ، سوف أروي لكم كيف أفعل، أنا ماتيو بريغانتي، عندما أريد أن أغتصب بكراً.

ران سكون تام على كافة أرجاء الحانة.

انحنى بريغانتي صوب طونيو قائلاً:

- أصغ إليّ جيداً. هذا درس سوف ألقّنك إياه، لكنّك لن تجني منه فائدة تذكر، فبطنك خاو.

تحوّلت الأنظار لحظة نحو طونيو، الضحيّة التي وقع عليها اختيار «القانون». ثم ارتدّت مشدودة إلى ماتيو بريغانتي الذي هبّ منتصباً فقال:

- لنفرض أن ماريت واقفةهنا، قرب المائدة...

وسرد رواية واضحة ومفصّلة ودقيقة، عما يحلم كل واحد بتحقيقه.

امتقع لون طونيو حتى صار بلون سترته البيضاء المنشّاة حديثاً. كان بعضهم يرمقه بطرف عينه استعداداً للإمساك به وتقييد حركته إذا ما بدرت منه بادرة. إلا أنّه ظلّ ساكناً، يتابع بعينيه فقط حركات بريغانتي وإيماءاته.

ولقد ألحّ بريغانتي إلحاحاً خاصاً على وصف العنف في التمزيق. ولما كان ناحل القوام، جافاً ومتين البنية، فإنّ الوصف بدا شديد التأثير.

كان طونيو يحدّق فيه بنظرات باهتة فارغة مثل مشاهد أمام شاشة التلفزيون.

انتهى بريغانتي من سرد تفاصيل روايته قائلاً:

- هكذا.

استمرّ الصمت لبعض الوقت ثم انفجرت القاعة بالتصفيق. استأنف العديد من الحضور تقليد حركات الاغتصاب. وعاد آخرون إلى الثغاء، فصار

ثغاؤهم يصمّ الآذان. وأكثر من مرّة قام اثنان يتناطحان مقلّدَيْن عراك التيوس قبل الوثب لنيل الأنثى.

ثم رجع ماتيو بريغانتي للجلوس في مكانه مواجهاً لطونيو. فملأ كأساً من النبيذ ومدها إليه قائلاً:

– إشرب.

تناول طونيو الكأس بصمت فكرعها دفعة واحدة.

خلط الأسترالي أوراق التاروت للجولة التاسعة. لبث طونيو ساكناً لا يتحرك. فقال له الساقي:

– أنا أديك.

لم ينبس طونيو ببنت شفة. مدّ يده وتناول الأوراق التي كان الأسترالي يوزّعها.

* * *

استوى دون سيزار على كنبته المعهودة في القاعة الكبرى للدار ذات الأعمدة. فمنذ بداية السهرة، ونظره لا يفارق تمثالاً صغيراً من الفخار جاءه به صيادوه، فوضعه على الطاولة، تحت نور السراج.

وجلست في الطرف الآخر من الطاولة، وهي منضدة ضخمة مصنوعة من خشب الزيتون، نساء الدار: جوليا العجوز وبناتها الثلاث ماريا وإلفيرا وماريت، يتناقشن بحدّة تحت نور سراج ثان.

النساء قاعدات على مقاعد خشبية بمحاذاة جانبي الطاولة، أمّا دون سيزار فاستوى على كنبته الكبيرة المصنوعة منذ قرنين من الزمن في نابولي، بمسندها من الخشب المحفور المذهّب ومتكأتها المقنطرة المحفورة كوجه آلهة متجهّمة. لقد تآزرت تلك الكنبة، والتدرّج المشرق لألوان الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الزيتون، فأضفت على القاعة جواً من الأبّهة

والعظمة، وصار دون سيزار يستقبل ضيوفه فيها مذ أن خصّص صالات الطابق الأول برمّتها لاحتواء مجموعاته الأثرية.

أمّا في الظل الذي يلف نهاية القاعة، فيقوم موقد هائل على شاكلة ما يصنعون في الشمال، وهذا المظهر من الترف جرى تشييده في أواخر القرن الماضي نزولاً عند رغبة والد دون سيزار. وتقوم النساء بطهو الطعام فيه باستخدام ركّابة يوقدن تحتها الفحم الخشبي كما يفعلن في المنازل غير المجهّزة بموقد.

ظلّ دون سيزار جالساً يحدّق في التمثال الفخاري الصغير الواقع تحت ضوء السراج الخافت، إنّه يمثل راقصة ضيّقة الوركين، تُظهِر ثنياتُ الجلباب نحولها ورقتها.

علا صوت النساء وهن يتحدثن، لأنّهن يعرفن أنّ دون سيزار لا يصيخ السمع لكلامهن. ويمكن الظنّ أنه لم يعد يسمعهن مطلقاً منذ سنين. لكنّ هذا لا يمنعه أحياناً من أن يخبط براحة كفه على الطاولة، حين يصرخن صراخاً عالياً، فيقول:

- يا حريم!

فيصمتن، ثم يتكلمن همساً، لتبدأ نبرة أصواتهن بالارتفاع تدريجياً حتى يشرَعْن بالصراخ مجدداً دون أن يبدو عليه أنّه يلاحظ ذلك.

حين اختلف دون سيزار مع النظام الفاشي عام ١٩٢٤، فقدّم استقالته ضابطاً، كان في الأربعين من عمره. وقد باشر كتابة تاريخ أوريا، المدينة اليونانية المزدهرة، وإحدى مستعمرات أثينا، التي شيّدت في القرن الثالث قبل الميلاد بين البحيرة والبحر، أي منطقة الأرض السبخة حالياً. كما أنّ أباه الذي دخل في خصام مع آل بوربون حكام نابولي، وعم أبيه، أسقف بينيفان، المغضوب عليه لمقاومته البابا الرهيب أنيبال ديلا جنغا، قد قاما من قبل، بعمليات تجميع وتصنيف للأثريات التي يعثر عليها صيادو الأرض السبخة وفلاحو بساتين الزيتون.

أقام دون سيزار بعد تقاعده في قصر العائلة في كالا لونغا، وهي مدينة صغيرة قائمة على رأس الهضبة الصخرية التي تقي بورتومناكوري من رياح اليابسة. كان الابن والأب كلاهما ملكيّاً متحرّراً، لنشأتهما وسط تقاليد دار سافوا الماسونية. بيد أنّ الأب تحالف مع الفاشية بسرعة. ثم جاءت القطيعة النهائية بينهما إثر توقيع المعاهدة البابوية عام ١٩٢٩. لقد رأى دون سيزار أنّ موسوليني بتساهله مع البابا، وأنّ ملك إيطاليا بموافقته على المعاهدة، قد خانا إنجاز التحرير العظيم الذي تعهده فيكتور عمانوئيل الثاني وغاريبالدي وكافور.

فنزل إلى الأرض السبخة، مصطحباً معه قسماً من العاديات.

ثم قام بتجميع كل ما كتب عن الاحتلال الإغريقي لإيطاليا الجنوبية، وتابع دراسات جديّة في نابولي معتمداً على إتقانه الجيد للفرنسية والإنكليزية، ثم مالبث أن تعلّم الألمانية كي يقرأ للمؤرخين مونخ وتودت، وكلٌ منهما حجّة في تاريخ العصر الهيلينستي. وتمكّن في السنين الأولى من تجميع كمية ضخمة من الأمالي والملاحظات. ثمّ رسم مخطط مدينة أوريا. فالسهلة الترابية أمام دار الأعمدة هي موقع الساحة الرئيسة، الأغورا. كانت مدينة أوريا القديمة مكرّسة للإلهة فينوس. أمّا معبد الربة فكان يرتفع فوق تل صخري صغير عند طرف مصرف البحيرة. وباشر دون سيزار أعمال التنقيب، فتبيّن له أنّ البحيرة كانت ميناء كبيراً.

ظلّ يقيم، بعد وفاة والده، في الأرض السبخة التي ألفها وطاب فيها عيشه. فهو يمارس صيد السمك والقنص ويعقّد مجالس الشراب مع أهل بيته.

كما كان يدفع بسخاء ثمن العاديات التي يحضرونها له. وبالمقابل كان الرجال يتظاهرون بأنّهم يجهلون روابط العشق التي يقيمها مع بناتهم أو شقيقاتهم. وكان من ناحيته يجد المبرّر لحضورهن إلى دراه، في الحاجة إلى الأعمال المنزلية المتنوّعة: كالغسيل والخياطة أو تقشير الذرة أو تجفيف التين. وعلى هذا النحو كان عِرْضُ الرجال مُصاناً.

حين كانت تروقه الفتاة بعد الليلة الأولى، يستبقيها خادمة في البيت. ولم يمارس أحد عليه ضغطاً أو ابتزازاً على الإطلاق. فمن تقاليد الأسياد في سبخة أوريا تمتين عرى الصداقة مع بنات دورهم ونسائها.

وإن لم تعد الفتاة تجد هوىً في نفسه، كان يُزوّجها. إلا أنّه رغب في بقاء جوليا بعد تزويجها، لأنّها طاهية ممتازة، ولأنّ زوجها شديدُ العناية بالعاديات. ولقد كلّفه بصيانة المجموعات فلم يكسر قطعة واحدة طول عشر سنين. وتابع الاحتفاظ بها من بعده بسبب بناتها.

كان ينتقل كلّ عام للإقامة خمسة عشر يوماً فقط في قصر كالالونغا. أي ما يكفي لتسوية الأمور مع الذين يتولّون إدارة ممتلكاته. كان الخشب يحتل القسم الأكبر من عائداته. فهو يمتلك المساحة الأوسع من غابة الظل، التي تكلل هامة الهضبة الصخرية وراء بورتومناكوري. أمّا بساتين الزيتون والبرتقال والليمون فمتناثرة فوق الروابي المبعثرة كأنّها حصون الجبل الأولى. كان يبيع المحاصيل قائمةً، ومنذ مرحلة الإزهار، لضامنين ورجال أعمال يأتون من فوجيا، فيأخذون على عاتقهم كلّ ما قد ينجم عن تقلبات الطقس. صحيح أنّهم كانوا يجرون حساباتهم بدقة، فيتركون هامشاً واسعاً لما قد يحدثه غضب السماء من أضرار.

بيد أنّ كسب دون سيزار أنّه يصير في غنى عن الاهتمام بهذه الممتلكات، طول الفترة المتبقية من السنة. لكنّه يتولّى بنفسه إدارة مصائد الأسماك في البحيرة والأرض السبخة، يساعده في ذلك «الرجل المقرّب». وإذا كان مردودها متدنياً فإنّها تبقى الأقرب إلى نفسه. هنالك يتسلى بصيد السمك ويمارس القنص فهي له أرض المتعة والمسرّات.

وعلى مرّ الأيام، ازدادت، مع متانة التواطؤ، عمليات الاختلاس والسرقة. فالوكلاء والضامنون ورجال الأعمال صاروا ينهبونه أكثر فأكثر. وتراه مع ذلك لا يلقي إليهم بالاً، لأنّ متطلّباته ليست كمتطلّبات غيره من كبار الملاكين، الذين يمضون قسماً من السنة في روما أو في الخارج. فالمال

المتبقي لديه كاف لنفقات الصيد وثمناً للعاديات. وهو يقـدّم إعانـات عينيـة للعاملين في أعمالِ التنقيب ولأُسَرِ عشيقاته، قمحاً وزيتاً مما يـسدد الـوكلاء. فترى الفتيات قانعات بأصغر الهدايا. حسبهن فخراً أنّهن يؤمّنّ لأسرهنّ لقمـة العيش. كان دون سيزارعلى أحسن حال، رغـم الـسرقات الـضخمة التـي يتعرّض لها على الدوام. فالوكلاء يُكنّون له كل احترام ويسرقونه في الوقـت ذاته، لأنّهم يعرفون أنّه يعرف أنّهم يسرقونه. لم يكن إذن أضحوكة بـل كـان عِفـاً كريماً. وتثبيتاً لهذا الرأي كان يضيق ذرعاً أحياناً بواحد مـن هـؤلاء الوكلاء فيطرده. فيمضي الرجل من ساعته لينضمّ إلى رتل العـاطلين عـن العمل، الواقفين بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى في بورتومناكوري.

كان قصر كالالونغا في القرن السابع عشر، معـصرة للزيـت يملكهـا أجداد دون سيزار، وكانوا يعصرون فيها كل ما تحتاج المنطقة مـن زيـت، فجنوا منها أرباحاً مكّنتهم من شراء ممتلكات زبائنهم واحدة إثر أخـرى. لـذا فإنّ القصر في بنائه لم يكن على الدرجة نفسها من الأناقة، التي تميّزت بهـا الدارة المشادة على الأرض السبخة، حوالي عام ١٨٣٠، بـصفوف الأعمـدة حسب طراز البناء آنذاك. فالقصر جاثم في أعلى نقطة مـن المدينـة، فـوق ساحة صغيرة. تحده من جهة كنيسة بسيطة فـي طـراز بنائهـا الرومـاني الحديث، ومن الجهة الأخرى المنازل التي سكنها التجار والباعة، أيام كانـت كالالونغا مركزاً تجارياً. أمّا المعاصر ذات الرحى الحجرية فما تـزال قائمـة في القبو، متوقّفة عن العمل منذ زمن طويل، بعد أن أقـام رجـال الأعمـال معصرة آلية للزيت في الساحة الجديدة عند أسفل المدينـة، تعمـل بمحـرك ديزل. وما زالت الخوابي الفخارية بسعة خمسين ليتراً مصفوفة على أنـساق في مستودعات الطابق الأرضي، فارغة. وعندما يأتي أحد لزيـارة القـصر ويدخل إلى هنالك، يشير دون سيزار إلى الخوابي قائلاً: «تلك هـي تماثيـل أجدادي». أمّا الطوابق الثلاثة فكلّها مخصصة للسكن. الصالات فيها فينيـسية الطراز، وقاعة الطعام إنكليزية، وغرف النوم فرنسية، أمّا الهرم العلوي عنـد السقف فيتصل بقبة الناقوس التي يشرف المرء منها على المنطقة بكاملها.

يرسل وكلاء الأراضي في كل عام، وقبل وصول دون سيزار بأيام، نساءهم لتنظيف القصر. فينزعن أغطية الكنبات ويغسلن ما يلزم غسله، ويكنسن ويمسحن الغبار. وتنتهز تلكَ الفرصة، أُسَرُ الوكلاء وأصدقاؤهم وأصدقاء أصدقائهم، فيزورون القصر، معربين عن دهشتهم وهم يرون الأثاث. وتأخذ بمجامع قلوبهم، بشكل خاص، القاعة النابوليتانية من القرن الثامن عشر، بمراياها الكبيرة ذات الأُطُر الخشبية المذهبة، أيام الإقبال على اقتناء التحف الصينية وتماثيلها ذات الأشكال الغريبة (قام النابوليتانيون الأغنياء بتقليد الملتزمين[1]، في بناء قصورهم وتجهيزها بشكل خاص). لقد أوعز دون سيزار بنقل كنبة وحيدة من هذه القاعة تحديدا، لتوضع في دارته في الأرض السبخة، من بعد وفاة والده.

يستقبل دون سيزار في كالالونغا، طول الأيام الخمسة عشر التي يمضيها هنالك، جميع أفراد قرابته، وسلائل الفروع الذين لم يرثوا الأراضي والممتلكات الواسعة أو ورثوا ملكيات صغيرة. وكلّهم من المحامين والأساتذة والأطباء والصيادلة، لكنْ يشكّل المحامون الأغلبية. وهم يفدون إلى القصر من كالالونغا ومن المدن المجاورة، مصطحبين كافة أفراد عائلاتهم. فيستقبلهم دون سيزار في الصالة الفينيسية الرحبة، حيث أحضر لنفسه فقط كنبة إنكليزية، في حين يُجلِس الآخرين على مقاعد غير مريحة، ذات مساند صلبة من الخشب اللماع. ولا يستثني إلا ابنةَ عمٍ له أو ابنةَ ابنِ عم، فيجلسها على كرسي جلدي قريباً منه، شريطة أن تكون جميلة.

بعد وفاة والده ببضع سنين، وبعد أن ثبت لدى الجميع أنّه لن يتزوج، وبات كلّ قريب يحلم بأن يخصّه بإرثه دون سواه، صار دون سيزار يتسلّى بإذلالهم. فيرغم المسؤول في الحزب الفاشي من بينهم على أن يحدثّه عن

---

(١) أمراء ذوو نفوذ كانوا يضمنون جباية ضريبة العشر للخزينة فيجنون لأنفسهم أيضاً مبالغ طائلة. (م)

مثالب الحزب، وعن عمليات التهريب التي تمارسها الزبانية القيادية وعلى رأسها تشيانو[1]، وعن مغامرات الدوتشي الداعرة.

ويضع نهاية لحديثه بعدد من الشتائم الجنوبية المقذعة. كما كان من ناحية أخرى يرغم النساء الورعات على التجديف:

– إيه، يا عمتي، متى ستأتينني بتلك الراهبة الصغيرة؟ لكنْ صرِّحي أولاً بأنّك ستكونين مرتاحة جداً وأنت ترينني أطعن الروح القدس في شرفه.

– أجل يا ابن أخي.

– قولي إنك ستكونين مرتاحة...

– سأكون مرتاحة، يا ابن أخي...

فيلحّ طالباً أن تردّد من بعده:

– لرؤيتي أُركّب قروناً للروح القدس..

– لرؤيتك تركّب يا ابن أخي...

– قروناً للروح القدس.

– قروناً للروح القدس، يا ابن أخي.

وتكرّر المرأة التقيّة الكلام الذي يقول.

ثم يُغرِق الجميع في ضحك صاخب.

ذلك كان قبل الحرب العالمية الثانية.

أمّا الآن فيستقبل دون سيزار أقرباءه بصمت. إنّه يعرف أنّ روح العبودية البشرية ليس لها حدود.

أمّا من قبل، أي حين لم تكن قناعته تلك قد ترسّخت، فكان يعمد إلى جسّ أفخاذ الفتيات أمام أعين أهلهنّ الجالسين، مستقيمين بجذعهم ، فوق

(١) تشيانو صهر موسوليني ووزير خارجيته. (م)

المقاعد الفينيسية المتعبة. كان يتلمّس الأثـداء والأرداف، فيتحـسّس ويـثمّن ويخمّن متلفّظاً بكلمات فظّة. فينهض الآباء والأشـقاء خلـسةً، ويتظـاهرون بتجانب أطراف الحديث أمام النوافذ، مـولين الـصالة ظهـورهم، تحاشـياً للإهانة، وخوفاً من أن يتدخلوا مرغمين دفاعاً عن الـشرف. أمّـا الأمهـات فيهتفن صائحات:

– آه منك يا دون سيزار! أنت لم تتغير، ولن تشيخ أبداً...

فيما الفتيات يخفين استياءهن بمشقة أكبر. أمّا إذا تمكن من محاصرتهن في إحدى الغرف المعزولة، باختلاق أي مبرّر مقبول، فـلا يَعتبِـرن أنّهـن تعرّضن لمهانة أو إذلال. فقد تعلّمن منذ نعومة أظافرهنّ أن يكنّ محطّ أنظار الرجال ومثار رغباتهم وموضع اشتهائهم. ففي ذلك فقط المنجى الوحيد لهـنّ من الخيبة الأبديةّ التي تتهدّد حياتهنّ بالعنوسة. أمّا عملية جسّهنّ علـى ذلـك النحو أمام الناس، كما يتحسّسون الماعز في السوق، فتظـلّ إهانـةً متعمّـدةً. فمنهنّ من كانت تحمرّ خجلاً وأخرى تصفرّ ويُمتقَع لونُها تبعاً لمـزاجهنّ. إلا أنّهنّ لا يُثرن أيّة فضيحة، إمّا خوفاً من توبيخ الأمهـات، أو خـشية إلحـاق الإهانة بالآباء والإخوة، واقتحام ميدانٍ مقتصرٍ على الرجال، بتصديهنّ لمهمّة الدفاع عن الشرف بدلاً عنهم. فيما هم منها يتهرّبون.

ومع ذلك، فقد أخذ الغضب ذات يوم من إحدى الفتيات كل مأخذ. جرت الواقعة بعد الحرب مباشرةً، على أثر الفوضى الناجمة عن عمليات التحريـر والاحتلال المتوالية، التي وضعت في متناول الفتيات أفكار الحريّة والكرامة. فقد أفلتت من قبضته فجأة وصرخت به قائلةً: «أيها الخنزير العجوز».

لقد طرب دون سيزار لتلك الكلمة إلى حدٍّ يتجاوز كلّ تعبيـر. فأسـكت الأم التي اتّهمت ابنتها بأنّها أساءت فهم المداعبات الأبوية العطوفة مـن عـمّ والدها. ولا بدّ أن يكون خيالها (حسب قول الأم) قد شطح بهـا نحـو نوايـا فاسدة. وما إن رجع إلى دار الأعمدة حتى أرسل في طلبهـا لمـساعدته فـي تصنيف أثرياته. وطول شهرٍ كامل لم يتوجّه إليها بكلمة خارج نطـاق شـرح

طرق التصنيف والعنْوَنة ونظام البطاقات. أجادت الفتاة العمل أيما إجادة، فهي على مستوى لا بأس به من التعليم، حتى أنّها لم تُحدِث أي خلل في تنظيم المجموعات. إلا أنّها من ناحية ثانية لم تتوجّه إليه بأيّ سؤال على الإطلاق فيما يتعلّق بمدينة أوريا القديمة.

أمّا هو فكان في جعبته ألف حكايةٍ جاهزةٍ ينتظر أن يرويها لها. صار يحلم بها فتاةً ذكيّةً يمكن أن يتّخذها مساعدةً له. كانت تعمل كالآلة عشر ساعاتٍ يومياً، إمّا في الطابق الأول أو في القسم العلوي تحت سقالات السقف، وسط الحرارة اللاهبة، حين ترمي شمس آب، شمس الأسد، بكل نبالها. أمّا حياتها فيما تبقى من الوقت فجحيم فعلي. فالعجوز جوليا وماريا التي كانت القيادة بيدها آنذاك، وإلفيرا التي كان زوجها ما يزال حياً، وأخيراً ماريت التي تقارب السابعة، وهي في سنّ تمييز الخير من الشر، هؤلاء جميعاً تضافرت جهودهنّ على الكيد لها وإلحاق الأذى بها بكافة السبل وكل الوسائل. وليت الأمر اقتصر على تلويث طعامها، أو ترديد الكلام النابي على مسامعها، وكَيْل أقذع الشتائم لها بصوت خافت في غدوها ورواحها. بل تعداه إلى إنذار رهيب وتهديد لا مثيل له: فكلما جاءت لتنام وجدت فوق سريرها بصلة الكرّاري. إنّ السائل في بصلة الكرّاري يُلهب الأغشية المخاطية فتتورّم وتسري ناره في الجسم كلّه حتى ليمكن أن يتسبّب في بعض الأحيان بالموت. وهو يُفرض عقوبة. فيُقال: «سأزوّجكِ من بصل الكراري». وتمثّل هذه العبارة ذروة التهديد بالعقوبة الجسدية، التي كانت تُنزَل قديماً بالبغايا، اللواتي يفسدن قدسية الحياة الزوجية. وتنبت بصلة الكراري بكثرة وسط الكثبان الرملية، ولها زهرة كبيرة بيضاء نجمية وعطرة. وشكلها غاية في البراءة.

أمّا في عتمة الليل فكانت تنصت لوقع أقدام حافية تمشي أو تهرول في الممر. تليها خرمشة أظفار على بابها وصوت نساء يتحدثن همساً.

وذات مساء دخلت غرفة نوم دون سيزار دون أن تدق الباب. كانت صامتة ممتقعة كقميص النوم الأبيض الذي ترتديه. فضمها إليه دون متعة وأرسلها في اليوم التالي إلى ذويها.

ولم يعد يستهويه من بعدها البحث عمّا إذا كان لروح الذلّ والعبودية من حدود.

قد لا ينحصر السبب في تلك القرية الصغيرة، التي لم تحافظ على كبريائها كما كان يعقد الأمل (والتي لم تبدِ اهتماماً يذكر بمدينة أوريا النبيلة)، بقدر ما يتعلق بالأحداث السياسية. لقد ظلّ يحلم بعد التحرير بيقظة إيطاليا من جديد. لكنّ حكومة الكهنة هي التي تلت عهد موسوليني، ولم تكن، حسب رأيه، بأفضل منه صوناً للكرامة الإنسانية.

لقد صاغ في التاريخ، منذ المرحلة الأولى من النفي الطوعي الذي اختاره، فلسفة خاصة به. والواقع أنّ كل رجل علم وثقافة في جنوب إيطاليا له فلسفته الخاصة في التاريخ. فالملوك يتغلّبون على البابا، والشعب يُسقط الملوك. لكنّه يستسلم للكهنة الذين يستعيدون الحكم من بين يديه. هكذا أعاد بناء تاريخ العالم استناداً للمثال الإيطالي. فالعصر اللاهوتي يليه العصر البطولي فالعصر الديمقراطي. ثم تعود الكرّة لتتولّد هذه العصور ويتداخل بعضها في البعض الآخر في عَوْد أبدي. فالعصر البطولي هو عصر الملوك وذروة هذا النظام. لكنّ الطغاة، وهم أبطال الشعب المزيّفون، يمهّدون الطريق دائماً أمام عودة الحكم إلى أيدي الكهنة. وهذه حال موسوليني حين وقّع المعاهدة مع البابا.

تأثّر دون سيزار تأثّراً كبيراً بآراء الفيلسوف النابوليتاني جان باتيست فيكو الذي عاش في القرن الثامن عشر، وكان رائداً لكلٍ من هيغل ونيتشه. وجاء الإعلان عن عهد الأبطال الملوك من فيكو نفسه. لكنّ هذا العهد لم يعمّر طويلاً في إيطاليا. فشاء الحظ لدون سيزار أن تقع ولادته على أسوأ منحدر من «العَوْد الأبدي». فالاستفتاء الشعبي عام ١٩٤٦ وإعلان

الجمهورية الإيطالية، وضعا حداً نهائياً لأغلى آماله. وإنّ الملك أومبرتو الثاني برحيله إلى البرتغال، ترك الساحة خالية للغوغاء والكهنة.

سبق لروما أن عرفت ذلك فيما مضى. فقد بدأ انحطاط روما، وفق ما يرى دون سيزار، مع نهاية الحروب القرطاجية. وأغسطس قيصر هو عملياً أول البابوات الإيطاليين. ففي عهد أغسطس بدأ ميناء أوريا يمتلئ بالرمال. وقرّر دون سيزار الكفّ عن قراءة الصحف.

حين أصبح مبعوثو الحزب الملكي يقصدونه من بعد، طلباً للمال، صار يُجلِسهم على الأريكة الخشبية أمامه، وهو مستو على كنبته النابوليتانية من القرن الثامن عشر. فينظر إليهم متغضّن الأجفان يصغي لحديثهم صامتاً، من غير أن يتفوّه بكلمة، تأييداً أو معارضة.

لقد ازداد صحةً دون أي تهدّل. فهو أبداً طويل القامة مستقيمُها، عظيم المحيا. لا ينمّ وجهه على أي تعبير إلا ذلك التغضّن الذكيّ في العينين. وهو صقيل الوجنتين، يحلق ذقنه بعناية كل صباح بالموسى الكبير الذي يستخدمه من مطلع شبابه. أمّا شعره الأشيب فمسرّح بكل عناية. كان حلاق بعينه يأتي من كالالونغا مرتين في الشهر من أجله فقط. فيستوي هناك إذن، على كنبته ذات المتكآت المقنطرة، جامداً ضخماً متنبّهاً، سادراً في انتظارٍ ثقيلٍ لحدث ما، يعرف سلفاً أنّه ينبغي ألا يقع. مثلما هو جالس تماماً هذا المساء، ونظره مستقرٌ على التمثال الفخاري الصغير الذي حمله إليه صيادوه، فيما نساء داره جالسات في الجانب الآخر من الطاولة المصنوعة من خشب الزيتون، والنزاع الدائر بينهن يشتدّ وتعلو حدته. وكثيراً ما كان مبعوثو الحزب يتساءلون عمّ إذا كان تنبهه الظاهر موجهاً إليهم والى ما يقولون.

حين يختتمون حديثهم، يمدّ يده إليهم بمظروف معَدٍ سلفاً، دون أن ينطق بكلمة. فينصرفون متمتمين بعبارات الشكر والاعتذار وقطع الوعود. ويرافقهم طونيو حتى رأس الدرج الخارجي، وما إن يقترب من الدرجة الأولى حتى يصيح:

- عاش الملك، يا سادتي!

فيربتّون على كتفه ويعطونه إكرامية قائلين:

- إنّ دون سيزار محظوظ جداً لأن رجله المقرّب واحد مثلك.

كانوا يعرفون حقّ المعرفة، أن طونيو خادم وأجير، أكثر منه رجل ثقة يُعتمَد عليه. وأنّه فوق ذلك يصوّت للحزب الشيوعي مثل شعب ماكوري كلّه. إلا أنّهم يقولون ذلك بدافع الرغبة في الكلام والتخلّص من تأثير صمت دون سيزار.

إنّه ما يزال هنالك جالساً ضمن الهالة الضوئية للسراج، ضخماً مستقراً على كنبته، باسط الذراعين فوق المتكآت المقنطرة، محدّقاً في التمثال اليوناني الصغير متغضّن الأجفان بعض الشيء.

كانت النساء منهمكات بمحاولة إقناع ماربيت بالدخول في خدمة المهندس الزراعي.

تقدّم الرجل بطلبه قبل أسبوع. وقال إنّه سيعود بين يوم وآخر لتلقي الجواب. حينها أحاطته جوليا علماً بأنّ عليها الحصول على موافقة دون سيزار. إلا أنّها لم تحسب أيّ حساب للرفض الذي قابلت به ماربيت هذه الفرصة السانحة التي لا تعوّض.

ماربيت مصرّة إصراراً تاماً على قول «كلا». لا، لن تذهب لتخدم في بيت اللومباردي ذي البشرة الشقراء. وإذا ما عاد يطلبها ثانيةً فسوف تبعث به إلى عنزاته.

كانت جوليا تخشى الرفض من جانب دون سيزار فقد ضبطته مراراً وهو يطيل النظر إلى ابنتها الصغرى. وهي تعرف مغزى نظرته الثقيلة المتيقّظة.

إنّه يريدها لنفسه دونما شك، مثلما حصل على شقيقتيها الاثنتين من قبل. وكان دون سيزار يبتسم ابتسامته الخفيفة المعهودة التي لا تلحظ، ابتسامة الماضي الماكرة.

كلا، ماربيت لا تريد.

شرعت الشقيقتان تصفان لها الإصطبل النموذجي الذي سيكون تحت إمرتها. إنّه قصر ألف عنزة وعنزة. فالمشارب فيه آلية. والحلابات آلية بدورها. المرابط تُغسل بماء الذوافير والمخالط تعمل بمحرّك. ويقصد الزوار المكان من مقاطعة فوجيا كلّها، بل منهم من يأتي من نابولي. وبدأتا تتخيّلان ماريبت ملكة تسود ذلك كله، فتستقبل الزائرين بكل أبّهة، وتوزع الهدايا. والواقع أنّهن جميعاً، الأم وبناتها، وماريبت معهن، لا يعتقدن أنّ المهندس الزراعي، حين طلب ماريبت للخدمة في داره، قصد كلمة «خدمة» بمعناها الحرفي الضيّق. فالخدمة هي المبرّر الظاهر الشريف. وقد أدركن أنّ المهندس يريد ماريبت لتشاركه سريره دون أن يكون عاقداً العزم على الزواج منها. فأعددن للأمر عدته فوراً بحيث يأخذها أولا – لا بل دفعن به إلى ذلك المنحى دفعاً – ليتمكنّ فيما بعد من إرغامه على الزواج. وإلا فإنّه سيدفع الثمن باهظاً جداً.

من بين المغريات لدى ذلك اللومباردي سيارته من ماركة فيات ألف ومئة، كالتي لدى مفوض الشرطة.

قالت لها إلفيرا:

– سوف يأخذك إلى مدينة بولونيا .

(إنّ العدد الأكبر من الذين يقصدون الأرض السبخة لقنص طيور الحديد يأتون من مدينة بولونيا. والواقع أنّ بولونيا بالنسبة للمناكوريين هي المدينة الشمالية بامتياز).

قالت العجوز جوليا:

– حين كنت صبية وعدني دون سيزار بأن يأخذني إلى مدينة بولونيا.

فقالت ماريا:

– وأنا أيضاً، وعدني دون سيزار بأنّه سيأخذني إلى بولونيا. وإنّها مدينة يجتازها المرء من طرف إلى طرف تحت القناطر.

فقالت إلفيرا:

- وأنا أيضاً، لقد وعدني بأن يصطحبني إلى هنالك. وقال لي إنّها مدينة يتمكّن المرء من السير في شوارعها ساعات بطولها تحت المطر من غير أن يخشى البلل.

فأضافت ماريا تقول:

- سوف يأخذ المهندس الزراعي مارييت إلى هنالك، وسوف يلبّي لها كلّ طلب. لقد شغفته وسحرته.

لكنّ مارييت تهزّ رأسها رفضاً. بل لم تعد تردّ على ما تقول أمها وشقيقتاها. لن تذهب الى دار المهندس الزراعي. لقد أحاطت نفسها بالصمت، وكانت في العناد مثل دون سيزار.

بدأت كل من النساء الثلاث تفكّر فيما يمكن لرفض مارييت أن يحرمها من نعميات أو يبعدها عن منالها. فماريا تفكّر في الهدايا التي يغدقها عاشق راغد العيش على ذوي عشيقته. وإلفيرا تفكّر في أن تزيح من دربها منافسة بلغت سنّ احتلال مكانها قرب دون سيزار. وجوليا تفكّر في الفرصة المتاحة لتأليب سكان المدينة كلّها على الرجل، لإرغامه على الرضوخ للقانون.

هنا قالت العجوز جوليا:

- إنْ كانت مارييت ترفض المهندس الزراعي فمعنى ذلك أنّها متعلقة برجل آخر.

قالت ماريا:

- إني أتساءل من هو؟ أم لعله زوجي طونيو؟

كانت إلفيرا جالسة بجوار مارييت فقرّبت وجهها منها وسألتها:

- قولي لنا، من هو؟

ارتسم على ثغر مارييت شبه ابتسامة. ولم تجب.

فكرّرت النساء الثلاث القول:

- إنّها متعلّقة برجل.

ثم نهضن وأحطن بالفتاة.

- قولي لنا، من هو!

قرصتها إلفيرا في عضدها قرصة موجعة، وبكل لؤم، وأمسكت ماريا بمعصمها فلوت يدها بعنف بينما تشبّثت العجوز جوليا بشعرها.

- قولي لنا، من هو؟

رمحت مارييت بقوة للتخلّص. فوجّهت ضربة من رأسها إلى أمها ووكزة بالمرفق إلى شقيقتها. فتخلّصت، ودارت مهرولة حول الطاولة وجاءت لتستقرّ على مقربة من كنبة دون سيزار فوق المقعد الخشبي الصغير الذي يريح عليه قدميه أحياناً.

أصغى دون سيزار للفتاة اللاهثة وهي تعود شيئاً فشيئاً لتلتقط أنفاسها.

أمّا النساء فأخذن يصرخن. لقد تلقّت إلفيرا وكزة قوية من مرفق مارييت في صدرها. ومن المؤكّد أنّها ستموت بسرطان الثدي مثل زوجة دون أوتافيو. أمّا جوليا فالدم يسيل من شفتها. لقد حاولت ابنتها أن تقتلها.

خبط دون سيزار على الطاولة براحة يده. فصمتت النساء من فورهن ومضين ليكمنّ في عتمة الموقد الكبير عند الطرف الآخر من القاعة. وأخذت مارييت وهي جالسة على المقعد الصغير، ورأسها مستند إلى كفيها، ترقب أمها وشقيقتيها من فوق ركبتيّ دون سيزار.

ثم أخذ لهاث الفتاة يهدأ شيئاً فشيئاً.

ظلّ دون سيزار يحدّق في التمثال اليوناني الصغير ضمن هالة نور السراج.

أمّا في الطرف الآخر من القاعة وتحت عتمة الموقد فتتهامس النساء بأصوات متلاحقة. إنّهن يعددن العدة للقبض على ماريبت التي أرادت أن تقتل أمها.

* * *

أعلن ماتيوبريغانتي عن اختتام لعبة القانون. فعليه أن يذهب لمراقبة الحفل. واللعبة نفسها فقدت عنصر التشويق، مذ أن قبل طونيو بأن يشرب كأس المهانة. إنّ رجل دون سيزار المقرّب قد خسر بعدها ست جولات متوالية وصار مديناً بمئتين وعشرين ليرا، لكن ما عاد من أحد يعيره كبير اهتمام. ربما كان ينبغي للحظ أن يعين ضحيّة أخرى. وربما لا. فلعبة القانون تتطلب وحدة العمل، مثلها في ذلك مثل التراجيديا. واللاعبون المهرة يجيدون إيقاف الجولة الأخيرة حين يتم القضاء على الضحيّة قضاء تاماً.

غادر طونيو الحانة وصعد متوجّهاً إلى الساحة الكبرى ليأخذ اللامبريتا.

بدأت جوزيينا رقصة بوغي – ووغي مع الفتى الروماوي تحت صنوبرة مورا. وتابع فرانشيسكو، ابن ماتيوبريغانتي، قيادة الفرقة الموسيقية بكل مهارة. كان نافخ البوق يتألّق بألحان منفردة حسب أسلوب مدرسة نيوأورليانز. ولم يجد الفتى الروماوي، على الرغم من مظهر العجرفة البادي عليه، كالقياصرة الرومان في عصر الإنحطاط، مأخذاً على موسيقى الجاز ولا على مراقصته.

فالماناكوريون حضريون. لقد كانوا كذلك في القرن الرابع قبل الميلاد، حين كانت بورتو مناكوري منافسة أوريا، مدينة الإلهة فينوس.

افترق المفوّض لتوّه عن المهندس الزراعي. اقترب من الحاجز الأخضر ونظر إلى الراقصين. كان العرق يجعل ثوب جوزيينا يلتصق بكتفيها. ورأى المفوّض بعيني الروماوي، الثوب ملتصقاً بالكتفين بسبب العرق. فاستدار ومشى نحو الطرف الآخر من الساحة، حيث القسم الذي لا تضيئه المصابيح الكهربائية الضخمة الزرقاء – البيضاء، بالشدة نفسها.

تحلّق سكان المدينة مجموعات يرقبون الحفل من بعيد. يسير المصطافون الهوينى على الأرصفة مثنى أو ثلاثة، يترقّبون نسائم بحرية لا تأتي. أمّا الغلمان، الواليوني، الذين يتزعّمهم بيبو وبالبو، فيمرقون كعصفة ريح، يندقون من زقاق فينفذون من بين المصطافين كرشقات النبال. أمّا عناصر شرطة البلدية فيراقبون الواليوني، والعصيّ في أيديهم.

بلغ المفوّض القسم المعتِم أكثر في الساحة، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع طونيو الذي أقبل ليأخذ اللامبريتا.

قال طونيو:

- طاب مساؤك، سيدي المفوّض.

- طاب مساؤك.

لم يُعدّ طونيو شيئاً من قبل. لكن ما إنْ رأى المفوّض حتى بدأت الكلمات تتزاحم في صدره. والحال أنّ نظر المفوّض لم يكن واقعاً عليه، إذ ردّ على تحيّته بذهن شارد. كان ينظر إلى ما وراء طونيو ناحية المصابيح الزرقاء- البيضاء المتوهّجة التي تنير مكان الحفل.

بدأ طونيو الكلام قائلاً:

- ذهب أحدهم إلى البرزخ صبيحة اليوم الذي سُرِقت فيه محفظة السويسري... كان القدوم عن طريق البحر، بعد الارتماء في الماء من أعلى الصخور حيث يقوم دون سيزار بأعمال التنقيب.......

استمرّ يسبح صعوداً إلى مصبّ البحيرة... إنّه سبّاح ذائع الصيت. فحين كان فتيّاً لقبوه بسيّد البحر... دنا من الكثيب مسافة مئتي متر نزولا حتى أسفل الجسر، وراء حاجز الخيزران. لذلك السبب لم يره أحد.

قال المفوّض:

- إلا أنت.

قال طونيو:

- إلا أنا. كنتُ وقتها على السطح أُفرِد التين ليجفّ فوق حُصُر القصب. فمن السطح، يمكن للنظر أن ينفذ الى ما وراء الخيزران.

- وأنت لم تتذكّر ذلك إلا هذا المساء؟

- لم أجرؤ على إعلامك بالأمر... فالرجل خطر... ماتيو بريغانتي.

حدّق المفوّض في طونيو طويلاً. كان واقفاً أمامه بقامته القصيرة المبتورة، داخل سترته البيضاء وقد زال عنها الآن رونقها وبهاؤها، بسحنته الصفراء وعينيه المريضتين مثل كافة المصابين بالملاريا. فكرّر طونيو القول:

- ماتيو بريغانتي.

انتاب المفوّض إحساس بالكآبة. فقال:

- أمّا بشأنك أنت، فهي ماريبت...

فصاح طونيو:

- ماريبت لم ترَ شيئاً.

فاستأنف المفوّض قائلاً:

- أقصد فيما يتعلّق بك أنت. هي إذن ماريبت التي تعتمل في دمك.

- قلت لك إنّ ماتيو بريغانتي هو الذي فعلها!

- ذلك أنّك تظلّ تراها طول النهار وهي تمشي فيهتزّ ردفاها. وأنت لا تستطيع أن تمدّ يدك إليها. فهذا ما يضنيك ويفتّت كبدك...

- لقد تعرّفتُ على ماتيو بريغانتي من قبل أن يبلغ اليابسة... فطريقته في السباحة جعلتني واثقاً من أنّه هو...فله طريقة في السباحة خاصة به... والكلّ سوف يقول لك ذلك....

فاستأنف المفوّض قائلاً:

- إذن ماتيو بريغانتي يرغب بدوره في أن يمدّ يده فيتحسّس ماريبت!

- صعد إلى اليابسة من وراء عيدان الخيزران، ثم تسلّل من خلف سياج شجيرات ندى البحر...

فقاطعه المفوّض قائلا:

- أنت رأيته. ربما كان ذاهباً للقاء حبيبتك مارييت. لكن ليس صبيحة السرقة. فكرّر طونيو قوله:

- بل صبيحة يوم السرقة. رأيته بأم عيني. أقسم لك على ذلك.

رمق المفوّض طونيو بنظرة كئيبة ثم قال:

- صبيحة يوم السرقة كان ماتيوبريغانتي في فوجيا عند أحد رجال الأعمال. وقد تحققت من ذلك بنفسي.

فقال طونيو:

- أنا على استعداد لأن أقسم أمام المحكمة، إنّي رأيت ماتيو بريغانتي في البرزخ، صبيحة يوم السرقة.

بدأ الناس يتحلّقون حولهما لكن عن بعد. كانوا يتساءلون عمّ يمكن لطونيو دون سيزار أن يقول للمفوض. كان طونيو يتحدّث لاهثاً لكن بصوت منخفض. تسلّل بيبو زعيم الواليوني، ومساعده بالبو، فأصبحا في الصف الأول من الفضوليين.

أضاف المفوّض قائلاً:

- وكثرة التفكير في أنّ يداً أخرى بدأت تداعبها بثّت فيك الشجاعة.

- لكنّني أقسم لك على أنني رأيته من وراء السياج، زاحفاً نحو السيارة...

فقاطعه المفوّض قائلاً:

- هيا انصرف إلى صاحبتك مارييت.

تحوّل فخطا خطوة منصرفاً عنه، لكنّ طونيو أسرع فانتصب في دربه وأوقفه صائحاً:

- يوشك المرء أن يعتقد أنّ ماتيو بريغانتي هو الحاكم الفعلي في مناكوري!

فتمتم المفوّض قائلاً:

- وجرأة حتى التطاول أيضاً!

لكنّه لاحظ عدد المتجمعين حولهما وبيبو وبالبو في المقدمة. فأمسك بطونيو من كتفه، وأداره حول نفسه ثم دفع به نحو الامبريتا صائحاً:

- أغرب عن وجهي يا قوّاد، يا ذا القرون!

كان صوته عالياً ليسمعه الجميع. وتعثّر طونيو فكاد يسقط لولا أن تشبث باللامبريتا.

ابتعد المفوّض بخطى كبيرة نحو المصابيح الكبرى التي تنير مكان الحفل.

كانت الموسيقا متوقّفة، والفرقة تأخذ قسطاً من الراحة، وفرانشيسكو بريغانتي يشرح لرفاقه، أعضاء حلقة الجاز في بورتو مناكوري، إحدى حركات العزف الجديدة. وجوزيبينا جالسة على حاجز السطيحة التي تشرف على المرفأ والخليج. والفتى الروماوي يقف إلى جانبها وكنزته الزرقاء ملقاة على كتفيه بإهمال، والكمّان معقودان حول عنقه رغم الحرارة. ذلك أنّه شاهد على صفحات إحدى المجلات أنّهم في سان تروبيه يضعون كنزاتهم على ذلك النحو. كانت جوزيبينا تضحك، فتظهر شفتاها الحمراوان الممتلئتان وعيناها المحمومتان اللامعتان. إنّها الآن تؤرجح ساقها جيئة وذهاباً فتعلو دوائر الكشاكش الثلاث التي تزين شلحتها تحت ثوب الحفل ثم تهبط. أمّا الفتى الروماوي فيرمقها بنظراته دون أن تلوح على وجهه ابتسامة ما، وشفته مقلوبة بازدراء.

اقترب المفوّض بعض الشيء من الحاجز الأخضر. كان الجميع ينظر إليه. حياه عدد من الأعيان ، فيما ابتسم له عدد من نساء الأعيان. إنّه رجل

وسيم أنيق وفطن وظريف. لمّا يكن من أحد يعرف أن جوزيبينا قد بسطت سيطرتها عليه. ثم استدار وقفل راجعاً إلى السراي.

كان طونيو ما يزال واقفاً قرب اللامبريتا. فكّر في أن يدير محرّكها ويمضي في الليل مسرعاً بقدر ما يرغب. لكنّ الفكرة لم تأته بمتعة تذكر. فعجب من ذلك. ثم أحسّ بطعم مرار في فمه مثل من أفرط في التدخين. فخطرت فكرة التدخين على باله. قطع الساحة فاشترى خمس سجائر ديناً من محل الموالح والتبوغ الذي ظلّ مفتوحاً بسبب الحفل. وأشعل سيجارة فور خروجه من المحل.

حين صار وسط الساحة انتابه أول إحساس بالغثيان. لقد تساءل دون روجيرو: «إذن لها أظلاف؟» قال الساقي: «ليس لك الحق، يا طونيو». الآن قال المفوّض: «قوّاد ذو قرون». قال بيزاشيو: «أسأت إجابة». قال ماتيو بريغانتي: «انظروا كيف سأفعل». وصل طونيو حتى اللامبريتا فاقترب من المقود اللماع وتقيأ.

ومرّ رجلان فلمحاه يتقيأ.

– طونيو قد تعتعه السكر. لا شكّ في أنّه كان رابحاً في لعبة القانون.

– أعتقد أنّه احتفظ بالجرة لنفسه طول الوقت.

– هذا يصيب المرء إن لم يكن متعوّداً أن يكون معلّما...

* * *

أُقصِيَ الملك أومبرتو الثاني من عرشه.

أمضت الطالبة الشابة شهراً كاملاً في تصنيف العاديات دون أن تلقي سؤالاً واحداً حول تاريخ أوريا. وفي ذلك العام نفسه أقبلت أعداد كبيرة من أبناء مدينة بولونيا للقنص في البحيرة حتى أنّهم قاموا بمجزرة حقيقية بين طيور الحديد. وكان في ذلك العام نفسه أن بدأ دون سيزار يفقد الاهتمام.

عاداته كلّها لم يطرأ عليها في ظاهر الأمر تغيير يذكر. ثابر على قضاء الليل بصحبة امرأة، مثلما كان يفعل على الدوام. فإمّا هذه وإمّا تلك. والمرأة في المرحلة الراهنة هي إلفيرا. فعندما ينهض في نهاية السهرة، ليصعد إلى غرفته في الطابق الأول تقوم إلفيرا لقيامه. فتفترق عن باقي النساء وتتبعه من غير أن تنطق بكلمة. يخلعان ملابسهما بصمت. ويتأكد، وهو في السرير، من وجودها بوضع كفه فوق صدرها أو بإلصاق ساقه بساقها. وحين يأخذه النوم فينقلب على هذا الجانب أو ذاك، يعود للبحث عنها دون أن يستيقظ. فهو بحاجة لأن يلمس أي شيء منها. وحاله هذه لم تتغير مذ أن بلغ العشرين من عمره عام ١٩٠٤: فقد لزمه دوماً أن تكون الى جانبه امرأة كي ينام. لكنّه لا يبادل إلفيرا الكلام مطلقاً. وإذا ما ضمّها إليه أحياناً، وبندرة أكبرمن ذي قبل، فإنّما يفعل ذلك بصمت في عتمة الليل. حتى لتتساءل ما إذا كان يعرف أنّ هذه هي إلفيرا التي يحتويها الآن بين ذراعيه. لقد آل الوضع إلى ما هو عليه الآن مذ أنْ فقد الاهتمام.

لم ينقطع عن الخروج الى القنص. بل ما يزال يأتي بكثير من الطرائد، رغم وجود البولونيين. إنّه رام ماهر. ولم يبدّل تقدّمه في السنّ من واقع الأمر شيئاً. فهو يعرف السبخة والكثبان والتلال خيراً مما يعرفها كافة أهل داره. لكنّه لم يعد يهتف انشراحاً إذا ما أصاب طريدة متميزة. بل إنّ نظره لم يعد يتألق. فهو يقوم بالقنص مثلما يقوم الجزّار بعمله في المسلخ. منذ بضع سنين صار طونيو يرافقه، حاملاً له الجعبة وبندقية إضافية، لكن دون متعة، بل بنوع من الفزع، كأنّه يعمل خادماً لتمثال أو لصنم عظيم، لا يعرف الكلل، يمشي بخطى كبيرة رتيبة وآلية، متنقلاً بين أعواد الخيزران والقصب، ووراء شجيرات ندى البحر فوق الكثبان والأشواك على التلال. وتتشوّش أفكار طونيو فيتخيّل أنّ عذابات المطهر[1] من هذا النمط. أي ليست عذابات

---

(١) مكان تتطهّر فيه نفوس الأبرار بعد الموت، بعذاب له أجل محدود، قبيل صعودهم إلى النعيم. (حسب العقيدة الكاثوليكية وبعض المذاهب المسيحية الأخرى). (م)

الجحيم بل عذابات المطهر، هي كمثل هذه المسيرة بلا نهاية تحت إمرة صنم وفي خدمته. وقد يكون وضع اليَمْبوس[1] هكذا أيضاً .

لقد حافظ دون سيزار على عادات الماضي في استقباله لوكلاء الأراضي ورجال الأعمال، والزائرين القلائل الذين يقصدون الدار ذات الأعمدة. بيد أنّ كلماته صارت تدوي في عالم بلا صدى. وحركاته تجول في فضاء بلا قوام. وحين يعلن عن رغبته في الذهاب إلى السبخة يشرد الخيال نحو اليمبوس. هكذا صارت الحال مذ أن فقد الاهتمام.

ودون سيزار بلا اهتمام مثل العاطلين بلا عمل. فلا هم مسؤولون عن هذا ولا هو مسؤول عن ذلك. ولا يشعر بأنّ هنالك فرقاً كبيراً بينه وبين العاطلين الذين ينتظرون طول النهار، وقوفاً بمحاذاة الجدران من حول الساحة الكبرى في بورتو مناكوري. لكن ليس لديه حتى الأمل بأن يطرأ حادث مفاجئ يثير اهتمامه من جديد. فحتى من الأمل فقد الاهتمام.

قد يطيب له أن يتساءل أحياناً جرياً على عادته في فلسفة التاريخ، لماذا فقد الاهتمام، هو، دون سيزار، مع اقتراب النصف الثاني من القرن العشرين، وهو هنا في سبخة مدينة أوريا. إلا أنّه لا يعلّق أهمية خاصة على هذا السؤال، الذي يلقيه فقط لأنّه حافظ على عادته في طرح الأسئلة. مثلما أبقى على عاداته الأخرى كلّها.

تجوّل بين عامي ١٩٠٤ و١٩١٤، أي بين سنيه العشرين والثلاثين، في كافة أرجاء أوربا، أثناء إجازته الجامعية، نزولاً عند رغبة والده، كيما تكون تربيته كاملة.

توقّف في البرتغال، في صيف أحد الأعوام، أثناء عودته من لندن وقبل أن يُبحر من فالنسيا إلى نابولي. لقد سبق أن طرح على نفسه آلاف الأسئلة

---

(١) مكان حيادي، تُقيم فيه نفوس الأطفال غير المعمّدين، ونفوس الأبرار الذين لم يعرفوا المسيح، إلى حين مجيئه يوم الدينونة. ليدخلوا وراءه ملكوت السموات. لكنّ الكنيسة الكاثوليكية أبطلت في أواخر القرن العشرين، هذه العقيدة التي ظلّت سائدة قروناً طويلة.(م)

حول أسباب أفول نجم هذه الأمة التي بسطت إمبراطوريتها ذات يوم حول الكرة الأرضية كلّها. فتعرّف على كُتاب لا يكتبون لأحد. وعلى رجال سياسة يحكمون لصالح الإنكليز. وعلى رجال أعمال يقومون بتصفية حساباتهم في البرازيل ويعيشون على مداخيل صغيرة، في بعض مدن الضواحي بلا هدف. حتى بلغ به التفكير حد الاقتناع بأنّ أسوأ الشرور أن يولد المرء برتغالياً. لقد التقى وهو في لشبونة، ولأول مرة في حياته، بشعب فقد الاهتمام.

وبات اليوم يرى أنّ الإيطاليين والفرنسيين والإنكليز، قد فقدوا الاهتمام بدورهم. أمّا الاهتمام فهاجر إلى الولايات المتحدة وروسيا والصين والهند.

إنّه يعيش في بلد فقد الاهتمام، إلا المناطق الشمالية منه ظاهراً. الأمر ظاهري فقط. فإيطاليو الشمال، مثلهم في ذلك مثل الفرنسيين، يُخفون فقدان اهتمامهم وراء ضجيج سياراتهم ودراجاتهم النارية. فالإيطاليون والفرنسيون بدؤوا بعد الحرب العالمية الثانية «يتبرغلون»[1]. هذا ما يفكّر فيه دون سيزار، دون أن يوليه اهتماماً أكبر.

حتى الاهتمام الذي ظلّ يوليه العاديات قد تغيّر شكلّه. وإذا كان ما يزال لديه اهتمام يذكر فذاك اهتمامه بالعاديات. فليس عدم الاهتمام المطلق ممكناً إلا في الموت، الذي هو تخلٍ تام ولامبالاة مطلقة. إذن، ما زالت مجموعته الأثرية تشدّ انتباهه. وتستهويه الأشياء الجديدة التي يعثر عليها مصادفة، أهل بيته وفلاحو الأراضي المجاورة. لكنّه لم يعد يدوّن الملاحظات أو يكتب المقالات لمجلات الآثار. فما زال مخطوط مؤلفه الضخم عن تاريخ مدينة أوريا الذي انتهى منه قبل سنين: ألف وخمس مئة صفحة من الكتابة الدقيقة، يرقد في أحد أدراجه، ولم يقم بعرضه على أي ناشر. وإذا كان عليه أن يختصر أو يكثف أو يلخّص فلمصلحة من سيفعل ذلك؟ وفي سبيل أي هدف؟ أمّا أن ينشره على نفقته الخاصة فستكون هنالك ستة مجلدات من القطع الكبير، مع الرسوم والصور الإضافية. إنّه صرح ضخم تطبع منه عدة نسخ

---

(١) يشبهون البرتغاليين.

لصالح الاختصاصيين بتاريخ المستعمرات اليونانية في إيطالية الجنوبية في العصر الهيلينستي. ولئن كانت الفكرة قد راقته، فليس إلى درجة الإقدام، متجاهلاً منغّصات التشاور مع صاحب المطبعة، وتصحيح المسوّدات، واستقبال أناس مجهولي الهوية.

كان يحظر بعد عصر كل يوم، في الفترة الواقعة بين القيلولة والعشاء، على كائن من كان أن يزعجه. فهم يقولون لك إنّه يعمل. كان يتفقد بنظره الأواني وفوانيس الزيت والتماثيل الصغيرة وقطع النقود، وكلّها مرتبة ومصفوفة في قاعات الطابق الأول تحت السقائف الخشبية، مصنّفة ومعنونة. مثلما يحدّق هذا المساء في التمثال الصغير، الذي أحضره له صيادوه، والمستقر الآن فوق طاولة خشب الزيتون الكبيرة تحت ضوء السراج. وما تزال ماربيت جالسة عند قدميه فوق المقعد الخشبي مستندة بمرفقيها إلى ركبتيها، ووجهها بين قبضتي يديها.

بوسعنا القول إنّه يحدّق. مع أنّ استخدام صيغة الفعل المعلوم، لتحديد نظرته، استخدامٌ غير سليم. وليس لذلك أن يعني أنّ دون سيزار كان غير فاعل في مواجهة التمثال. فهو لا يراه فقط وإنّما يحدّق فيه، على الرغم من أنّ نظره ليس فاعلاً تحديداً. كذلك يتفكّر فيه على الرغم من أنّ تفكّره غيرُ فاعل على وجه الدقّة. فالتمثال في فكره، وفي فكره في الوقت ذاته، كافة الأشياء الأخرى التي تضمها مجموعته، وفي فكره في آن واحد، مدينة أوريا كلّها، بل حاضرة أوريا الهيلينستية المزدهرة وقد نهضت من قلب السبخة، وساحتها الرئيسة «الأغورا» وقد انكشفت من تحت السهلة الترابية، حيث يجفّف الصيادون شباكهم، ومنازلها البيضاء وبواباتها وقناطرها وصفوف أعمدتها، ومواطنوها الذين كانوا لا يعرفون عدم الاهتمام بكل ما يجري في العالم، وتلك النفحة من الذكاء التي تفوح من اليونان القديمة العظيمة. ونوافير المياه وحاملات الجرار. والمرفأ ومراكبه القادمة محمّلة بخيرات الشرق. ومعبد فينوس المنتصب فوق لسان الجبل الممتد شامخاً في البحر.

ويظل قولنا «إنّه يتفكـّـر»، غير سليم تماماً. فصيغة الفعــل المعلــوم، فيهـا مجابهة بين الفاعل والمفعول، وتفترض فعلاً يقع من الفاعل علــى المفعــول. في حين أنّ دون سيزار ظلّ يفقد الاهتمام من عام إلى عام، حتى صــار هــو نفسه مفعولاً لذاته. إنّ دون سيزار المواجه لــدون ســيزار المتفكــّـر فــي التمثال الفخاري الصغير وفي حاضرة أوريــا الذكيــة، لغريــب عــن دون سيزار، بمقدار غربته عن التمثال الفخاري وعــن مدينــة أوريــا المنــدثرة. وهو، بلا حبٍ ولا كرهٍ، ودون أية رغبة مطلقاً في الحب أو الكره، مــسلوب القدرة على أيّ نوع من أنواع الرغبات، مثلما الحال مــع حاضــرة أوريــا المندثرة. ذلكم هو فقدان الاهتمام.

كانت مارييت في تلك الأثناء، وهي جالسة عند قــدمي دون ســيزار، ترقب من فوق ركبتيه، أمها وشقيقتيها وهنّ يتهامسن في ظل الموقد الكبيــر. كانت النساء الثلاث يدبّرن أمراً للإمساك بها، فور مغادرة دون سيزار القاعــة الكبرى، ومعاقبتها لأنّها ضربت أمها، ولإرغامها على البوح باســم الرجــل الذي ترفض من أجله أن تذهب للعمل في دار اللومباردي. لــم يكــن القلــق ليساور مارييت، فهي لا تخشى إلا إلفيرا، المرأة القوية التي تناهز الثلاثــين. وهــذه ستتبع دون ســيزار إلى غرفته. لكنّها ظلت حذرة، فالثلاث مــاكرات لا يؤمن جانبُهن.

تنام مارييت عادة مع أمها العجوز جوليا في الغرفة نفسها. لذا وضعت في الحسبان أن تهرب حين يصبح دون سيزار داخل غرفته. وسوف تُمضي الليل في مستودع أيٍ من بساتين البرتقال والليمون. ولن تكون هذه المرة الأولى. فقد سبق لها مراراً وتكراراً أن نجت بنفسها ليلاً هاربة من نساء الدار.

نهض دون سيزار فحمل التمثال الفخاري الصغير ودار حول الطاولــة متوجّهاً صوب باب الممر. ونهضت إلفيرا بالحركة نفسها فحملت السراج من فوق الطاولة قرب الكنبة وتبعت دون سيزار. وفي اللحظــة نفــسها أيــضاً توجّهت ماريا إلى باب الدرج فأحكمت إقفاله بالمفتاح ووضعته في جيبها.

لم يستبدّ القلق بماربيت وهي ترى أنّ وصولها إلى الدرج بات متعذّراً. فقد قررت أن تندفع إلى الممر فور وصول دون سيزار وإلفيرا إلى غرفتهما في الطابق العلوي. فالممرّ ينتهي بباب يُفتح على شرفة تقوم فوق دعائم نافرة. سوف تهرب من هناك. وسبق لها أكثر من مرة أن قفزت من على الشرفة إلى السهلة الترابية أمام الدارة. سوف تتشبث بإحدى الدعائم وتسقط. ثم تقفز حافية القدمين وتركض فوق الدروب الصغيرة الملتوية بين أعواد الخيزران.

سار دون سيزار في الممر تتبعه إلفيرا حاملة السراج بيدها.

فتقدمت العجوز جوليا من عند الموقد، وتقدمت ماريا من عند الباب المؤدي إلى الدرج، باتجاه ماربيت الجالسة فوق المقعد الخشبي الصغير، عند أسفل الكنبة النابوليتانية الشامخة المصنوعة في القرن الثامن عشر.

استعدت ماربيت للانطلاق دون أن يساورها أي قلق. فهي في الواقع لا تخشى إلا إلفيرا التي لم تنجب أطفالاً مثل ماريا، والتي مازالت في قمّة عنفوان الأرامل الشابات. إنّها امرأة سمراء قوية، كانت تجيد العمل بالمدقة[1] مثل أي رجل، حين كان زوجها مرابعاً يزرع أرضاً جدباء في الجبل، شقيَ فيها حتى لفظ أنفاسه. وتتذكّر ماربيت كيف كانت إلفيرا، والمدقة في يدها، تضرب البيدر دقات موزونة متناغمة كالحداد، مثيرةً زوبعة من الغبار. إنّها تتذكر ذلك لأنّها كانت في الثامنة من عمرها يوم أخذوها إلى عند أختها في الجبل.

ابتعد صوت خطى دون سيزار الثقيلة وهو يجتاز الممر ببطء، كما ابتعد وقع خطى إلفيرا بحذائها ذي النعل الخشبي. وقع خطى دون سيزار الثقيلة، ووقع مشي إلفيرا بحذائها ذي النعل الخشبي. وينعطف الدرج فيبدأ وقع الخطى بالاقتراب لكن من فوق.

---

(١) عصا طويلة تنفصل في الوسط وتستخدم لفرط سنابل القمح في الريف الإيطالي حيث لا يعرفون النورج. (م)

اقتربت ماريا من ماريبت مسرعة فبدأت هذه بالدوران حول الكنبة. كانت تتقي أن يعلق ذيل ثوبها بشيء ما. وانتظرت لحظة دخول دون سيزار وإلفيرا إلى غرفتهما لكي تنطلق في الممر.

فتح دون سيزار باب الغرفة ووقعُ نعل الحذاء الخشبي وراءه.

دارت ماريبت حول الكنبة وماريا وراءها.

وصل وقع خطى دون سيزار الثقيلة إلى منتصف الغرفة وأصبح فوق القاعة الكبرى تماماً بينما تحرك نعلا إلفيرا الخشبيان فأصبحا أمام الصيوان.

خمّنت ماريبت أنّ إلفيرا تضع السراج في هذه اللحظة فوق الصيوان.

لكنّ نعليّ إلفيرا الخشبيين إرتدا على عقبيهما. ها هما قد أصبحا في الممر. إنّها خطى سريعة حثيثة يشبه وقعها صوت الخشاخش عند انتهاء معزوفة راقصة. وهذا وقع الخطى قد أصبح فوق الدرج.

اندفعت ماريبت داخل الممر. لكنّها وجدت إلفيرا في طرفه الآخر وقد قطعت عليها الطريق.

إلفيرا أطولُ من ماريبت قامةً وأصلبُ عوداً. امرأة في أوج قوتها. ولقد أرجعت ماريبت إلى القاعة الكبرى وهي تكيل لها عدداً من الصفعات القوية المتلاحقة وتركلها بركبتها على بطنها. وكانت ماريا في انتظارها فأمسكت بيديها من وراء وشدت ذراعيها إلى الخلف. وقامت العجوز جوليا بإغلاق باب الممر حتى لا يتمكن دون سيزار من أن يسمع شيئاً.

كانت النساء قد أعددن القيود في عتمة الموقد ثم قامت جوليا بإخفائها تحت ثوبها. فقيّدن ماريبت إلى ظهر الكنبة بربط كل من عرقوبيها إلى إحدى القائمتين الخلفيتين للكنبة. أمّا الذراعان فقد شُدّا إلى أمام ورُبطا إلى مسنديْ الكنبة الجانبيين. فباتت الفتاة على تلك النحو موزّعة الأطراف في اتجاهات أربعة، فيما التصق صدرها ووجهها بالنسيج الخشن الذي يغلف ظهر الكنبة، وظلّ ظهرها مكشوفاً على أوسع مدى.

جاءت إلفيرا بإحدى بنادق الصيد المعلّقة على الجدار، فانتزعت منها القضيب الفولاذي الذي يُستخدم لتنظيف السبطانة.

استبدّ الضيق سريعاً بدون سيزار. فالعادة تقتضي أن تدخل إلفيرا السرير قبله. وقد يكون طرق مسمعيه صوت الصفعات التي وجهتها إلى ماريبيت في الممر. فخبط بقدمه على أرض الغرفة فوق القاعة الكبرى عدة مرات وبشدة واضحة.

اقتربت إلفيرا من الكنبة وبيدها القضيب الفولاذي. ورفعت رأسها نحو السقف وقالت:

- عيل صبر العجوز.

خبط دون سيزار أرض الغرفة مجدداً.

قالت إلفيرا:

- فلينفدِ صبرك. إنما أنا سأعمل بكلّ تمهّل على وسم هذه البكر.

وصفر القضيب الفولاذي المرن في الهواء. كانت ماريبيت عارية تحت غلالة القميص الوحيد الذي يستر جسدها.

قالت إلفيرا:

- هذه عن أمك.

وصرّت ماريبيت على أسنانها.

قالت إلفيرا:

- وهذه عني.

- هذه عن أمك.

- وهذه عني.

ارتفع صوت ماريبيت بعويل حاد طويل. ولسعها القضيب الفولاذي مرة أخرى.

سمعت النساء مشية دون سيزار الثقيلة تتحرك عند السرير نحـــو باب الغرفة.

فمدّت إلفيرا بالقضيب إلى ماريا قائلة على عجل:

- جاء دورك. عليك بوسمها مدى الحياة.

وانطلقت راكضة نحو باب الممر.

ثم سُمع وقع النعلين الخشبيين في الممر. فطرقات متلاحقة فوق الدرج. وران الصمت فترة طويلة. لا شكّ في أنّ جدالاً ما قد قام بـــين إلفيـــرا ودون سيزار. سُمعت من بعد مشية دون سيزار الثقيلة تدخل إلى الغرفة من جديد.

اقتربت ماريا من ماربيت المصلوبة على الكنبة الثقيلة ذات الخشب المذهب.

قالت:

- أمّا الآن فسوف تقولين لنا ما اسم حبيبك.

فكزّت ماربيت على أسنانها .

تراجعت ماريا إلى الوراء قليلاً. وصفر القضيب الفولاذي مجدداً.

قالت ماريا:

- لا بد أن أعيد ذاكرتك إليك.

سمعن في اللحظة نفسها صوت اللامبريتا تتوقف تحت النافذة.

فصرخت ماربيت مستنجدة:

- طونيو، يا طونيو، أنقذني يا طونيو.

فصاحت بها ماريا:

- أنت تعترفين إذن بأنّه هو.

وصل طونيو فصاح على الفور:

- فكّوا وثاقها.

كان ينتعل حذاءه، والنساء أمامه حافيات الأقدام. ويرتدي سترته البيضاء. إنّه حيالهنّ رجل دون سيزار المقرّب. امتلأت نفسه ثقة قوية جداً.

قال:

- هيا بسرعة.

اعترضت العجوز جوليا على ذلك فلها الحق كلّه في عقاب ابنتها.

فسأل طونيو قائلاً:

- من الذي يتولّى السلطة هنا؟ هل هنّ النساء ؟ ثم أضاف:

- ينبغي عليّ أنْ أذهب لأوقظ دون سيزار. لقد فرض حظراً تاماً على عملية الجلد في داره. ولسوف يقوم بطردكما...

فأسرعت المرأتان بفك قيود ماربيت.

تراجعت ماربيت حتى الجدار. كانت ترفع مرفقيها قليلاً وكفّاها مبسوطتان على الجدار متحفّزة للوثوب والإفلات بعيداً.

ظلّت جوليا وماريا واقفتين أمام الكنبة تنظران إلى طونيو.

«ليس لك الحق، يا طونيو»، هذا ما قال الساقي. وقال بيزاشيو:

«لقد أسأت إجابة». وقال ماتيوبريغانتي: «انظروا كيف سأفعل».

قال طونيو:

- عليكما اللعنة. سوف تحمل هذه الصغيرة آثار الضرب طويلاً فوق جسدها... هيا من هنا، يا صنف الأفاعي... انصرفا إلى النوم الآن...

بدأت ماربيت اللاطية بالجدار تضحك.

قالت جوليا:

- إنّما هي تضحك منك.

فصاح طونيو:

- انصرفي إلى النوم يا ذات الفم النتن.

انصرفت المرأتان بخطى متراجعة إلى الخلف وما إن وصلت جوليا إلى الباب حتى كرّرت قولها:

- إنّما هي تضحك منك، يا رجل.

صفق طونيو الباب وراءها ليصير وحيداً في القاعة مع ماريبت.

أمّا هي فظلت مغرقة في الضحك.

اقترب طونيو من الفتاة. قال:

- أمّا الآن يا ماريبت، أمّا الآن فلا ريب في أنك ستمنحينني قبلة...

قالت ماريبت:

- أجل.

و تقدمت فخطت نحوه الخطوة التي كانت تفصل بينهما.

ووضعت يديها على ذراعي طونيو، فلم يدرك على الفور ما القصد من وراء حركتها، هل كان بدافع من الرقّة أم لكي تثبّته في مكانه.

انحنت فطبعت قبلة على جبينه.

ولم يتح له الوقت الكافي لكي يفهم. لقد هربت. لقد ولّت هاربة برشاقة وخفة مهرولة على رؤوس أصابع قدميها. ها هي قد أصبحت فوق الدرج الخارجي. وقفت هنية والتفتت صوب طونيو وقالت:

- أحبك حقاً، يا طونيو، أحبك حقاً، أنت تعرف.

وتوارت في عتمة الليل.

وجّه ماتيوبريغانتي وهو يغادر الحانة الدعوة إلى بيزاشيو ليشرب وإياه كأساً في مكان الحفل. أخرج ورقة نقدية من فئة خمسة آلاف لير فاشترى بطاقتي دخول. وجلس الرجلان قريباً من المنهل فطلب بريغانتي زجاجة من خمر آستي الفوار.

تحركت عيناه الصغيرتان بنظرتهما القاسية للقيام بعملية مسح لمكان الحفل والساحة وما يحيط بها. إنّه يدوّن كل شيء (في ذاكرته) بطرفة عين. لقد احتفظ بهذه العادة مذ أن كان عريفاً بحرياً في السلاح البحري الملكي، فعادت عليه الآن بنفع كبير، لا سيّما أنّه يراقب بورتو مناكوري.

تحرّك مصراع نافذة في طابق السراي الرابع. إنّ دونا لوكريزيا لمّا تنم. أمّا السيدة النابوليتانية النازلة في فندق بلفيدير فلا تحضر الحفل. لا شكّ في أنّها تتمشى على الشاطئ. لكن بصحبة من يا ترى؟ ها هي جوزبينا ترقص بصحبة الفتى الروماوي، فليس لذلك من أهمية. لقد اصطحب أمينُ السرّ لتعاونية صانعي الكراسي بناتِه الثلاث إلى الحفل. وهو يشرب الكونياك الفرنسي. فمن أين جاء بهذا المال كله؟

كان المبتزّ يقوم بعملية سبر للحقل، لحقل نشاطه، ويعبث في الوقت نفسه بموساه. إنّها أداة جميلة من علامة الثورين، وهي من أنفس أنواع الأمواس في ميدان أدوات التطعيم. إنّه يحتويها كلّها في قبضة يده. ومقبض الموسى أسود اللون لمّاع فيه تعريقات من النحاس ترصّع الخشب. وهو عريض بعض الشيء عند قاعدته، بحيث ينطبق مع راحة اليد انطباقاً مريحاً. ونصلها المطوي داخل المقبض الأملس قاطع وبرّاق وخطر، ترتاح العين لمنظره، مثله مثل المحارة في قوقعتها، فهي نفيسة كاللؤلؤة المخبأة في جوفها.

جلس اثنان من السّواح شعرهما مائل إلى الصفرة إلى طاولة مجاورة. كانا يتفرّسان في وجوه الصبيان. أمّا سيارتهما من نوع فوكس فاغن، والتي تحمل لوحة من مقاطعة بافاريا، فقد تركاها عند مدخل الشارع الجديد الذي ينحدر متعرّجاً حتى الشاطئ.

فدوّن بريغانتي ذلك (في ذاكرته) لأنّه يراقب أيضاً كافة أنواع الصفقات والتسويات التي يعقدها الصبية مع الأجانب.

رفع نصل الموسى قليلاً ثم أرخاه فارتدّ إلى داخل المقبض بطرقة حادة. إنّه يستسيغ هذا الصوت الواضح الذي يشبه اصطكاك فكٍّ فتي.

كان بيبو وبالبو خارج نطاق الحفل يتكئان على حاجز المنهل. ويطيل بيبو النظر إلى ماتيو بريغانتي.

كانت بنطلونات بيبو مثقّبة ومشرّمة ومهملة. ويرتدي أبناء المدينة كلّها، كهولاً وشباناً وغلمانا، بنطلونات رثة. إنّها أسمال مرقّعة مرمّمة. أسمال مخجلة. لكنّ بيبو يرتدي أسماله بكل فخر وكأنّها أهداب الزبد الذي كان قدماء الرسامين يحيطون فينوس به. قميصه أيضاً كان رثاً بلا أزرار، بل غير معقود الطرفين فوق البطن مثلما بات يفعل عدد كبير من الواليوني هذه السنة، تقليداً للمصطافين. إنّ مزَق قميصه تخفق فوق كتفيه مثلما يخفق وشاح مار ميخائيل رئيس الملائكة. أمّا شعره الأسود فينزل ضفائر على جبينه. عمره ستة عشر عاماً. إنّه زعيم الواليوني، ذو النظرة الجريئة.

أمّا بالبو فشعره ضارب للحمرة. وهو قصير القامة، وأسماله منظّمة بعض الشيء. ويتولى تقدير الحصص عند الفوز بغنيمة ينبغي تقاسمها. فهو بيروقراطي العصابة. كان بيبو يطيل النظر إلى ماتيو بريغانتي بينما يتولّى بالبو مراقبة الساحة. وحين يكونان معاً يصيران رأساً واحداً بوسعه أن يشمل الجهات الأربع بنظرة واحدة.

أمّا الواليوني الآخرون فقد غابوا فجأة وتواروا عن الأنظار. توقفت الفرقة لأخذ قسط من الراحة. فبدا الصمت ثقيلاً. ذلك أنّ صياح الغلمان وضجيجهم كان يسدّ الفراغ في فترات الراحة السابقة.

قال بريغانتي:

- يُعِدّ الواليوني العدة للقيام بعمل ما.

فأجاب بيزاشيو:

- لقد انصرفوا إلى النوم.

- لكنّ بيبو ما يزال هناك، مثل قبطان على ظهر باخرته. إنّه يُعدّ العُدّة للقيام بضربة ما...

رفع بريغانتي إصبعه وأشار إلى بيبو طالباً إليه أن يقترب. فهو يريد أن يتحدّث إليه من داخل الحاجز الأخضر إلى خارجه.

فجاءه رد بيبو بتجهّم سريع من وجهه، وتصنّع التواء في فكّه، ونظرة حادة مع تقطيب الحاجبين. ثم عاد إلى وجهه إشراقه وصفاؤه الملائكي.

أدار بريغانتي رأسه متحوّلاً بوجهه عنه. أمّا بيزاشيو فقد تهلّل ابتهاجاً، فهذا الاستهزاء من جانب بيبو يحدّد أبعاد سلطة سيّده. وهو يستمتع دائماً، على كل حال، حين يرى سيّده يكبو كبوة جديدة.

ليس فوق أراضي مناكوري كلّها، شخص واحد يُفلِت من مراقبة ماتيو بريغانتي، إلا بيبو والواليوني التابعون له. والمعركة بينهما ناشبة لا محالة، إذ لا يسع عصابتين أن تتعايشا فوق أرض واحدة. لكنّ الإمساك بأفراد الواليوني في المرحلة الراهنة أكثر صعوبة من الإمساك بذرات الغبار المتصاعد من البيدر،عندما يقوم الرجال أو النساء مثل إلفيرا، بدق أغمار السنابل بالمدقة. أما والتاجر يملك دكاناً، والصياد لديه زورق، والسائق في شاحنته، والبائع الجوال وعربته، كذلك البستاني وما يملك من أشجار، والوجيه وما يتمتّع به من سمعة، والموظف في وظيفته، وحتى البؤساء الذين ليس بحوزتهم سوى زوجات بائسات، أولئك جميعاً لا يسعهم الإفلات من مراقبة ماتيو بريغانتي. فالعاطل عن العمل الذي يتسلّم مخصصات تموينية من البلدية، وحارس الماعز المسؤول عن عنزات الآخرين، والعاجز الذي يحتاج سريراً في مأوى العجزة، والسجين الذي يسعى إلى إيصال رسالة إلى خارج السجن، هؤلاء كلّهم ملزمون بدفع ضريبة محددة إلى ماتيو بريغانتي. أمّا الواليوني فلا يملكون شيئاً على الإطلاق. وحصيلة غنائمهم يجري تقاسمها أو أكلها أو تدخينها على الفور. أمّا الملاجئ التي تؤويهم فهي بعدد الدور القائمة في مناكوري، وعدد الأكواخ في السبخة، وعدد خيام النواطير الخشبية فوق

التلال. وليس من يلاحظ زيادة واحد على عدد الأولاد في بيت ينامون فيه عشرة أو اثني عشر.

ولسوف تظل واقعة سطو الواليوني على لامبريتا أحد رجال الشرطة من أجمل وقائعهم على الإطلاق. فالدرّاجة جرى تفكيكها كلياً وبصورة تامة ومطلقة. ثم جرى بيع كل قطعة على حدة. حتى إنّ البُزالات كانت موضع مساومات خاصة. وأشاع ماتيو بريغانتي أنّه سينال ضريبتّه مقابل سكوته عن هذه العملية. فوجد على باب بيته في صبيحة اليوم التالي لوحة اللامبريتا بحروفها الأربعة الحمراء على خلفية سوداء: ج.خ.ش.ج. التي ترمز إلى الجهاز الخاص لشرطة الجمهورية. ثم تلت ذلك عدة أيام، قام فيها باعة فطائر البيزا ببيع أضعاف مضاعفة منها. كما ازداد الطلب، ولأيام قلائل، على البوظة بشكل لم يسبق له مثيل. كان ذلك هو الاضطراب الوحيد الذي نجم عن غرق اللامبريتا.

قام بريغانتي مجدداً بفتح موساه قليلاً بينما كان بيزاشيو يرقب بطرف عينه كلاً من بيبو وبالبو. ثم قال:

- ربما كان الواليوني هم الذين قاموا بالسطو على السواح السويسريين.

فأجاب بريغانتي:

- العملية أكبر منهم بكثير.

وأرخى نصل الموسى فارتد بطرقة إلى مخبئه.

بدأت الفرقة معزوفة فوكس بطيئة. وترك فرانشيسكو بريغانتي الطبل الثلاثي ليعزف على الغيتار الكهربائي. وسجل بريغانتي (في ذاكرته) أنّ جوزبينا ترقص الآن مع مدير فرع مصرف نابولي وهو مدير شاب تزوج مؤخراً. وأنّ الألمانيين باشرا حديثاً مع ابن الصيدلي. وأنّهما يصفان له محرّك سيارة المرسيدس المقبلة. وأنّ أحدهما أخذ يرسم مخطط حجرة

الانفجار. وبعد ذلك وجها الدعوة للصبي للقيام بجولة في الفوكس فاغن. فالطريقة تقليدية.

ظهر الواليوني في الساحة ظهوراً مباغتاً. لقد قاموا بتلطيخ وجوههم بحب التوت الأحمر. فبتّ لا ترى منهم إلا العيون السود وسط الأقنعة الحمراء. كانت هنالك العصابة بأكملها. إنّهم في حدود العشرين وتتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة. وقد قطعوا الساحة كلّها وهم يطلقون صيحات الحرب ويلوحون بفؤوس وهمية. إنّهم يلعبون لعبة الهنود الحمر.

ضحك بريغانتي على طريقته الخاصة، ضحكته الباردة المعروفة، فتغضّنت أجفانه دون أن تنفتح شفتاه.

ثم قال لبيزاشيو:

- أيها الغبي، لو أنّ الواليوني هم الذين قاموا بعملية السطو على سيارة السويسري، لما وجدت قطعة واحدة من مصاصات السكر عند باعة الحلوى.

ووضع موساه فوق الطاولة.

ظلّ بيبو وبالبو لا يبديان حراكاً.

وقام الواليوني بعبور الساحة ثانية، لكنّهم في هذه المرة فرسان، يتشبّثون بنواصي خيولهم الوهمية.

ابتعد بيبو وبالبو بتمهّل نحو شارع غاريبالدي. ودوّن بريغانتي أنّهما دخلا نادي الرياضة. أمّا الهنود الحمر فقد اختفوا في زقاق متفرّع عند الطرف الآخر من الساحة.

اتكأ بيبو الى مائدة المنهل قائلاً:

- هات كأسين من البوظة بعشرين ليرا.

وألقى بالبو بقطعتين من فئة العشرين ليراً فوق المائدة.

نظر المصطافون إلى بيبو الذي يلبس أسماله الرثة بكل فخار.

فقال جوستو، خادم المنهل:

- أنا لا أقدم شيئاً للمتشردين.

فاتكأ بالبو بدوره إلى حافة المائدة، ثم قال:

- نحن دفعنا الثمن.

فقال جوستو:

- هيا انصرفا من هنا.

كان معاون مفوض الشرطة جالساً إلى المائدة المجاورة.

فقال له بيبو:

- سيدي المعاون، لقد دفعنا الثمن. أليس حقاً أنّ من واجب هذا الرجل أن يقدّم لنا ما طلبنا؟

ثم علا الصخب والضجيج وسط الساحة. فقد عاود الهنود الحمر هجومهم.

قال أحد الزبائن:

- هؤلاء الأولاد على حق. لقد دفعا الثمن فلمَ لا يُلبّى طلبهما؟

فردّت مصطافة، تحمل أفكاراً تقدميّة:

- لأنّهم فقراء دون شك.

وانطفأت في اللحظة نفسها المصابيح الكبيرة الزرقاء- البيضاء التي كانت تضيء الحقل. كما انطفأت معها كافة المصابيح الأخرى التي تنير الساحة. أمّا القمر الذي كان في أيامه الأولى فقد غاب ولم يتبقّ غير بصيص النجوم الباهت.

قال بيبو:

- سيدي المعاون، نحن نطالب بحقّنا.

هنا قفز الهنود الحمر من فوق الحاجز الأخضر وتفرّقوا بين الراقصين وهم يجأرون بالصياح. بعض النساء شرعن بالصراخ. واندفع عناصر شرطة البلدية، والعصي في أيديهم، نحو مكان الحفل.

أحاط بالألمانيين ثلاثة من الهنود الحمر.

فسأل أحدهما ابن الصيدلي قائلاً:

- هل هذه عادة دارجة في جنوب إيطاليا؟

وترنّحت مائدتهما. فنهضا وقد تملّكهما القلق.

كانت الأقنعة الحمراء تُشاهَد في كل مكان. ثم اختفوا فجأة فران علـى المكان صمت مهيب.

أُعيد وصل التيار الكهربائي بعد ذلك بعشر دقائق. وقد روى شاهد عيان أنّ أحد الهنود الحمر قد دخل من حجرة بواب البلدية، وقام قبيل الهجوم، وبكل بساطة، بإغلاق المبدّلة الكهربائية التي تتحكم بإنارة الساحة الكبرى.

قام عناصر شرطة البلدية بعملية جرد للخسائر الناجمة عـن الهجـوم. فتبيّن أنّ مصطافتين فقدت كلٌّ منهما حقيبتهـا اليدويـة. وأنّ محفظـة أحـد الألمانيين اختفت، وقد أُخِذت من جيب سترته المنشورة على ظهر الكرسـي. وليس فيما خلا ذلك سوى بعض التفاهات التي لا تستحق الذكر.

استمتع بيبو وبالبو بطعم كأس البوظة، فتناولاها بتمهّل، بعـد أن لبّـى جوستو طلبهما، بناء على إصرار المصطافة إيّاها. وبعد انتهاء أحـد شـهود العيان من سرد وقائع أول رواية عن الهجوم، الذي شنه الهنود الحمـر علـى الحفل، وذلك على مسامع رواد منهل نادي الرياضة، سأله بيبو قائلاً:

- هل جرى على الأقل، توقيف أحد هؤلاء الواليوني؟

أجاب الرجل:

- كلا.

قال بيبو:

- وداعاً.

وقال بالبو:

- تصبحون جميعاً على خير.

وكان معاون المفوّض منهمكاً بالاستماع لأقوال الشهود.

سار بيبو وبالبو بخطى وئيدة في شارع غاريبالدي، ثم انعطفا ليسلكا أحد أزقة المدينة القديمة، ومنه توجّها إلى المكان المحدد لاقتسام الغنائم.

كانت موسى ماتيو بريغانتي وقت انطفاء الأنوار، موضوعة على الطاولة بجانب زجاجة خمر آستي. وعندما عادت المصابيح الكبيرة لإغراق مكان الحفل مجدداً بأنوارها، كانت الموسى قد اختفت.

قال بريغانتي:

- لا بد من دفع ثمانمئة لير ثمن واحدة جديدة من محل بيع الخرداوات. فالأمر تافه لا يستحق الذكر...

لكنّه عض على شفته الرقيقة. وغمر الفرح والابتهاج قلب بيزاشيو لأنّ الواليوني تحدّوا سيده.

* * *

حين شرعت مارييت في الغناء لم يكن أحد نائماً غير إلفيرا.

إلا أنّ دون سيزار، الذي كان راقداً ويده على صدر إلفيرا، لم يكن متيقّظاً تماماً. فكل من نومه ويقظته قد «فقد الاهتمام» من عام لآخر. لقد بات منذ أعوام محروماً من النوم الأعمق، وهو والد التحوّلات، والذي يتمثّل الإنسان في أعماقه نكساته وزلاته ويُعِدُّها، فيهبها جسداً ذا طاقة جديدة، مثل اليرقانة داخل عتمة الشرنقة، ثم يستيقظ ظافراً، فيشدّ وهو جذلان، في ضوء الصباح، أطرافه المولودة في خِلْـقةٍ جديدة. إنّ نوم دون سيزار، وكذلك يقظته، قد أصبحا في حالة من الغمّ الدائم.

أمّا وقد حرم أيضاً من النوم الواقع مباشرة فوق النوم الأعمق، والذي ينجب الأحلام المنبئة والأحلام المنذرة. فقد انقضى وقت طويل ودون سيزار لا يعرف من الأحلام إلا الهشة والمفككة، أي تلك الأحلام الباطلة التي تختلط فيها ذكريات أحداث النهار الصغيرة، فلا تتميّز إلا بمشقّة عن إدراكات حالة اليقظة. وحين شرعت ماريبت بالغناء كان حلم اليقظة لدى دون سيزار قد بدأ يتحوّل إلى حلم، بل كان يتأرجح ما بين حلم اليقظة والحلم. لقد صار يُمضي على هذا النحو معظم لياليه.

أمّا العجوز جوليا فكانت تتصيّد البعوض الذي يطنّ حول سريرها. وهي تنتظرها حتى تستقرّ فوق وجهها فتقتلها بصفعة حادة. ونادراً ما كانت تخطئها. أمّا عن يمينها، تحت النافذة، فكان بصيص النجوم الخافت يضيء سرير ماريبت الفارغ. لقد قرنت العجوز البعوض بابنتها التي تحدتها. فكانت تهمس مع كل صفعة توجّهها:

- هذه لكِ، يا تافهة.

- هذه لكِ، يا ساقطة.

- هذه لكِ، يا نذلة.

أمّا في الغرفة المجاورة فكانت ماريا لاطية في السرير ملاصقة للجدار ومكان طونيو فارغ بجانبها. كانت تصلي: «*أبانا الذي في السموات*»،

«*السلام عليك يا مريم*». وتكرّ سبحتها لتبدأ بها من جديد. أيتها العذراء مريم، يا والدة الابن الحبيب، ردّي لي زوجي. أيها القديس يوسف، أنت الزوج الممتلئ غبطة وعطفاً، اجعل الندم يستولي على قلب الرجل الفاسق. يا مريم العذراء، يا قديسة كابو، يا شفيعة الجنوب، تعطّفي على أتعس مخلوقة بين عبيدك. يا مار ميخائيل، يا رئيس الملائكة، اطرد الشيطان من جسد شقيقتي التي أخذت زوجي مني. يا قديسة أورسولا، يا قديسة أوريا، أيتها البتول الشهيدة، ردّي لأولادي أباهم!

لم تكن ماريا متيقّنة من أنّ شقيقتها استسلمت لزوجها. فقد شاهدتها أكثر من مرة وهي تزجره. أمّا الجيران، الذين يسكنون أكواخ القصب المبعثرة بين عيدان الخيزران، والتي يشاهدون منها كل ما يجري حولهم، فلم يباغتوهما على الإطلاق، وإلا كانوا تحدثوا في الأمر. لكنّ طونيو وماربيت ما يزالان الآن (حسبما تعتقد) وحدهما معاً في القاعة الكبرى. وماربيت ما زالت (حسب اعتقادها) عاجزة عن الوقوف على قدميها لشدّة الضرب الذي أصابها. ولم يبدُ طونيو واثقاً من نفسه قط مثلما رأته زوجته هذه المرة. تُرى، ماذا جرى له هذه الليلة في بوردّو مناكوري؟

كان في رنّة صوته من السلطة الواثقة والمطمئنّة ما جعله يصدر الأمر للمرأتين بحل وثاق ماربيت فوراً. حتى إنّ ماريا لتجد نفسها عاجزة عن الذهاب لمجابهته في القاعة الكبرى. إنّها تعتقد أنّه قادر على حماية خلوته مع الفتاة بنفس الحزم الذي يمكن أن يصدر عن رجل حقيقي. وهذا كافٍ لخلق القناعة بحقيقة المصيبة التي توشك أن تقع. وامتلأت نفس ماريا بالزهو كأنّ طبيباً قال لها لتوّه إنّها مصابة بالسرطان. وأشهدت السماء كلّها كي تكون ضامنة لمصيبتها النفسية، حقيقةً لا جدال فيها.

أمّا طونيو، فكان ما يزال واقفاً على الدرج الخارجي، محدّقاً بسياج الخيزران المظلم حيث تلاشى طيف ماربيت. أحسّ بطعم المرار في فمه كأنّه أفرط في التدخين، تماماً مثلما أحسّ حين تقيأ قبل قليل في الساحة الكبرى لبوردّو مناكوري.

بدأت ماربيت الغناء من وراء سياج القصب، قرب مصب البحيرة. كانت فاتحة الغناء أغنية قديمة يرددونها أثناء قطاف الزيتون. تميّزت البداية بلهجة جذل وحبور، كأنّ في نيّتها فقط الاستهزاء بالنساء اللواتي أفلتت من بين أيديهن قبل قليل. لكنّ الأغنية من ذلك النوع الذي يمهّد الطريق أحياناً أمام الصوت كي يتضح ويتجلّى. استيقظ دون سيزار من فوره فأصاخ السمع. أمّا طونيو فكان يسبر أغوار الظلام.

تنقـّلت مارييت دائرة حول الدار، وراء عيدان الخيزران والقصب التي تحجبها عن الضياء الذي يظلّ بهاؤه واضحاً في ليالي الجنوب، حتـّى بعـد غياب القمر الفتي. وظلت تكرّر المقاطع نفسها برنّة صوتٍ أكثر فأكثر جذلاً.

استيقظت إلفيرا. لقيت التحدّي يدور ويلفّ الـدار مـن كـل جانـب. استعادت مارييت اللازمة، لكن على سلّم أعلى. نهض دون سـيزار بـصمت فتوجّه إلى النافذة. جلست إلفيرا على السرير فأحسّت بأنّها تـبغض شـقيقتها بعنف، وتكرهها من أعماق قلبها.

وبدأت مارييت تستقر على سلّم النغم الجديد. فلم تغنّ غير اللازمة حتى اطمأنت إليه تماماً.

صعدت بعدها عدة نغمات. ثم صعدت لمرات عديدة عدة نغمـات ثـم عاودت الهبوط على السلم الذي كانت استقرّت عليه.

كان طونيو يستند إلى حاجز الدرج الخارجي وذراعاه ممدودتان فـوق الليل. مصفّقاً بصمت حسب إيقاع الغناء، متمتماً بشغف: «هيّا، إيه... هيّا! هيّا!»

إنّهم يشجعون الصوت بمثل هذه الهتافات حين يكون على وشك التـألّق والتحليق. ونادراً ما يقع هذا ليلاً، على أثر ملابسات درامية كالتي وقعت هذه الليلة. فالمألوف أن يكون ذلك حوالي العصر، وفي يوم عيد أو احتفال، وبعـد أن يكون الضيوف قد غنّوا، وتكون النشوة قد ملأت الـرؤوس مـن سـماع الغناء، من غناء كل ما يمكن أن يُغنّى مـن أنـواع الأهـازيج والترنيمـات والأغاني القصيرة والأوبريت والأوبرا. أمّا الذي يملـك (أو التـي تملـك) موهبة الصوت، فيكون طول الوقت متنحّياً مقطّب الجبين.

لقد رجوه أن يغني لكن دونما إلحاح. أمّا حين يقوم (أو تقوم) بإعطـاء إشارة عن عزمه على الغناء، فيلزم الجميع جانب الصمت. ويبدأ عادة بأغنيـة قديمة تكون ملائمة لجعل الصوت يتفتّح، لكنّه يبدأ على كل حال مثل أي مغن عادي. أمّا حين يحاول (أو تحاول) الصعود والارتقاء فاتحاً الباب قليلاً أمـام الصوت (كما يحدث لدى الدخول إلى قاعة الروليت)، فالمقامر الحقيقـي يبـدأ

المراهنة بمحض الصدفة على هذا الرقم ثم على ذاك، دونما نظام، كيما يفتح الباب في وجه الحظ)، وعندما يبدأ الارتقاء متدفّلاً من سلّم نغمي إلى سلّم آخر، مثلما تثبّت نافورة ماء أقدامها بتحدي الهواء وتحدي الفضاء، حينذاك فقط ينهضون ويحيطون به. وقد يتحسّس طريقه، لكنّه يواصل الارتقاء من عالٍ إلى أعلى. وعندها يرافقونه بصمت، ويدعمونه بصمت، ويضربون كفاً بكف ضابطين الإيقاع بصمت، بحيث يصبح محاطاً بتصفيق أيدٍ صامتة، ويتوسّلون إليه متمتمين بشغف:

- هيّا، إيه... هيّا! هيّا!

وهذا ما يفعل طونيو الآن وذراعاه ممدودتان إلى ما فوق الليل. ويتمتم دون سيزار مثلَ هذا، وهو واقف الآن على شرفة غرفته بين الأعمدة.

واستقر الصوت فجأة في أسمى ارتقاء له وأكمله.

حين كان دون سيزار ما يزال يستقبل الأجانب ويتحدث إليهم عن الفولكلور المناكوري، كان يزعم أنّ الصوت كان صوتَ الكاهنات العرّافات في معبد فينوس حين يدخلن في رعدة النشوة والانخطاف. لكنّ هذا التقليد يمتدّ إلى عهود سحيقة أكثر من ذلك، فيصل إلى الفريجيين الذين ورثوه هم أنفسهم عن عبدة النار.

ويرى آخرون، استناداً إلى طرق قياس مع بعض الأغاني العربية، أنّ المناكوريين أخذوا ذلك عن المغاربة الذين غزوا أوريا بعد أن امتلأ المرفأ رملاً.

أمّا وقد استقر الألبانيون عدة مرات فوق الشريط الساحلي فقد أرجع البعض الصوت إلى أصل بلقاني. وتظلّ تلك الفرضيات كلّها هشة وبلا أساس. لا سيّما أنّ علماء الموسيقى لم تتح لهم حتى اليوم فرصة الإصغاء إلى الصوت. كذلك لم يتم القيام بأي تسجيل له. فالمناكوريين لا يُبدون أيّ استعداد لجعل غرباء عنهم يصغون لـ الصوت. كذلك هم لا يُبدون الرضى عن حضور غريبٍ لعبة القانون. ولربما كان ذلك بدافع من الحياء أوالخجل من

لعبهم وغنائهم، أي مما يمسّهم في الصميم. يبقى على كل حال فـارق وحيـد يتمثل في انتشار لعبة القانون في كافة أنحاء جنوب إيطاليـا، فـي حـين أنّ الصوت وقف على بقعة صغيرة من الساحل الأدرياتيكي.

ما عاد هنالك من داعٍ للهمس:

- هيّا، يا مارييت، هيّا، إيه، يا مارييت، هيّا.

لقد استقرت الفتاة على أعلى طبقة من غنائها.

لو أنّ احد الموسيقيين سمعها لوصف غناءها بأنّه حاد جداً، لكن يمكن وصفه أيضاً بأنّه من أعماق الصدر. وهذا هو التناقض الأساسي في وصـف الصوت والحكم عليه.

إنّه غناء يثير الدُّوار، أي أنّه مستقرّ تمام الاستقرار ومترنّح بلا ثبـات ولا ارتكاز في آن معاً. وهذا هو التناقض الأساسي في الدوار.

وهو غناء بشري لا يمكن أن يُسمع إلا بصوت أحد بني البـشر. وهـو غناء فائق الإتقان صادر عن الحنجرة الأقل تمرّساً بالغناء والأقل تدرّباً عليـه في العالم. وهذا هو التناقض الأساسي في وضع مارييت.

حين انتهت مارييت من الغناء، - بُتِر الصوت بتـراً- اختفـت بخفّـة ورشاقة حتى لم تقوَ واحدة من الآذان العديدة المصغية، التي تعمـر الـسكينة الوهمية في السبخة، على سماع حفيف قميصها الرقيق وهي تـشق دربهـا منطلقة بين عيدان الخيزران والقصب.

حلّت رباط زورق أحد الصيادين وجلست في المؤخرة، ضـاغطة دون وزن يذكر،على المجذافين القصيرين (إنّهما أقصر من ذراعيها) منزلقة بسرعة بين القصب، قاطعةً المعابر التي تعرفها حق المعرفة بخفة فائقة ظلّت معهـا الطيور المائية غارقة في سُباتها.

دخل طونيو الدار ومضى ليرقد بصمت إلى جانب زوجته ماريا التـي تشوّه بطنها من الولادات المتكرّرة. وعاد دون سيزار إلى سـريره ذي القبـة فوجد إلفيرا جالسة منتصبة الجذع في قميص النوم الأبيض، قديم الطراز، ذي

الياقة المغلقة. لاحظ أنّها كانت تنظر إليه بغيظ فرأى أنّ الوقت قد حان للافتراق عنها. أمّا العجوز جوليا فكانت ترفع يدها بالسبابة والخنصر داعية على ابنتها الصغرى مستنزلة عليها اللعنات.

نزلت مارييت عند أسفل الطبقة الصخرية التي شيدت مدينة مناكوري فوقها (يقع المرفأ في طرف المدينة الثاني مناظراً للسبخة). فدارت حول المدينة، وسط بساتين الزيتون، حافية القدمين، خفيفة الخطى دونما استعجال. وصلت الطريق الرئيسة فسلكتها حتى وصلت إلى أقرب حجر كيلومتري من المدينة. فأخذت قطعة طبشور مخبأة هناك ورسمت على الحجر دائرة حمراء في وسطها صليب. ثم تسلقت التلعة فاجتازت بساتين الزيتون لتبلغ بعد قليل أولى دعائم الجبل، الذي يقي بورتو مناكوري من رياح اليابسة. إذ تبدأ في تلك المنطقة بساتين البرتقال والليمون.

يحيط بكل بستان سور لحمايته من السارقين ومن رياح الشتاء التي تهب من جهة البحر. دخلت مارييت دونما تردد متاهة من الدروب الجوفاء بين أسوار البساتين العالية. كانت المنحدرات قاسية. وما لبثت أن أشرفت على مصابيح الحفل الزرقاء- البيضاء، ورأت النور الأحمر عند مدخل المرفأ، وظهر أمامها الخليج بأكمله تحت بهاء الليل الجنوبي، والمنارة المتلألئة فوق أعلى الجزر. توقفت قرب باب حديدي مشبك، فارتفعت على رأس قدميها مادة يدها إلى أعلى دعامة الباب، وأزاحت قطعة آجر ثم تلمّست تحتها فوجدت مفتاحاً كبيراً. ففتحت الباب وأغلقته وأعادت المفتاح إلى مخبئه.

كانت الظلمة شديدة جداً تحت الأغصان الكثيفة لأشجار البرتقال والليمون والتين. مشت مارييت مهتدية بصوت ترقرق مياه الينابيع. إنّها ثلاثة لها خرير، تخرج من تجويف في الجبل، فتتلاقى في أسفل البستان بعد أن تكون قد سالت في الأقنية الترابية التي يُدار منها الماء، عندما يحين موعد سقاية الأشجار، نحو الحفر التي تحيط بجذع كل شجرة. أمّا الساقية التي تتجمع فيها مياه الينابيع الثلاثة، فتنحدر شلالاً نحو بستان آخر، فيتجمّع الماء

في حوض ثم يتوزّع من شجرة إلى شجرة، ومن حفرة إلى حفرة، داخل شبكة معقدة من الأقنية الترابية. فيجري على ذلك النحو ريّ البساتين انحداراً من أعلى دعائم الجبل الأولى إلى أسفلها.

تلك الغزارة في المياه الجارية، تجعل الجو في البساتين منعشاً وبارداً حتى في منتصف شهر آب.

يقوم على مقربة من أعلى الينابيع مستودع مشاد على عجل، يحتوي على أدوات البستنة وفيه طاولة وكرسي. وعلى الطاولة بعض ثمار التين وإبريق ماء. وفي زاويته كدسة من الأكياس.

دخلت ماريت المستودع فأكلت تينة ثم استلقت فوق الأكياس ونامت على الفور.

* * *

عاد ماتيو بريغانتي إلى بيته بعد أن أعطى مساعده بيزاشيو التعليمات اللازمة. لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً. وما زال الحفل مستمراً.

يقيم بريغانتي في قصر فريديريك الثاني دوسواب. ويُعتبَر القصر مجمّعاً ضخماً من الأبنية المتنافرة، المترابطة فيما بينها بدهليز وأدراج دائرية وجسور معلقة، تمتد من شارع غاريبالدي حتى أزقة المدينة القديمة، عند أسفل دير القديسة أورسولا بنت أوريا. قام الإمبراطور ببناء البرج المثمّن، الذي يحدد الآن زاوية الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي، مكانَ إقامةٍ مؤقتة أثناء رجوعه من الصيد في منطقة السبخة. ثم جاء الملوك الأنجوفيون من بعده فأضافوا إليه قصراً ذا أروقة، هو دار الحكومة المطلة حالياً على الساحة الكبرى. وجاء ملوك نابولي ليشيدوا فوقه أبنية باروكية الطراز ويضيفوا إليه من الخلف عدة ملحقات وإصطبلات ومخازن. كان ذلك يوم ازدهرت تجارة بوردو مناكوري مع الساحل الدلماسي. وما قصر البريد الحالي سوى واحد من أبنية العهد الباروكي، أُلصِق بالبرج الإمبراطوري، لتتسلق عليه نباتات المداد التي تراها دونا لوكريزيا من نافذتها. أمّا الأبنية الأخرى فتحوّلت إلى

مساكن تقطنها اليوم أكثر من مئة أسرة. وتقوم النساء الآن بنشر غسيلهن في باحات كانت من قبل مرتعاً يتجاوب في أرجائه صهيل خيول الأمراء. في حين يخوض الواليوني معارك قوية فيما بينهم فوق الجسور المعلّقة. أمّا المسكن الذي يقطنه ماتيو بريغانتي فذو موقع متميّز فوق دار الحكومة، على الزاوية. فأمامه سطح صغير مسوّر بعقد قويسات من القرن الثامن عشر، غرست زوجته فوقها أزهار القرنفل وبعض الغرنوقيات واللبلاب.

كذلك استأجر من البلدية برج فريديريك الثاني غير القابل للسكن. ثم قام بتأجير الطوابق السفلى منه لمفوضية الشرطة، حيث يكدّس المفوّض أتيليو ملفّات القضايا المنسّقة. بينما احتفظ لنفسه بالطوابق العليا التي يسمّيها أحياناً «بيت مؤونتي» وأحياناً أخرى «بيت أسراري».

إنّ زوجة ماتيو بريغانتي من مواليد إحدى ضواحي مدينة تريستي. وهي شقراء تفوقه طولاً، يسري في عروقها دمٌ سلافيٌّ دون شك.

تعود معرفته بها إلى مدينة أنكون، يوم كانت نادلة في البارات وهو عريف في سلاح البحرية الملكي. كان جسدها متهدلاً بعض الشيء رغم أنّها لمّا تبلغ العشرين. إلا أنّ نفسه كانت ممتلئة غروراً، فعشيقته فتاة من الشمال. وحين جعل بطنها ينتفخ أرغمه التريستيّون على الزواج منها. كانت تلك الفتاة قد قدمت أصلاً من مقاطعة فينيسي جوليين، بصحبة طائفة كبيرة من بني قومها، فتسلّموا إدارة البارات والفنادق. لم يكن ماتيو بريغانتي يتمتّع آنذاك بأيّ سلطة تذكر، لا سيّما على أبناء تريستي. وهذا ما أفسح المجال للوليد فرانشيسكو في أن يكون له أب. لكنّ المرأة تعيش اليوم في عزلة تامة كأنّها على هامش المجتمع. فلا الأعيان من مناكوري يستقبلونها، ولا زوجها يسمح لها بمخالطة الفقراء. كما لم تُرزَق بأبناء آخرين. ذلك أنّ بريغانتي لا يريد في المستقبل لثروته أن تُقسَّم.

عندما رجع إلى البيت، كانت زوجته نائمة. ذلك أنّها حين لا تنام، تقضي الوقت في رعاية شؤون المنزل، والسهر على أحوال بيتها بعناية

ونظافة تماشياً مع التقاليد التريستية. فأخرج عدة أضابير من خزانة للأواني في غرفة الطعام ملأى بالأوراق وبسطها فوق المائدة. وشرع في إجراء حسابات والكتابة إلى رجل أعمال في فوجيا، وكتابته كلّها تنميق وتأنٍّ، مدبجة بخط كبير. فالمال الذي يحصل عليه من مراقبته في بورتو مناكوري، يوظّفه على الفور في مختلف أشكال المصالح الموزعة في أنحاء مقاطعة فوجيا كلها. فهو يملك الآن قسماً من معصرة الزيت في كالالونغا، وله حصص في نقليات البوكسيت في مانفريدونيا. واشترى مؤخراً أراضي قرب مدينة مارغريتا دي سافويا. ولن تلبث شركة مونتيكا تيني أن تجد نفسها مرغمة على شرائها منه بأسعار باهظة، حين شروعها في توسيع سبختها المالحة. وهذا ما سيحصل في المستقبل المنظور. ولقد باتت أعماله ومصالحه تعود عليه بنفع يفوق الربح الذي يحقّقه من مراقبة بورتو مناكوري. إنّ فرانشيسكو سيصير غنياً. وهذا ما جعل والده يدفع به لدراسة الحقوق. فعندما تكون لدى المرء ثروة بحاجة لإدارة، لا بدّ أن يكون له إلمام بالقانون. ذلك أن رجال القانون وحدهم، دون سواهم، استطاعوا الإيقاع بماتيو بريغانتي.

انتهى الحفل في الثالثة صباحاً. فانتزع فرانشيسكو بريغانتي السلك من الغيتار الكهربائي، ووضعه بعناية في علبته الكبيرة السوداء، المبطنة بحرير بنفسجي. ورفض الدخول بصحبة رفاقه، أعضاء فرقة الجاز، إلى منهل نادي الرياضة وذلك: أولاً لأنّه لا يحمل نقوداً، وثانياً بسبب شعور غامض بأنّ تأخره بصحبة غيره من الشبان، وانخراطه معهم في تناول الشراب والحديث عن النساء، خطأ يرتكبه بحق دونا لوكريزيا التي كانت تنظر إليه دون شك، من بين مصراعي نافذتها في الطابق الرابع من السراي.

الواقع أنّ دونا لوكريزيا كانت تنظر إليه يودّع الشبان. كانت تكرّر في نفسها القول إنّها تحبه. و كان قلبها مفعماً فرحاً لشجاعتها في تكرار القول بصوت شبه مرتفع. فهي الآن في معرِض التغلّب على تربية الجذوب. وأعادت تكرار ما اتخذت من قرارات، صمّمت على أن تبلغه إياها أثناء الموعد المضروب بينهما في بحر النهار القادم. وفكّرت في أنّه سيكون بها فخوراً.

عاد فرانشيسكو إلى البيت فوضع الغيتار في علبته في مكانه المعهود فوق خزانة الأواني. إنّ آل بريغانتي يأكلون دوماً في المطبخ.

رفع ماتيو بريغانتي رأسه ورمق ابنه بنظرة سريعة. إنّ الولد يفوقه طولاً وهو أعرض منكبين. شعره أشقر ضارب إلى الحمرة، وهو ممتلئ صحةً مثل أمه. وعاد بريغانتي يكتب.

لم يُلقِ فرانشيسكو على والده التحية. فآل بريغانتي لا يتبادلون التحية فيما بينهم صباحاً أو مساء. لم يكن يشعر بالنعاس بتأثير الانفعال الذي ما يزال يعتمل في نفسه، لكثرة ما عزف من الجاز، كما يشوب انفعاله شيء من القلق بسبب الموعد المضروب مع دونا لوكريزيا في بحر النهار، وكل ما سينجم عنه من نتائج.

ثم انتقل إلى البهو فأخذ عدداً من التوليفات المصفوفة بعناية فوق أحد الرفوف قرب الأسطوانات والكتب. عدد الكتب في الواقع قليل جداً. ثم رجع إلى غرفة الطعام فجلس مقابل والده وشرع في قراءة التوليفات متنقلاً من واحدة إلى أخرى، معيداً النظر في هذه فتلك.

فكّر ماتيو بريغانتي بكثير من الرضا، وهو يكتب إلى معارفه من رجال الأعمال، في أن ابنه صموت. ومع أنّه مستاء، لأنّه أشقر ذو شعر ضارب للحمرة، وممتلئ صحة وعافية مثل أمه، فهو راض عنه لأنّه صموت، ولأنّ وجهه ينمّ دوماً على سرّ يخبّئه. ولأنّ فرانشيسكو سيعرف يوماً كيف يقف من رجال القانون موقف الند للند.

وهو قلّما يعطيه نقوداً مصروف جيب، تماشياً مع مبدئه، ما دام الولد لمّا يبدأ بكسب عيشه بنفسه. فيدفع له نفقات الدراسة في كلية الحقوق بجامعة نابولي. وتكاليف الطعام والإقامة عند ابن عم أمه، الذي أصله من تريستي وصار كاهناً فيما بعد. ويقيم فرانشيسكو في دار الكاهن في سانتا لوتشيا. كما قدّم له الغيتار الكهربائي، وهو تحفة ثمينة من النوع الفاخر، ليستطيع بواسطته

أن يثبّت مركزه وأن يباهي أقرانه أبناء أعيان بورتو مناكوري، وكلّهم طلاب مثله، قاموا بتشكيل حلقة للجاز. وعلى ذلك النحو أمكن لفرانشيسكو أن يدخل دار القاضي أليساندرو الذي تُعنى زوجته بالموسيقى.

وضع فرانشيسكو أمامه توليفة جديدة وبدأ يسجل عليها العلامات الموسيقية بسرعة. ويجدر بالذكر أنّه حصل على الميدالية الفضية في مهرجان نابولي الأخير لتلحين الأغاني القصيرة. وفيما هو مستغرق في عمله، أخذ بريغانتي ينظر إليه بكثير من الاستمتاع. وتردّد قبل أن يعكّر عليه صفو مثل ذلك الانكباب الدؤوب. لكنّه عاد فرأى أنّ مباغتة ابنه على حين غرة، مثلما هي الحال الآن، خير وسيلة لإرباكه وبلوغ الحقيقة.

سأله قائلاً:

- لماذا تطلب أن يراسلوك على شباك البريد؟

رفع فرانشيسكو نظره متمهّلاً. قائلاً في نفسه:

«تلك هي الطامة الكبرى. لقد أخبره موظف البريد، فبات يعرف الآن كل شيء. كان عليّ أن أفكر في ذلك مسبقاً وأن أُعِدّ للأمر عُدّته».

ثم رفع رأسه ببطء وقال:

- أجل يا أبي.

- لكني لا أسألك إن كنت تتلقى رسائل عن طريق شباك البريد. فأنا أعرف ذلك. بل أسألك لماذا ؟

حدّق بريغانتي في عيني ابنه تحديقاً شديداً. فلم يطرف لفرانشيسكو جفن. كانت عيناه الزرقاوان كبيرتين تطفوان على صفحة وجهه. فنظر في وجه أبيه هنيهة، وهو صامت، ثم قال:

- ليس للأمر من أهمية تذكر.

حاول بريغانتي بالنظرة القاسية من عينيه الصغيرتين، أن يغوص إلى أعماق عيني ابنه الواسعتين النديّتين. لكن هيهات أن يصل منهما إلى

الأعماق. فالنبال الرخامية، مهما انطلقت عالياً، لا يسعها أن تخترق كبد السماء. ولم يَبْدُ الأب مستاءً من عجزه عن ذلك. فكل ما يتمتع به رجال الأعمال من مكر ودهاء لا بد أن يتحطم مستقبلاً على صخرة جبل الأولمب الأشمّ هذا. وسأله بريغانتي قائلاً:

– لديك إذن في نابولي محبوبة صغيرة؟

فكّر فرانشيسكو برهة متسائلاً في نفسه: «أهو فخ أم عصا نجاة؟ قد يكون فخاً، لكن من الخير الاعتماد على خطأ غير قابل للإثبات». لم يشفّ شيء من تفكيره ولم يبدُ أثرٌ في عينيه اللتين يختلط فيهما البؤبؤ بالحدقة، ولا على وجهه السميك المستدير المستقر فوق عنق طويل وعريض، مثل عنق الإله جوبيتر.

قال:

– أجل يا أبي.

– لست أرى ما يضير في أن تكون لك عشيقة صغيرة في نابولي. بل بوسعك أن تقول لها أن تراسلك على عنوان المنزل.

– سأقول لها.

– هل هي الآن في إجازتها الصيفية؟

– أجل، يا أبي.

– وهل تمضي إجازتها في تورينو؟

– كلا، يا أبي.

– لكنّ المظروف يحمل خاتم بريد تورينو.

– لم أشاهد ذلك.

– لكن انظر.

– لم يعد المظروف في حوزتي.

- انظر اسم المكان الذي أرّخت منه الرسالة.

- لم تعد الرسالة في حوزتي.

- أتعرف حقاً أين هي تلك الفتاة؟

- أجل يا أبي.

- وهل يُضيرك في شيء أن تقول لي أين هي؟

- إنّها تقضي إجازتها في مقاطعة البيمونت.

- عند أقرباء لها؟

- أجل، يا أبي.

هنا قال ماتيو بريغانتي:

- الآن فهمت. لقد أودعت الرسالة في بريد تورينو، كي لا يلاحظ أقرباؤها أنّها تكتب لك.

- هذا هو الأرجح.

- أهي تقيم عند أبيها وأمها؟

- أعتقد ذلك.

- يبدو أنك لا تعرف الكثير عن شؤونها...

- كلا، يا أبي.

- ولِمَ تكتب لك على الآلة الكاتبة؟

- إنّها تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة.

- وهل حملت آلتها معها وهي في الإجازة؟

- لا أعرف.

فكّر بريغانتي قائلاً في نفسه: «ألا كم سيكون رائعاً وهو يجابه رجال القانون». لكنّه حرص على إخفاء النشوة التي أفعمت نفسه فعاود الكتابة.

فكّر فرانشيسكو قائلا في نفسه: إذا كان قد قرأ الرسالة فهو الآن يقلّبني فوق الجمر، فيَنفذ فيَّ السيف وينصِب لي الشرك. لكنْ إنْ لم تكن الرسالة قد وقعت في يده وكان موظف البريد قد وصفها له فقط وحدّثه عن خاتم الغلاف فقد ربحت. علينا بالحيطة والحذر.

رفع بريغانتي رأسه وقال:

– آمل ألا تقع في أخطاء فادحة بكتابتك لهذه الفتاة...

– كلا، يا أبي.

– هل تذكر ما قلت لك في هذا الصدد ؟

– أجل، يا أبي. فأنا لا أكتب أبداً إلا والقانون نصب عيني.

– هل تذكر أنّه ليست ثمّة سوى وسيلة وحيدة تحول ما بين الفتاة وإنجاب الأطفال؟

– أجل يا أبي.

– وهي، هل تقبل بذلك؟

– أجل، يا أبي.

ضحك بريغانتي بصمت دون أن يكفّ عن الكتابة.

ثم قال:

– إليكم هؤلاء الضاربات على الآلة الكاتبة. إنّ بنات بيوت المتعة أقلّ منهنّ مجاملة.

ولزم الصمت من بعد. فعاد فرانشيسكو إلى توليفات جديدة.

* * *

عندما انتهى الحفل عاد مدير فرع مصرف نابولي إلى بيته مع زوجته. بدت مستاءة جداً لأنّه راقص جوزبينا مراراً. وجلس فيما هي تنزع ملابسها بصمت. حين استلقت على السرير نهض قائلا: أنا عائد لأدخن سيجارة في الساحة. فصاحت به قائلة:

- بل أنت عائد للقاء تلك الفتاة.

- قلتُ لكِ إنني ماضٍ لتدخين سيجارة. فلي الحق في استنشاق الهـواء النقي. أليس كذلك؟

رجع ليلتقي بجوزبينا. فهما الآن يتعانقان في عتمة رواق أحـد أجنحـة القصر الأنجوفينية.

راح بيزاشيو، نزولاً عند أوامر ماتيو بريغانتي، يطوف شوارع المدينة جسًا. فوقع نظره على جوزبينا ومدير فرع مصرف نابولي. ففكـّـر قـائلاً: «هذه تسعى دائماً في أثر الرجال المتزوجين» ودوّن (في ذاكرته) ذلك الأمر العابر مصادفة. فهذان الاثنان ليسا المقصودين بمراقبته، ولا تطالهما المهمـة التي أوكلها إليه ماتيو بريغانتي.

ما زال القاضي أليساندرو، في طابق السراي الرابع، ساهراً في مكتبـه الذي صار أيضاً غرفة لنومه، مذ أن طالبت دونا لوكريزيا بغرفة نوم مستقلة. ولسوف يرقد عند الفجر فوق أريكة تحت رفوف الكتب.

إنّه يدوّن مذكراته اليومية الخاصة في دفتر، وتتناوب أسـطر كتابتـه صعوداً وهبوطاً لأنّ نوبة البرداء لمّا تنته تماماً.

«... لن أتمكّن أبداً من إنجـاز كتـابي «فريـدريك الثـاني المـشرّع العلماني» الذي كنتُ أحدثُ عنه خطيبتي لوكريزيا فيما مضى. ولست سـوى واحد من عشرة آلاف رجل قانون إيطالي بدؤوا بكتابة مؤلّف عامر بالأفكـار الأصيلة المبتكرة المتعلقة بنقطة معينة من تاريخ الحقوق، إنّما هذا المؤلف لن يُنجَز أبداً. فالوسائل تعوزني».

«قبل سبع مئة وخمسين عاماً بالضبط، نزل فريدريك الثاني في بورتـو مناكوري وهو عائد من جزيرة رودس. كان جيش البابا قد اجتاح مملكته أثناء غيابه، فلم يمكث في البرج الذي أراه من نافذتي أكثر من ساعتين لشنق عـدد من الأتباع الخونة. ثم مضى في الليلة ذاتها إلى لوتشيرا سالكاً دروباً ملتوية. فدخل قلعتها سراً واستعاد السيطرة على الجنود المغاربة الذين بـاع رئيسهم

نفسه للبابا. وبعد ثمانية أيام تغلب على الجيش البابوي عند أبواب مدينة فوجيا ولاحق فلوله حتى بينيفان. وتمكّن بعد شهرين من استرجاع نابولي وباليرمو وبدأ يهدد روما. لقد كان فريدريك الثاني يملك كثيراً من الوسائل. وكان القضاة الذين عينهم للقيام بوضع تشريع جديد رجالاً لا تعوزهم الوسائل. لقد خُلِقت لوكريزيا لتكون زوجة لواحد من أولئك القضاة».

«كان فردريك الثاني مستبداً، لكنّه حارب الإقطاعيين المتحالفين مع البابا وفرض مزيداً من العدل في إيطاليا الجنوبية. فهل يكون الاستبداد ضرورياً لإحلال المزيد من العدل»؟

وظلّ القاضي يكتب في دفتره لفترة طويلة.

تحمل الجدران شاهداً على نوعية اهتماماته منذ بدء حياته المهنية. فهنالك صورٌ عديدة تمثل فريدريك الثاني دوسواب. وصور في أُطُرٍ زجاجية التقطها القاضي بنفسه لبعض القصور التي شيّدها الملك العظيم في منطقة البولي. فألصق عند أسفل كل إطار شريطاً ورقياً صغيراً يحمل عبارة معينة أو تعليقاً موجزاً مطبوعاً على الآلة الكاتبة مثل:

«كاستل ديل مونتي أو القصر القوطي العقلاني».

«لونشيرا، قبل فولتير بخمس مئة سنة، المغاربة في خدمة العقل».

«بينيفان، المرتزقة الألمان ينقذون القانون الروماني».

كتب القاضي تلك الخواطر والشروح كلّها على شكل حِكَمٍ أو عِبَرٍ قبل عشر سنين. فقد جرى تعيينه للتوّ في بورتو مناكوري ونزل في طابق السراي الرابع مع عروسه الشابة دونا لوكريزيا. وكان آنذاك يقول مزهواً: «أنا رجل ثقافة من جنوب إيطاليا». أمّا اليوم فقد مالت أشرطة الورق الملصقة في أسفل الأطر الزجاجية نحو الأصفر، وحبر الكتابة حال لونه.

صار الآن يكرِّس القسم الأكبر من أوقات فراغه لعمل أطلق عليه اسم قاموس الغباء. وقد وضعه في علب من الصفيح الأبيض الكبيرة اللمّاعة، يزوِّده بها والد جوزبينا بائع الخرداوات.

إنّها مجموعة من البطاقات البريدية ذات موضوع، تباع في المكتبات ومحلات الموالح والتبوغ: منها سلسلة السيارة الصغيرة (تمثل عاشقين في أوضاع شديدة التنوع والاختلاف: فهنا يتبادلان البسمات، وهنالك القبلات. في هذه الصورة يتخاصمان، وفي تلك يقرآن أبياتاً من الشعر. وهما في تلك الصور كلّها وراء مقود السيارة). وهنالك سلسلة بطاقات فوق الفيسبا، وسلسلة زوجين شابين في بدء حياتهما داخل عش زوجية صغير على الطريقة الأميركية، بدون أولاد أو بوجود أولاد، يلعبان الورق أو ينظران الى التلفزيون... لقد ملأ علباً عديدة بمثل تلك المجموعات من البطاقات. حسبه أن يلقي نظرة عليها، حين لا تنتابه نوبة ملاريا، حتى يشرق ذهنه وتتفتح قريحته.

انقضى وقت طويل على توقف الأوركسترا عن العزف، وعلى انطفاء المصابيح الكبيرة الزرقاء- البيضاء التي كانت تضيء مكان الحفل. وبدأ الفجر يبزغ فيضيء السماء، والقاضي أليساندرو ما يزال يكتب:

«لو أنّ واحداً مثل فريدريك الثاني دوسواب بُعث مجدداً من بين صفوف أيٍّ من الأحزاب السياسية القائمة في إيطاليا حالياً، لتوصل بكل يسر لأن يؤمّن لكل عاملٍ الحصولَ على سيارة من نوع فيات وجهاز تلفزيون. عندها لن يمكن العثور على رجل واحد عاطل عن العمل ومتفرغ للتفكير. فالغباء هو، ضرورةً، ضريبة العدالة».

وأعاد قراءة الجملة الأخيرة فشطب كلمة «هو» واستبدل بها كلمة «أيكون» ووضع إشارة استفهام في نهاية الكلام بدلاً من النقطة: «أيكون الغباءُ، ضرورةً، ضريبةَ العدالة ؟» إنّه رجل متشدّد في التدقيق. ثم أغلق دفتره وذهب ليستلقي فوق الأريكة الصغيرة الضيّقة، تحت رفوف الكتب التي لم يعد يقرؤها إلا نادراً.

وهو يترك بشكل عام دفتر مذكراته الخاص فوق طاولة عمله، أملاً في أن يدفع الفضول بدونا لوكريزيا الى قراءته أثناء غيابه. ولسوف

تلاحظ أنّه ما تزال لديه أفكار كثيرة. لكنّ حب الاطلاع لديها لم يصل بها إلى فتح الدفتر قط.

نام القاضي نوماً دبقاً من شدة التعرّق مثل كافة المصابين بالملاريا. وأشرقت الشمس من وراء لسان الجبل الذي يسدّ من ناحية الشرق خليج بوردو مناكوري. وانطلق الغلام الذي يعمل عند دون أوتافيو على شاحنته ثلاثية العجلات، ليقوم بجمع آنية حليب الماعز من فوق التلال وراء البحيرة.

استسلم بيزاشيو لإغفاءة فوق مقعد خشبي على رصيف الساحة. إلا أنّ ضجيج محرّك الشاحنة أيقظه. وبما أنّ الحركة سوف تدبّ بعد قليل في كافة أرجاء المدينة، فقد ذهب ليتمركز تحت صنوبرة مورا. لأنّ نظره يطال من هنالك كافة أرجاء الساحة الكبرى وشارع غاريبالدي كلّه.

توقف غلام دون أوتافيو قرب أول حجر كيلومتري عند مخرج المدينة. وهو يتوقف عنده كل صباح. الأمر صادر عن بيبو. لا يحمل الحجر في أغلب الأحيان أي كتابة. أمّا اليوم فقد قام أحدهم برسم صليب أحمر داخل دائرة حمراء. فحمل تلك الملاحظة وقفل راجعاً إلى مناكوري بأقصى سرعة.

ترك شاحنته عند أسفل المدينة القديمة وانطلق راكضاً بين الأزقة حتى وصل إلى الدار التي يجب أن يقصدها.

شاهد بيزاشيو الغلام وهو يترك شاحنته ويدخل المدينة القديمة. فتبعه متلطياً بالجدران متخفياً عند الأركان والزوايا.

أيقظ الغلامُ بيبو، وقال له:

– هنالك دائرة وصليب في وسط الدائرة.

قال بيبو:

– فهمت.

وقفل الغلام راجعاً إلى شاحنته. نهض بيبو فتمطى وألقى نظرة من النافذة فلم تقع عينه على بيزاشيو. ثم خرج وتوجّه نحو الساحة الكبرى

فاجتازها على مهل. إنّها ما تزال مقفرة. أمّا فوق البحر، فقد تابع السيروكو والليبيشيو صراع العمالقة إياه. تغلّب الليبيشيو على السيروكو لعدة كيلو مترات فتقدّم صف الغيوم حتى أغلق مدخل الخليج. وارتفعت الشمس بسرعة فأصبحت فوق غابة الصنوبر التي تغطي لسان الجبل. وأشار ميزان الحرارة على باب الصيدلي إلى ٢٨ درجة.

خرج بيبو من المدينة وتوجّه نحو الجبل. فبلغ بسرعة دعامته الأولى التي تبدأ عند منطقة البساتين. إنّ عدد بساتين البرتقال والليمون المنتشرة فوق دعائم الجبل الأولى كبير جداً، حتى أنّ بحارة المراكب التي تمخر عباب اليمّ في الربيع على مرأى من الشاطئ، يستنشقون العبير المسكر الذي يفوح من أزهار البرتقال وأزهار الليمون، قبل أن ترسو مراكبهم عند الشاطئ بمسافة طويلة، حتى لكأن أرتال الأمواج المزبدة قد تحولت إلى بستان مترامي الأطراف.

توجّه بيبو دونما تردد نحو متاهة الدروب الجوفاء، بين الجدران العالية المحيطة بالثمار الخضراء التي بدأت تستدير وتتكوّر، مثل نهدي ماريبت، والتي سوف تصفرّ عما قريب لتصبح بلون الذهب. أخرج المفتاح من مخبئه ففتح الباب ثم أغلقه وأعاد المفتاح إلى مكانه ، وتوجّه حافي القدمين صاعداً نحو المستودع، راكضاً برشاقة، متجاوزاً الأقنية الترابية التي تترقرق فيها المياه الجارية.

وجد ماريبت وهي تغسل وجهها في حوض الينبوع الصغير العلوي قرب المستودع الذي أمضت فيه ليلتها. ها هما الآن وجهاً لوجه. فهي في قميصها الرقيق الأبيض، عارية إلا منه، مشمورة الكمّين، مبعثرة الشعر، وقطرات الماء تسيل على وجهها وساعديها. وهو في أسمال قميصه المتهدّل عن كتفيه كالوشاح، وضفائر شعره الأسود تنسدل فوق جبينه.

- ماذا فعلنَ بك أيضاً .

- لقد قمنَ بجلْدي.

- هل أنت متألّمة الآن؟

- كلا، لكنّ دوري سوف يأتي.

- هل تنوين العودة إلى السبخة؟

- لست أدري. لا بدّ لي من أن أفكّر.

- متى سيرجع المهندس الزراعي للحصول على الجواب؟

- إمّا اليوم أو غداً... لكن لا أهميّة لذلك لا سيّما أنّي لا أريد الذهاب إليه.

ثم جلس الاثنان جنباً إلى جنب فوق الحافة الترابية لحوض النبع.

كانت الشمس ترسل أشعتها اللاهبة في كل اتجاه. أمّا هنا في البستان ذي الينابيع فالوضع مختلف جداً. فتحت قباب أشجار البرتقال والليمون، وأشجار التين بأوراقها الغضة الممتلئة، وفي ظلّ سياجات شجر الغار، التي تقطع البستان في أكثر من موقع، دعماً للأسوار الخارجية العالية، وحماية للأشجار من رياح الشتاء القادمة من البحر، وعلى أنغام سقسقة المياه الجارية، وفي الهواء العابق بأريج الأزهار التي ستثمر شتاءً، في حين بدأت ثمار الخريف تأخذ لونها الذهبي، هنا تجد الجو منعشاً ندياً إن لم نقل إنّه مائل للبرودة. وينتابك إحساس بالبهجة وأنت هنا في الظلّ الرطب، فيما هنالك السماء والأرض والبحر تلتهب كلّها.

لمّا تبلغْ ماربيت السابعة عشرة من عمرها، ولمّا يتجاوزْ بيبو السادسة عشرة إلا بقليل. لم يسبق لهما أن طالعا شيئاً على الإطلاق لأنّهما لا يعرفان من القراءة والكتابة إلا النزر اليسير. إنّهما جالسان براحة في الظل المنعش، جنباً إلى جنب ويداً بيد، يصغيان الى خرير الماء المترقرق تحت أقدامهما، وكلاهما مستمتع بنداوة يد الآخر في يده...

- جلبتُ لكِ شيئاً...

وقدّم بيبو الموسى لماربيت. النصل منكفىء داخل المقبض الأسود اللماع المرصع بتعريقات نحاسية. ويبرز ظهر النصل عند طرفه كالمهماز.

هذا القسم يدخل تحت قشرة الغصن بعد شقها ليباعد بين الشِقّين قبل وضع الطعم. فعندما تمسك بالموسى في راحة كفك وتطبق عليها بأصابعك، يبرز هذا النتوء، مثل عرف ديك المبارزة.

فتحت مارييت الموسى ونظرت إلى العلامة المحفورة عند أسفل النصل: رأسا ثورين كبيرين بقرون عالية مقوسة. قالت:

- هذا يصل ثمنه إلى ثمان مئة ليرعلى الأقل.

وتحسّست بإصبعها حد النصل.

- إنّه مشحوذ جيداً. يا له من نصل جميل حاد. ومرهف مثل موسى الحلاقة...

ثم أغلقته. كان النابض شديداً فارتد النصل إلى مكانه بطرقة أشبه ما تكون بطرقة إبرة مسدس عند شدّ الزناد. ويمكن لعديم الخبرة بهذا النوع من الأمواس أن يتعرّض لقصّ إصبعه. لكنّ مارييت ولدت في بلد البساتين وترعرعت على طرقات نصال الأمواس.

قالت:

- يالها من موسى رائعة. فماذا تريد أن أفعل بها؟

ثم نظرت في وجه بيبو وقالت مازحة:

- سأحتفظ بها لحلاقة ذقنك حين ينبت فيها الشعر...

قال بيبو:

- هذه موسى ماتيو بريغانتي.

فهبّت مارييت واقفة لهول المفاجأة.

قالت:

- أهذا صحيح؟

قال بيبو:

- أجل.

فصاحت مارييت:

- مرحى لكم!

قصّ بيبو عليها عملية الهنود الحمر بالتفصيل. وكيف أعدّ الخطة بالتعاون مع بالبو. وكيف تصرّف الواليوني على أحسن وجه. وكيف وانته فكرة الظهور أمام أعين الجميع، في منهل نادي الرياضة، ساعة التنفيذ، إثباتَ براءة قاطعاً. ثم عدّد لها الغنائم من الألمانيّيْن والمصطافين. وأخيراً من بريغانتي نفسه.

كانت ماريت تقبض على الموسى بشدة وتتابع بشغف تفاصيل العملية ومراحلها:

- مرحى لكم أيها الواليوني! مرحى لك يا بيبو!

وفجأة اكفهرت نظرتها المضيئة.

إنّها الحرب قد أُعلِنت إذن على بريغانتي.

قال بيبو:

- نحن في حرب معه منذ زمن طويل.

- وأنت بعملك هذا وجهت له تحدياً جديداً.

قال بيبو:

- إنّي أتحداك يا بريغانتي!

فرفعت ماريت ذراعها متوجّهة بقبضة يدها نحو المدينة وصاحت:

- تقدّموا، أيها الواليوني. الموتُ لماتيو بريغانتي .

ثم التفتت ناحية بيبو وقالت:

- سوف نتغلب على ماتيو بريغانتي. فإحساسي يقول لي ذلك .

وتابعا الحديث مطوّلاً حول شؤونهما ومشاغلهما. ثم قال بيبو:

- والآن ما هو قرارك؟

- لست أدري بعد. قد يكون عليّ النزول ثانية إلى السبخة...

- ومتى يكون الهروب؟

- قد يكون أقرب مما كنت أظن سابقاً.

- حسبما تشائين.

- وهل ستتخلى عن الواليوني؟

- سوف نعمل على إحضارهم شيئاً فشيئاً. واحداً فواحداً...

قالت ماربيت:

- سوف أفكّر. سأفكّر النهار بطوله. ولا بدّ لي من التوصّل إلى حل...

قال بيبو:

- وأنا سأرجع لرؤيتك مساءً .

وفيما هو متجه إلى مناكوري، لقيَ اثنين من الواليوني العاملين عند دون سيزار، صاعدين إلى البستان لصيانة الأقنية الترابية. فقال لهما بيبو:

- ليس في المستودع من أحد.

- نعرف جيداً من هو هذا الـ «لا أحد».

فكرّر بيبو بشيء من الحزم:

- ليس من أحد.

وكرّر الغلامان مبتسمين:

- لا أحد... لا أحد...

عادت ماربيت إلى المستودع لتجلس فوق الأكياس واضعة مرفقيها فوق ركبتيها ورأسها فوق يديها. سوف تظلّ على هذه الحال طول النهار تضع الخطط وتعد المشاريع.

* * *

حين بدا فرانشيسكو مستعداً تماماً للسفر كانت الساعة تشير إلى الثامنة.

كانت أمه في المطبخ منهمكة في إعداد الفطور لبريغانتي.

سألته أمه:

- هل أنت مسافر الآن؟

لقد توقع أن تسأله ذلك. فأجاب:

- أجل، أنا ذاهب إلى شيافوني .

شيافوني مرفأ صيد صغير، يقع في الجانب الآخر من لسان الجبل الممتد داخل البحر والمكلل بغابة الصنوبر. وهو الذي يغلق المدخل الشرقي لخليج مناكوري المناظر تماماً للسبخة والبحيرة. لم يسأل بريغانتي ابنه عما سيفعل في شيافوني. وهذا ما بث الارتباك في نفس فرانشيسكو. فقد توقع هذا السؤال. الواقع أنّ ماتيو بريغانتي قرّر معاملة ابنه رجلاً، أكثر من ذي قبل، وأن يدع له مزيداً من الحرية.

تلكأ فرانشيسكو في خروجه من المطبخ قاضماً قطعة من البسكوت.

قالت الأم:

- شيافوني بعيدة حقاً.

- إنّها لا تبعد أكثر من خمسة عشر كيلو متراً. ولن يستغرق مني الطريق طويلاً. سوف يعيرني دون روجيرو دراجته الفيسبا.

وسألته الأم:

- لكن ما حاجتك لأن تستعير فيسبا دون روجيرو؟

- عليّ أن أذهب إلى شيافوني بشأن بوق... فقد بلغني أن فرقة الجاز عندهم فيها بوق ممتاز... ومساء أمس لم أكن راضياً عن بوقنا...

فتدخل بريغانتي ليقول:

- إن لم يكن راضياً عن بوقه، فله الحق في تغييره.

ثم أضاف:

- هل لديك نقود من أجل البنزين؟

– المسافة ثلاثون كيلومتراً ذهاباً وإياباً... ولن يحاسبني دون روجيرو على سعر ليتر واحد من البنزين.

فقال بريغانتي:

– قدراتي المادية لا تقلّ عن قدرات والد دون روجيرو.

وأعطى ابنه ورقة من فئة ألف لير فلم يظهر دهشته. لكنّ الخوف المعتمل داخل أحشائه منذ عدة أسابيع ازداد بتأثير تصرف أبيه. فهل أبوه على علم بالأمر؟ لو كان على علم به لما قدّم هدية الألف لير هذه قط. أم لعله فخ منصوب؟ وأي فخ سيكون؟ الواقع أنّ فرانشيسكو لم يرَ أين الخدعة. فقد سار كل شيء هذا الصباح على مثل ما توقّع، إلا أنّ أمّه هي التي طرحت عليه الأسئلة التي كان ينتظرها من أبيه. (كذلك لم يتوقع هذا السخاء المدهش المتمثل في الألف لير). وما همّه مَن طرح الأسئلة. حسب فرانشيسكو أنّه جاء بالإجابة المعَدّة سلفاً، حتى أن بريغانتي لم تستولِ عليه الدهشة حين علم من أحد مخبريه المساعدين أنّه شاهد ابنه في غابة الصنوبر على طريق شيافوني راكباً فيسبا دون روجيرو. فالنتيجة جاءت كالمطلوب. مع هذا كلّه، ظلّ الخوف المسيطر على فرانشيسكو في ازدياد. فقد انساق منذ عدة أسابيع ضمن تيار سلسلة من الأحداث دون أن يعرف كيف تكون وجهته. وكل يوم يمرّ يحمل إليه مزيداً من الخوف.

قالت الأم:

– كان بوسعه اليوم البقاء فيما بيننا، لا سيّما أنّه ذاهب غداً لقضاء أسبوع عند خاله في بينيفان...

فقال بريغانتي:

– لقد بلغ سنّ معرفة ما يجب عليه أن يفعل.

خرج فرانشيسكو ببطء، طويلاً عريض المنكبين. سار بخطى موزونة لا يمكن لأحد على ما يبدو أن يحرفها عن خطها. والحال دائماً على هذا

النحو: فالذين بادوا غير قادرين على التحكّم في أقـــدارهم يتخـــذون ســـيماء المتحكّمين في أقدارهم ومشيتهم. وأُعجِب بريغانتي بوثوق خطوة ابنه.

ها هو فرانشيسكو يجري الآن متجهاً إلى شيافوني على الفيـــسبا التـــي أعاره إياها رفيقه في كلية الحقوق.

التقى بدونا لوكريزيا لأول مرة في فصل الشتاء الفائت، أثنـــاء إجـــازة عيد الميلاد، في بيت الملاّك الكبير دون أوتافيو، والد دون روجيـــرو، لـــدى استقبالٍ صغير دعا إليه، مثلما يفعل كل وجيه في مناكوري عدة مـــرات فـــي العام. ولا يُدعى ماتيو بريغانتي لمثل هذه المناسبات مطلقاً. صحيح أنّه أكثـــر ثروة وأوسع نفوذاً من غالبية الأعيان، لكنّهما ثروة ونفوذٌ لأمرٍ واقـــع، فـــلا يؤمّنان له أيّ حقوق. وينبغي عليه، لكي يتخطى هذا الحاجز القائم، أن يُنتخَب عُمْدة للمدينة أو أن يتلقى وساماً، أو أن يُمنَح من قبل الحكومة رتبة فـــارس أو قائد. وقلّما لمثل هذا أن يحصل. لكنّ ارتقاءه إلى مرتبة الوجاهة ظلّ يتـــأخّر، لا بسبب طعنة الموسى التي سددها فيما مضى لغلام اغتصب إحدى شقيقاته، ولا بسبب ابتزازه الشامل، الذي بات الجميع متعوّداً عليه، بقدر ما هو عائـــد إلى خدمته الطويلة في سلاح البحرية دون أن يتجاوز رتبة عريف بحار. أمّـــا فرانشيسكو فيدرس الحقوق في نابولي مثل أبناء الأعيان، ويقود فرقة الجـــاز. فلا مشكلة في هذا الصدد. ولم يتلكأ دون أوتافيو في قبول اقتـــراح ابنـــه دون روجيرو حين رغب في دعوة فرانشيسكو في العام الماضي. ومـــا لبـــث أن دُعيَ فيما بعد إلى بيوت أُسر أخرى.

أُتيح له على ذلك النحو، أن يلتقي بدونا لوكريزيا مرات عديـــدة، فـــي عطلة عيد الميلاد، عند هؤلاء تارة وعند أولئك تارة أخرى. وكان اللقاء مـــرة في بيتها، أثناء الأمسية التي تنظّمها كل عام. وهي سهرة وحيدة تحييها بـــدافع التحرّر من الأعباء الاجتماعية. وقد أخبرته فيما بعد أنّها لا تحب كثيراً مثـــل تلك المناسبات، لا سيّما في بورتو مناكوري.

ولمّا لم يكونا، لا هو ولا هي، يلعبان البريدج، وبما أنّها لا ترقص ولا هو كذلك، فقد أمكن لهما الالتقاء معاً في أغلب الأحيان قرب الحاكي. ولطالما تحدثّا عن الأسطوانات التي يختارانها سوياً. أخبرها أنّه ينصرف الى التأليف الموسيقي أحياناً. كما أصغى بانتباه لآرائها في الموسيقى. ثم تبيّن له أنّها تهوى الروايات. ولمّا كان يجهل أسماء غالبية الكتّاب الذين حدثته عنهم، فقد حازت على إعجابه.

ولئن كان قد بلغ الثانية والعشرين فما زالت معرفته بالنساء محدودة جداً. وهو يرتاد بين حين وآخر دور المتعة في فوجيا أو في نابولي. لكنّ نقوده القليلة لا تدعه يمكث أكثر من هنيهة في الغرفة المدهونة بالأبيض كأنّها عيادة في مستوصف. أمّا التعليمات الصحية فمعلّقة على الجدار قرب المغسلة حسبما يقتضي النظام الأمني. والتوصيات الهامة منها مكتوبة بحروف كبيرة. فقارورة الماء المطهر للفم والراحتين (يُنصح باستخدامه لكنّه غير إلزامي)، موضوعة على الرف الزجاجي فوق المغسلة الأرضية. تلك هي الخطوط الكبرى لأجوائه الغرامية. أمّا لغة العشق التي كانت تتردد على مسامعه فمنها: «يا حبيبي، ألا تستطيع البقاء نصف ساعة فقط ؟ لن تتكلف أكثر من ألفي لير»، «ألا تحمل في جيبك خمسين ليراً أخرى؟» «هيا، استعجل». ثم ها هي معاونة القوّادة تدقّ على الباب صائحة «هلمّوا، عجّلوا».

ويقطع عهداً على نفسه في كل مرة بألا يعود ثانية ليقع فريسة الخيبة والمساومة المزرية. فالعزلة والتخيلات يمكن أن تمنحه متعة أقوى. لكن ما إن يمرّ بعض الوقت، حتى يتوهّم شيئاً فشيئاً أنّ النساء اللواتي يراودن خيالاته لسن غير الشعور المسبق بالنساء الحقيقيات. فتدفع به الرغبة لأن يتحقق بنفسه. كما تستبدّ به الحاجة إلى الجسّ واللمس. وهكذا فقد تردد ما بين السادسة عشرة والثانية والعشرين قرابة عشر مرات لقضاء وقت في تلك البيوت.

وهو يعتقد أنّ بنات مدينة نابولي، أي الطالبات اللواتي يلتقي بهن في الكلية، بعيدات المنال مثل فتيات الجنوب كافة. ولما كانت النابوليتانيات

يسخرن من لهجة منطقة البولي، التي لم يجد سبيلاً حتى الآن إلى التخلّص منها، فإنّه لا يقاربهن البتة على غير ما يفعل رفاقه جميعاً.

أمّا النساء الوحيدات اللواتي يعرفهن حق المعرفة، فهن اللواتي يراودن أحلام يقظته. وهو يصوّرهن بملامح متغيرة بتغيّر المناسبات. فتارة يأخذن شكل فتاة أجنبية، لمحها نازلة من باخرة في كابري، وتارة أخرى صورة خادمة في مقهى قدمت له فنجان قهوة مصحوباً بابتسامة عذبة، ومرة ثالثة عابرة سبيل مجهولة مشى خلفها دون أن يجرؤ على مبادلتها الكلام. وتأخذ الصورة أحياناً شكل امرأة لا يسعه اشتهاؤها حتى في الخيال لكنّها تفرض نفسها على أحلامه فرضاً. وهي غالباً امرأة مسنّة مهيبة، بدينة، يلمحها من نافذة قريبه كاهن سانتالوتشيا، وهي تجرّ عدداً من صغارها بعد أن قيّدتهم بسير جلدي طويل.

أمّا دونا لوكريزيا فلم تراود حتى الآن أحلام يقظته مرة واحدة.

إنّ أول ما بهره في دونا لوكريزيا يُسرها. ثم ما لبث أن دعا ذلك بالانطلاق. والواقع أنّها هي التي أوحت إليه بهذه التسمية حين أطلقتها على بطلة رواية جعلته يقرؤها مترجمة عن الفرنسية، «دير بارم».

فموسيقى الجاز، وقنص طيور الحديد، وبيتهوفن والروايات الفرنسية، والحب على الطريقة الفرنسية، تلك المواضيع كلّها لا تقربها نساء الجنوب قط أو لم تتعرّض لها بحديث، كافة اللواتي التقى بهنّ حتى اليوم من نساء الجنوب. أمّا دونا لوكريزيا فتتناول في أحاديثها أي شيء بيسر وسهولة. كأنّه أمر طبيعي جداً أن تتحدث زوجة قاضي بورتو مناكوري عن هذه الأشياء كلّها. وينطبق الوصف في ذاته على حركاتها: فحين تنتقل في استقبال ما من مجموعة إلى أخرى، أو تنهض عن كرسي لتجلس على كنبة، أو تترك المائدة لتقف عند النافذة. حين تقوم بشيء من هذا القبيل، لا يسع المرء أن يخمّن (مثلما يفعل بكل يسر حين يتعلق الأمر بالنساء الأخريات) أنّها تختار مكاناً يزيدها ظهوراً، أو تبحث عن مستمعين تفشي إليهم بقصة مشبوهة.

حاشاها ذلك. فحركاتها تبقى دوماً في منأى عن كل حدس أو توقّع. وتولّد لديك انطباعاً بأنّها تتحرك من ذاتها لذاتها، لراحتها هي، دونما تأثر بالآخرين. وتتنقّل مثلما يفعل السيل الذي يجري وفق قانونه الخاص.

لم يسبق له أن التقى بامرأة لها طبيعة خاصة فكان سلوكها متوافقاً مع طبيعتها. أمّا المرض الذي ألمّ به في الربيع وجعله يلازم بورتو مناكوري طول شهرين من النقاهة، فقد أفسح له المجال لاكتشاف عواطفه بكل أبعادها. ذلك أنّه اعتقد بادئ ذي بدء أنّه لم يكن مشغوفاً إلا بالانطلاق.

اليوم فقط سوف يلتقيان، وللمرة الأولى، هو وحده وهي وحدها، وجهاً لوجه. إذ لمّا يتبادلا قبلة واحدة حتى الآن.

موعدهما في غابة الصنوبر عند سفح لسان الجبل. لكن ينبغي على فرانشيسكو أولاً أن يصل إلى شيافوني لكي يكون إثبات الوجود كاملاً.

* * *

في تمام الساعة العاشرة دخلت دونا لوكريزيا مكتب زوجها القاضي أليساندرو. قالت:

– أنا على أتم استعداد.

فسألها قائلا:

– وهل أنت متمسّكة حقاً بالذهاب إلى هنالك؟

– لقد أعلمتهم بأني سأحضر.

– وأنا عاودتني الحمى من جديد.

– إنّ المفتشة ذاهبة اليوم إلى هنالك خصيصاً لكي تلاقيني.

كان القاضي يتصبّب عرقاً ويرتعد. نظر إليها بقامتها الفارعة والممشوقة، في ثوبها ذي الأكمام الطويلة والياقة المغلقة. ثم فكّر في نفسه قائلاً: «إنّ النساء الباردات يتنطّحن وهنّ صغيرات السن للقيام بالتزامات المسنّات».

لزمه ربع ساعة كي يخرج بسيارته التوبولينو إلى الطريق. وبما أنّها وضعت ذلك أيضاً في حسابها فلم تكن متأخرة. جلست بجواره صامتة، فبدت أطول منه بمقدار نصف طول رأسها.

إنّ أسرتها في فوجيا هي التي دبّرت زواجها. فلم تبدِ أيّ مقاومة. كان همّها الأول آنذاك أن تغادر منزلاً من أربع حجرات يقيم فيه خمسة عشر فرداً. وبلغت الثامنة عشرة من العمر دون أن تتاح لها فرصة الخلوة بنفسها مرة واحدة، إنْ في الليل أو في النهار. فجدّها لأمها وجدّتها لأبيها وزوج شقيقتها وإخوتها وأخواتها لم يكفّوا عن ممارسة تباغضهم فوق رأسها حسبما كانت تقول.

وإذا صادف وجود الفتيات اللواتي يقاسمنها غرفتها خارج المنزل، أو كنّ منشغلات في مكان آخر، فإنّ فكرة إغلاق الباب على نفسها لم تكن لتأتيها، لأنّها ستسمعهم يقولون لها: «لديك إذن أشياء تخفينها». وتنتمي الأسرة إلى البرجوازية الصغيرة. فأفرادها موظفون ومستخدمون تجاريون ومحاسبون. والرجال جميعاً يعملون. وتتمتع الأسرة بشيء من رخاء العيش. إذ لا يتوفّر للفقراء مسكن من أربع غرف لخمسة عشر شخصاً. فمدن الجنوب فائقة الاكتظاظ. وقد تلقى في بعض أحياء تاريني ثمانية أفراد في غرفة واحدة.

إنّ الاختلاط، على النقيض مما كُتِب عنه في نهاية القرن الماضي، لا يقدّم للحب أيّ تسهيلات. فالمرء خاضع للمراقبة على الدوام. وارتكاب المحرمات أكثر ندرة مما قد تنمّ عليه التلميحات والإيماءات المشبوهة من الآباء لبناتهم ومن الإخوة لأخواتهم ومن الأشقاء لأشقائهم. فالأمر يقتضي مع التواطؤ صمتاً مطبقاً. وكل ما تؤدّي إليه شدة الاختلاط إثارة الخيال دون العمل على تهدئته. أمّا الخوف من الخطيئة، وهو أمر مألوف حتى عند الملحدين، فيحوّل الإحساس بالعطش إلى شعور بألم نفسي مبرّح.

كانت دونا لوكريزيا فتاة مزهوّة طاهرة الذيل. وكان تهامس الفتيات يثير اشمئزازها، كمثل ما تثيره نظرات الرجال إليها واحتكاكهم بها. أمّا

التلميحات المشبوهة التي يتفوّه بها المنحرفون، والحركات والإيماءات المريبة التي تصدر عنهم، وأحاديث العجز والخيبة، فتثير فيها التقزّز والغثيان. بلغت الثامنة عشرة وهي تجهل شؤون الحب جهلاً تاماً ، في مدينة لا يكفّ أناسها عن التفكير فيه والخوض في أحاديثه، وإن كانوا لا يمارسونه إلا قليلاً.

تابعت دراستها حتى المرحلة الثانوية دون أن تجتاز امتحانها النهائي. وطالعت عدداً من الروايات الفرنسية والإيطالية من القرن التاسع عشر، لكنّها مطالعة متقطّعة، فهي تقرأ عشرين صفحة هنا وعشرين صفحة هناك، لتجد نفسها مرغمة على التوقف، فتنشغل في حلّ نزاعات وحسم خلافات، تنشب من دقيقة لأخرى، بين المتعايشين الخمسة عشر. ولم تتوصّل إلى إقامة أي رابط بين الحب الذي وصفته لها روايات قرأتها على عجل، وبين الدناءات التي لا يكفّ الذين حولها عن التلميح إليها، وهي بادية علناً وبشكل دائم، في نظرات الرجال النهمة المتسلّطة على نهديها وفخذيها. فبات حلمها الوحيد في مرحلة مراهقتها، أن تتمكن من التحرّر والانعتاق من عيون الرجال. وهكذا تمكنت بعد الزواج فقط من أن تنعم بالوحدة والسكون لتطالع مطالعة جادة. وشرعت ترسم من خلال الروايات، صوراً لمشاعر الوجد والهوى، على أنّها امتياز محظور على نساء إيطاليا الجنوبية وعليها هي نفسها.

شُغِفت في السنين الأولى بطلاوة حديث زوجها. فغالباً ما سامرها عن فريدريك الثاني دوسواب وعن الملك مانفريد، والملوك الأنجويفيين وعن الربابنة الإسبان سادة البحر، وعن الجنرال كودرلوس دولاكلو، الذي دخل مدينة تارنتي على رأس جنود الجمهورية الفرنسية الفتية، حاملاً معه الأفكار الجديدة عن الحرية والسعادة. ولم تعد حياتها بفضل أحاديث القاضي مقتصرة على تلك اللحظة الآنية التي كانت تعيشها. فهي تعرف أنّ موطنها، جنوب إيطاليا، لم يكن منذ الأزل ذلك المكان الكئيب الموحش العامر بالعاطلين عن العمل، الواقفين بمحاذاة الجدران في انتظار قدوم مخدّم لا يأتي أبداً، ولا البلد الذي يعجّ برجال لا همّ لهم غير حبك الحيل والدسائس للاحتكاك بعذارى يعجزون عن نيلهن.

أمّا وهي في السرير فكانت تستسلم دونما متعة ولا ضيق. فهي ترى أن حالة التلقي تلك تشكل جزءاً لا يتجزأ من المنغّصات التي تتعرّض لها النساء عامةً.

أتاحت لهما سيارة التوبولينو التي تم شراؤها غداة زواجهما، زيارة منطقة البولي والكنائس القديمة، رومانية الطراز، وترّاني وسان نيكولا دوباري، والقلاع الحصينة والقصور الشامخة، بلونها الأبيض الناصع تحت نور الظهيرة، والمصطبغة بألوان وردية عند بزوغ الفجر وساعة الأصيل، العزيزة الأبية «طاهرة الذيل مثلك». هذا ما كان يقول لها أليساندرو. كما قاما بزيارة كل القصور التي بناها فريدريك الثاني دوسواب، ذلك الإمبراطور المهووس بالبناء والتشريع. ومدينة ليتشي المبنية بالحجارة الرخصة، والتي انتظم فيها طراز الباروك دون هيجان، مثلما انتظم الشعر الإيطالي بالوزن السداسي. وتأمّلا بوابة سانتا كروتشي، «الملتفّة مثل نهديك». هكذا قال لها أليساندرو. لقد كان الحجر بطرازه الروماني الحديث أو الفريدريكي أو الباروكي يشهد على ترف الجدود. وظلّ الجنوب طول قرون عديدة ينتج من المحاصيل ما يفوق حاجته بكثير. كان الإنسان آنذاك مزدهراً. وهو اليوم على قيد الحياة: يعيش خاملاً. أمّا وأنّ الماضي كان مختلفاً فالحاضر قابل للتغيير والتطوير. هذا ما كان القاضي يوضحه لزوجته الفتيّة.

كان يقول عن نفسه إنّه اشتراكي غير ملتزم. أمّا هي فكانت تطمح إلى شيء أكثر من ذلك، لتساهم بنشاط وفعالية في تطوير الوضع الراهن. لكنّ تربية الجنوب أقنعتها:

١- بأنّ السياسة ليست من شؤون النساء.

٢- بأنّ الجنوب ليس المكان الذي يتقرّر فيه مصير الجنوب.

كانا يطالعان الصحف والمجلات الاشتراكية والشيوعية، جاهدين ليتبيّنا ملامح المصير الذي يتمّ تقريره في مكان آخر، لبلدهما، ولهما أيضاً.

لم تأتِها عمليات الحمل والولادة التي تكرّرت مرتين، والتي لم ترغب فيها كما لم تمانعها، بأي كشف جديد عن ذاتها. وقد وفّرت عليها الخادمة عناء تنظيف الوليد وغسل الفراش. وقامت من ثمّ برعايتهما وتربيتهما بكل إخلاص ودقة وانتظام، مثلما تقوم بالاغتسال الكامل يوميا، على الرغم من عدم توفر وسائل الراحة في الشقة القائمة في طابق السراي الرابع. إنّ هذه الدقة والعناية الصحية بالأولاد وبنفسها، لتحلّ لديها، دونما تفكّر في الأمر، محل الدين الذي لا تؤمن به، ومحل البطولة التي تحول الظروف بينها وبين إبدائها. إلا أنّها لم تعلّق على الأولاد تلك الآمال الغامضة التي لم تتحقق لها. فكانت لهذا السبب عينه، لا تحسّ بهم على أنّهم قطعة حقيقية من كبدها. فتندهش للأمر أحياناً دون أن توليه أهمية خاصة. والآن أصبح الولد في التاسعة من عمره والبنت في الخامسة وهي في الثامنة والعشرين.

كان الزواج مكسباً لها. فالغرف الأربع في طابق السراي أفضل بكثير من شقة فوجيا. فهي وزوجها والخادمة والطفلان، خمسة يقيمون فيها، مقابل خمسة عشر هنالك. وعلى الرغم من ضرورة السرير المشترك، وهي ضرورة تمّ الآن تجاوزها، فإنّ صحبة رجل ذكي أفضل بكثير من صحبة أفراد العائلة في فوجيا. لقد تشارك أبوها وزوج أختها على شراء سيارة. فكانا يكرّسان الوقت الذي يمضيانه خارج المكتب لتنظيفها وتلميعها. في حين أنّ القاضي لا يغسل سيارته التوبولينو البتة، بل ينسى أحياناً أن يبدل لها الزيت. إنّه أفضل من الأب وزوج الأخت. إنّه رجل ثقافة.

لكنّ القاضي أليساندرو ارتكب خطيئتين اثنتين بحق دونا لوكريزيا.

حين بلغ الولد السادسة من عمره طلب منها أن ترسله لحضور دروس التعليم المسيحي. علماً بأنّه أمضى شهر العسل والأعوام التي تلت، وهو يساعد زوجته الفتيّة، على أن تنزع من فكرها بقايا الخرافات والمعتقدات الباطلة، التي لم يذهب بها غليان مرحلة المراهقة. صحيح أنّه كان شغوفاً في أمانته لتقاليد مثقفي الجنوب العقلانية. وكان كروتشي معلّمه. لكن السلطات

المدنية كانت ستنظر إليه بعين الريبة، إذا منع أولاده من المناولة الأولى، معتبرة تصرّف قاضي بورتو مناكوري على ذلك النحو تحدياً مكشوفاً موجهاً ضد الحكومة. حسبه أنّه لم يكن حائزاً على الرضى لأنّه لا يحضر القداس يوم الأحد. والأدهى من ذلك أنّ زوجته أيضاً لا تذهب إلى الكنيسة. كان تصرفه ذاك ينمّ على شجاعة حقيقية، لم تصل به إلى غايتها بعد إرسال أولاده للتعليم المسيحي. فبدأت لوكريزيا تتساءل ما إذا كان جباناً.

حين جرت عملية احتلال الأراضي البور، وقف القاضي سراً، وهو في بيته في طابق السراي الرابع، إلى جانب العمال الزراعيين مؤيّداً موقفهم بكل عنف. لكنّه، وهو في قاعة المحكمة، تحت بيته بطابقين، أصدر الحكم عليهم نزولاً عند رغبة الحكومة. فانتهت دونا لوكريزيا إلى قرارها، بأنّها باتت عاجزة عن حب رجل أصبح في نظرها فاقداً كل تقدير واعتبار.

والواقع أنّها لم تشعر نحوه بالحب قط. بيد أنّها في تلك المرحلة كانت لا تزال تجهل كل شيء عن أحاسيس الهوى. لذا كانت بكل بساطة تعتبر متعة التحدث مع أحد رجال الثقافة حباً حقيقياً.

حاول أن يدافع عن نفسه:

- لم أحكم عليهم إلا بالحد الأدنى من العقوبة. والناس يعرفون ذلك حق المعرفة...

- أنت تؤدي كل عمل بالحد الأدنى. وأنا أعرف ذلك حق المعرفة.

حين طالبت بغرفة نوم مستقلّة، صار فظاً في مخاطبتها:

«أنت امرأة باردة»، «أنت لوح جليد»، «أنت قطعة من الخشب». ثم أخذ يتحدث عن «حقوقه زوجاً». فنظرت إليه بازدراء قائلة:

- أنت أسوأ من أبي. صحيح أنّه لا يتحدث إلا عن حياة فسقه، لكنّه لا يفرضها باسم القانون.

بعد مجادلات دامت عاماً كاملاً توصّلا إلى اتفاق. فصارت لها غرفة نومها الخاصة بها، لكنّها تعهّدت بأن تستقبله فيها بعض الأحيان. فكان عليه في كل مرة أن يكرّر الرجاءات ويوالي الإخطارات.

لقد أنزلها الآن في طرف الخليج، عند مدخل غابة الصنوبر، أمام رواق المنتجع الصيفي لمستخدمي البريد.

وبدأ يناور للرجوع إلى بورتّو مناكوري فتقدم وتأخر ثلاث مرات ليؤدي نصف دورة عند طرف درب ترابي. كانت لسنوات خلت تنظر بعين الرضى إلى قلّة مهارته في القيادة. وتعتبر تلبُّكه فضيلة تميّزه عن باقي الرجال من معارفهما، المأخوذين على الدوام بإظهار مهارتهم القيادية، حتى كأنّ البراعة الفائقة وراء المقود، دليلٌ على مآثر فحولة لا يكفّون عن المفاخرة بها. أمّا اليوم وقد غدا في نظرها غير كفء وأخرق فإن ارتباكه وراء المقود يزيد من حدة غيظها.

إنّها واقفة الى جوار التوبولينو. ارتدّ هو نحو ظهر مقعده من أجل تراجع أخير.

وسألها:

- هل يسعني التراجع؟

- إرجع... هيّا... قفْ...

ها قد قضي الأمر. تقدّم ليصبح بالقرب منها ووجهته بورتّو مناكوري.

- ألا تريدين حقاً أن أحضر إلى هنا لاصطحابك ؟

- قلت لك إنّهم سوف يوصلونني.

- وداعاً يا عزيزتي.

- وداعاً.

رواق المنتجع الصيفي القائم على أعمدة رخامية، ذو شبك حديدي متقن الصنع. وقد شيد في العهد الموسوليني لحساب وزارة البريد. ولم تجرِ بعد

تدشينه مواصلة الأعمال قط. فغابة الصنوبر تبدأ مباشرة وراء الأعمدة الرخامية. ويعسكر الأولاد عند الشاطئ تحت خيام عسكرية، بينما تستقر مكاتب الإدارة داخل غرف خشبية موزعة بين البحر والرواق.

دخلت دونا لوكريزيا غرفة المدير.

– صديقي العزيز لا بدّ لي من تحيتك. فأنا متوجّهة الى الطبيب لأسوّي معه بعض الأمور.

وانتقلت إلى موقع غرفة الطبيب فلم تجد فيها إلا الممرضة.

– أنتِ منهمكة بالعمل دائماً، يا عزيزتي... أرجو أن تقولي للطبيب إنّي جئت إلى هنا. فالمراقبة الرئيسة تنتظرني.

ثم دخلت غرفة المراقبة الرئيسة لتقول:

– لا أنوي إزعاجك فالمدير ينتظرني.

وتابعت سيرها على الطريق الرملي وراء المعسكر ثم استدارت «لستُ أرى من أحد، لكن هنالك عشرات الأعين على الأقل تراقبني، فيا لبلد الشقاء!»

واضطرت لأن تمشي بلا مبالاة، مشية متراخية. ثم ارتقت ببطء أكمة يبدأ وراءها درب متلوّ نحو لسان الجبل. وتوارت عن الأنظار خلف سياجات من العليق. فسلكت الدرب على الفور وقلبها يخفق. فهذه أول مرة تتوجّه فيها إلى موعد غرامي.

قام فرانشيسكو على فيسبا دون روجيرو، بجولة في شيافوني. فتوقّف ليشرب فنجان قهوة في منهل البريد، وتبادل الحديث مع عدد من الخدم الذين يعرفهم. وقفل الآن راجعاً نحو غابة الصنوبر.

التقى بدونا لوكريزيا لأول مرة على انفراد، في فصل الربيع المنصرم، قبل انتهاء فترة نقاهته بوقت قصير. ذهب يعيد إليها بعض الأسطوانات والكتب والرواية الفرنسية «دير بارم».

سألته عن انطباعه عن الرواية بعد أن قالت:

قرأتُ، من ناحيتي، «دير بارم» عشر مرات.

كانت إجابته مقتضبة. فهو معروف بقلة كلامه، حتى بين رفاقه على مقاعد الدراسة في جامعة نابولي. لقد اكتسب عادة البخل بالكلام هذه، بسبب موقفه الحذر دوماً كلّما كان في حضرة والده. فكان يصغي لدونا لوكريزيا ويتابعها بعينيه وهي تنتقل في الصالة الكبيرة بانطلاقها العفوي، فتترك مكانها أمام المكتبة لتتوقف بجانب الحاكي، ثم تتوجّه برشاقة عجيبة إلى المنهل سائلة «هل لكَ في كأس من الكونياك الفرنسي؟» وتقترب من الشمعدان القائم فتضيئه، وتمدّ يدها إلى مفتاح الثريا فتديره، وإلى الكنبة الجلدية فتزيحها لتقترب من المصباح. ذلك كلّه وهي تواصل حديثها عن هذه الرواية أو تلك بكل يسر وسهولة، وهي في منتهى الراحة. فيا لها من امرأة جميلة، ويالها من امرأة قوية دونما تثاقل كحسناوات الجنوب، ويالها من مهيبة وبسيطة، بل هي مهيبة ببساطة.

تنبّه فجأة إلى أنّه قد أسبغ ملامح دونا لوكريزيا وتقاطيعَها على سانسيفيرينا، طول فترة قراءته للرواية الفرنسية.

قالت:

– كنتُ أحسَب أنك ستعجب بالكاتب ستاندال أيّما إعجاب، وأنّ ذلك سيكون كشفاً يقارب الصدمة...

فقال:

– لم أفهم موقف فابريس تمام الفهم.

فسألته بحماس ظاهر:

– لكن ماذا تقصد؟

فبدأ الإجابة قائلاً:

– يبدو لي...

لكنّ الفكرة لم تكن اتضحت حتى بالنسبة له. فبقي جوابه معلّقاً.

ألحّت في الاستفسار:

- يبدو لك ماذا؟

فقال:

- يبدو لي أنّي لو كنت مكان فابريس لما أحببت كليليا.

فنظرت إليه بفضول:

- أنت لا تحب الفتيات؟

- لست أدري.

فقالت:

- الآن فهمت. لا شكّ في أنّك تفضل مارييتا.

- مارييتا ؟

قالت:

- أجل، تلك الممثلة التي جرح فابريس بسيفه، من أجلها، الرجل الذي كان يفرض حمايته عليها.

فقال فرانشيسكو:

- لقد نسيت.

ثم التقت عيناه بعيني دونا لوكريزيا فقال بإصرار:

- كلا، بل كنت سأحب سانسيفيرينا.

وشعرعلى الفور بأنّه احمرّ خجلاً.

أمّا الآن وقد وصل إلى غابة الصنوبر من ناحية شيافوني فقد أنزل سرعة الفيسبا إلى الثانية وانعطف بها ليسلك درباً ترابياً وعراً بعض الشيء لمسافة ثلاث مئة متر. ثم أخفى الفيسبا وراء السياج وتابع طريقه سيراً على قدميه.

تغطي غابة الصنوبر امتداد لسان الجبل كله، وهو الذي يغلق خليج بورتو مناكوري من جهة الشرق. ويقطعه الطريق في قاعدته. أمّا عند الرأس فقد أقام الصيادون ترابوكو. ولا يؤمّ غابة الصنوبر إلا جناة الراتنج[1] ولا

(١) راتنج: مادة صمغية يفرزها الصنوبر.(م)

يعبرها إلا الصيادون المتوجّهون إلى الترابوكو. أمّا المصطافون فيظلون على الشواطئ قريباً من شيافوني وبورتو مناكوري. ويسلك الصيادون دوماً نفس الطريق، وتكون أوعية الراتنج فارغة في شهر آب وبالتالي فليس هنالك من جناة. فالبرزخ ولسان الجبل هما المكانان الوحيدان المقفران في المنطقة أثناء هذه الفترة من السنة. ومن أجل الوصول إلى البرزخ، لا بد للمرء من أن يقطع مصرف البحيرة، بالعبور فوق الجسر الوحيد الواقع عند أسفل دارة دون سيزار، وهذا ما دعا فرانشيسكو بريغانتي ودونا لوكريزيا لاختيار غابة الصنوبر، مكاناً لموعدهما الغرامي الأول.

سار فرانشيسكو بادئ الأمر بمحاذاة غابة الصنوبر من ناحية شيافوني إلى جانب حقل قصب. فواجه عانة طليقة من الحمير ثم قطيعاً من الماعز. تخلّت بعض العواقيص عن الحمير وجاءت تحوم حوله فاقتطع غصناً من الآس ليطرد به العواقيص. ارتفعت الشمس بسرعة نحو الزوال.

إنّ لقاءه الأول على انفراد مع دونا لوكريزيا، يوم قال إنّه لو كان فابريس لفضّل سانسيفيرينا، لم يدم أكثر من نصف ساعة. ولقد قال لنفسه آنذاك وفي اللحظة ذاتها: «أحب دونا لوكريزيا». لكن ما كان بوسعه أن يعتقد، قبل ذلك بثلاثة أشهر، أنّ شاباً مثله يمكن أن يقع في حب امرأة مثل دونا لوكريزيا. ذلك هو تأثير قراءة الروايات الفرنسية.

ومن ثمّ لم يعد قادراً على أن يرد بكلمة واحدة على الأسئلة الطليقة لزوجة القاضي. وأخذت تنظر إليه بفضول، بل «بفضول مركّز» حسبما خطر على باله. إنّ نظرة دونا لوكريزيا تعكس دوماً بشكل مركّز ما تفكر فيه وما تحس به.

ثم نهض وأبقى على يدها الممدودة هنيهة في يده.

فقالت له:

– هيّا انصرف .

أحبّها طول الأسابيع الثلاثة التي تلت، على طريقة أبطال الروايات في القرن الماضي. كانا يلتقيان في صالونات بورتو مناكوري، لكن لم يسبق أن التقيا على ذلك النحو المتواتر. ظلّ على عادته في قلة الكلام، بل زاد. وصارت تغرق مثله في فترات من الصمت، وهما جالسان جنباً إلى جنب بجوار الحاكي، فيما الآخرون يرقصون أو يلعبون البريدج، متلفّظَيْن فقط بأسماء الأسطوانات التي يقترح أحدهما على الآخر سماعها. لكنّه ما كان ليكفّ عن التفكير بها، شارداً بذهنه نحو نزهات ثنائية في شوارع ميلانو، وعهود حب ووفاء يقطعانها على ضفاف الأرنو في فلورنسا، وقبلات يتبادلانها في غابة بولونيا في باريس. لكنّه ما كان ليتخيّل البتة حدوث شيء من هذا القبيل، إن في بورتو مناكوري أو في نابولي. فمثل هذا الحب لا يمكن تخيله، إلا في عالم مغاير للعالم الذي يعرفه، وفي زمان ومكان مختلفين، إمّا في القرن الماضي أو الى الشمال من نهر التيبر.

توجّب عليه في نهاية الأسبوع الثالث أن يعود إلى نابولي. وذهب ليودّعها فوجدها وحدها. فمكثا واقفين وجهاً لوجه صامتين. ولم يكن أعدّ أي كلام.

قال لها:

- أنا أحبك

فقالت:

- وأنا أيضاً

و اتكأت عليه وأسندت رأسها الى كتفه.

تواعدت دونا لوكريزيا وفرانشيسكو بريغانتي على اللقاء عند مدخل مغارة مجاورة للرأس ذي «الترابوكو». إنّ لسان الجبل محدّب عند وسطه، وتنحدر غابة الصنوبر من جهة شيافوني على شكل نتوءات، لتنتهي قرب سهل مزروع بالقمح (يمشي فرانشيسكو الآن على تخومه). أمّا من جهة خليج مناكوري فتنكسر الغابة انكساراً فوق قمة شاطئ صخري ما يلبث أن يسقط

عمودياً على البحر. وتعاونت عدة سيول شتوية على حفر مجارٍ وعرةٍ لها، في الغابة والشاطئ الصخري. وتطل المغارة إياها على شاطئ صغير عند نهاية واحد من هذه السيول.

إنّ دونا لوكريزيا، وقد انطلقت من المنتجع الصيفي، أي عند قاعدة اللسان من ناحية مناكوري، مرغمة إذن على البدء بتسلق غابة الصنوبر حتى تبلغ قمة الشاطئ الصخري.

شرعت تصعد ببطءٍ متأنٍ فالمنحدر شديد ووعر. والشمس تقترب من الزوال. وإبر الصنوبر تتشّ لوطء قدميها. أمّا العطور الفواحة – من السعتر والخزامى والنعناع المفلفل والسُّمّق الذي يلتصق بالجلد مثل الزيت – فهي على درجة من الكثافة والتركيز حتى لكأنّها تتجسّد حقاً. إنّها تحدّ من مشيتها، كأنّ عليها أن تشق لنفسها درباً، وسط دغل شديد الكثافة. واصلت الصعود من شجرة إلى شجرة متشبثة بجذع خشن حيناً، متزحلقة حيناً آخر فوق إبر الصنوبر، مستأنفةً التقدم على الفور، رغم اللهيب الذي يلفح البشرة، عند السير وسط حرارة لافحة تحت الصنوبر. كانت تجابه الحرارة وعبء الصعود، وتشبث العطور، فطبيعتها الخاصة قائمة دوماً على المجابهة.

عند لقائها الأول بفرانشيسكو على انفراد، أثار فضولها حتى أقصى مداه، حين قال لها إنّه لو كان مكان فابريس لفضّل سانسيفيرينا على كليليا. ولم تستدل من تفضيله ذاك على بوح مقنّع، لأنّها لم تكن قط حتى تلك الساعة، قد تخيّلت نفسها سانسيفيرينا. أمّا وقد اكتسبت من زوجها تذوّق الأحاديث الذكيّة والممتعة، فإنّها حاولت أن تستجرّ الشاب الى تفسير دوافعه.

شهدت الدقائق التي تلت، تعقيداً جديداً نجم عن ارتباك فرانشيسكو. فهو لم يجب عن الأسئلة. ولم تدهش لذلك. فالصمت صفة ملازمة لابن بريغانتي، مثل صفاته الأخرى كعرض المنكبين والعينين الزرقاوين الطافيتين على صفحة محيّاه المستدير، ومظهره المتحفّظ مع هيئةٍ من الثقة والمهابة. لكنّ

طبيعة صمته تغيرت فجأة. فأصبح مغموماً وباعثاً على ضيق الصدر، مثل تخلخل الهواء في خليج مناكوري، ومثل الفراغ القائم بين الجبل وبين ذراعي الليبيشيو والسيروكو، المتعاركَيْن في عِرض البحر، ومثل صمت الخليج الذي يسبق العاصفة البحرية، أو يواجه جوف العاصفة، التي تبعثر شعراً غير مرئي فوق مراكب محتَجَبة.

لم يسبق لدونا لوكريزيا أن صدرت في تعاملها مع الناس إلا عن العقل، بيد أنّها شعرت بعبء ذلك الصمت، وقد أثقلَ على موقع القلب من صدرها فملأه شجناً. أمّا حين أمسك فرانشيسكو بيدها ساعة انصرافه فأبقاها هنيهة في يده، فقد أحسّت بالشجن يهبط فجأة ليتغلغل في أحشائها. هاهي قد صارت امرأة.

قالت له:

- هيّا انصرف .

وما لبثت أن وجهت لنفسها اللوم، على تلك العبارة البلهاء، كأنّها صادرة عن امرأة ريفية تعوزها اللباقة. لكنّ فرانشيسكو كان قد مضى.

في بحر الأسابيع الثلاثة التالية، واجهت الموقف الجديد مواجهة شجاعة. فهي من الآن فصاعداً امرأة، لها جسد امرأة يرتعش حساسية. وهي عاشقة، كأنّها تحديداً لم تولد قط في بلد ناسه عاطلون دائمون عن العمل، بل هي في شمال إيطاليا أو فرنسا أو في روسيا آنا كارنينا أو إنكلترا مانسفيلد.

واستخلصت النتائج على الفور. لكن ليس على طريقة هذه أو تلك من البطلات اللواتي كنّ، رغم كل الإعجاب الذي تكنّه لهنّ، لا ينفعنها إلا بإلقاء الضوء على حقيقة عاطفتها، بل ستتصرّف وفق أسلوبها الخاص بها.

إنّها لم تقرر مطلقاً ترتيب أمورها كي تبدأ بلقاء فرانشيسكو بريغانتي سراً، لتتخذه عشيقاً لها ولتصبح عشيقة له، ولتنظّم حياتها وفق متطلبات عشق قائم على الزنى والخيانة الزوجية. كلا. لكنْ بما أنّها تحبه فسوف تعيش معه. وبما أنّ جنوب إيطاليا يناصب الحب غير الشرعي العداء فسوف

يتوجّهان معاً صوب الشمال. وبما أنّهما لا يملكان المال الضروري للعيش فسوف يعملان.

ولم يخطر ببالها أن تتساءل: أهو أيضاً يحبني؟ أيكون مستعداً للرحيل معي؟ إذ لا بد، وهو عاشق، من أن تكون هي المعشوقة. لو انّها ما تزال في الثامنة عشرة ما كانت على مثل تلك الثقة بالنفس. لكنّها في الثامنة والعشرين. لذا فقد وظّفت في سبيل حبها كل ما تملك امرأة ضخمة وقوية وعاطلة عن العمل مثلها، من طاقة وقدرة.

لم يمنعها ذلك الاستخلاص الهادئ لنتائج حبها من أن تحب بكل جوارحها. بل ظلت على النقيض من ذلك تكرّر طول النهار وبحماس ظاهر:«أحب فرانشيسكو بريغانتي، فوجهه يطفح بقوة العزيمة، إنّه وسيم، ومشيته تدمّ على الثقة والطمأنينة التي تميّز الرجال الحقيقيين. وتكتّمه يكشف عن قلب حساس ورقيق، فلا بدّ لي من أن أُسعِده». واغتبطت وهي تجد نفسها مستعدة لترك أولادها دون أسف والمضي لإسعاد حبيبها. غمرت قلبها طول تلك الأسابيع الثلاثة سعادة لم تعرف لها مثيلاً على الإطلاق.

ولم يساورها أي تردد بشأن الحزن الذي سينتاب زوجها القاضي أليساندرو. فالمطالعات التي وجه زوجته نحوها، والأحاديث الطويلة معها، هي التي هيأتها لتتعرّف على خبايا الوجد وألوان الهوى. وما ذلك الفيض من القوى التي تلهب حماستها وتزيدها حدة، سوى ثمرة السكينة والعزلة اللتين نقلها إليهما، لدى خروجها من بيت أهلها في فوجيا. ما كان للتفكير بحزن القاضي، على كل حال، أن يغيّر شيئاً من قرارها الحاسم أو أن يزحزحها عنه قيد أنملة. فالقاضي أليساندرو قد هيّأها، على غير علم منه، للحب الذي ستشعر به نحو شخص آخر. لقد عمل طول عشر سنين على تربية لوكريزيا، أمّا وقد صارت الآن راشدة، فقد أحسّت بالحاجة الملحّة الى تركه، وباتت تشعر بالكراهية نحو الوصيّ عليها لأنّه يذكّرها بضعفها السابق.

حين وجدت نفسها من جديد وحدها مع فرانشيسكو، بعد ثلاثة أسابيع من قيامه، وهو يغادر بيتها، بإبقاء يدها في يده فترة أطول من المألوف بقليل، علماً بأنّ تلك الضغط الخفيف من يد فرانشيسكو، جعلها تكتشف أمام نفسها أنّها امرأة مثل الأخريات، تنتابها الاندفاعات المباغتة عينها التي تجعل المرأة تفتح قلبها للرجل، وجدت طبيعياً جداً حينذاك أن يقول لها:

- أنا أحبك.

وأن تجيبه بكل اطمئنان:

- وأنا أيضاً.

ثم أسندت رأسها على كتفه. ورأت أنّه أطول منها بقليل وأنّ كل شيء على خير ما يرام.

انتهت من تسلّق غابة الصنوبر فسلكت درباً يساير قمة الشاطئ الصخري. وأخذت تسير هناك بخطى واسعة بسبب المسافة الكافية التي باتت تفصلها عن أنظار رجال الجنوب. كانت تمشي مطمئنة تحت شمس الحادية عشرة، من ضحى أحد أيام شهر آب، تحت أشعّة «السوليوني»، شمس الأسد.

أصبح خليج مناكوري المغلق واقعاً بكامله ضمن مجال نظرها مع مقاسمه الهندسية.

تبدأ تلك المقاسم في الغرب بالبحيرة فالأرض السبخة فالتلال التي ترتع فوقها الماعز، فبساتين الزيتون والتموّجات الخضراء كلّها، ثم يمتد البرزخ مستقيماً كخط المسطرة ليفصلها عن البحر. أمّا إلى الجنوب فيتوضّع الأبيض فوق الأبيض: تتدرّج سفوح بورتو مناكوري صعداً، متراكباً بعضها فوق البعض الآخر، انتهاء بدير القديسة أورسولا بنت أوريا على قمة المدينة.

أمّا في الأسفل فيمتدّ المكسر مستقيماً في مياه المرفأ. ويتوالى من الجنوب إلى الشرق تراكب التلال المكوّرة المزروعة ببساتين البرتقال والليمون بلونها الأخضر الغامق الضارب إلى السواد.

أمّا عن انغلاق الخليج، فالأفق من جهة البحر محجوب تماماً بخط الغيوم التي يدفع بها الليبيشيو ليطردها السيروكو. وتتدرّج ألوانها من الرمادي إلى الأسود فالأبيض فالرصاصي فالنحاسي. أمّا من جهة اليابسة فينتصب الجبل شامخاً بلا صدع، وراء تلال الماعز والبساتين وغابة الصنوبر. إنّه كتلة صخرية جبارة ذات مجار محمرّة. وتكلل هامته على ارتفاع ألف متر، غابة عتيقة هرمة تعود أشجارها المعمّرة لعدة قرون، فيطلقون عليها بكثير من المهابة اسم «غابة الظل».

ويكتمل الحصار تماماً من السماء. فالشمس الواقفة الآن عمودياً فوق الخليج تغلق المنفذ العلوي وتغمر بذهبها اللاهب ابنتها دونا لوكريزيا.

اندفع فرانشيسكو بريغانتي داخل غابة الصنوبر وبدأ يتسلق لاهثاً نحو قمة اللسان، عرضة لسهام شمس الأسد، تلاحقه وخزات عواقيص الماعز وعواقيص الحمير.

حين قال لدونا لوكريزيا إنّه يحبها، وبعد أن أجابت «وأنا أيضاً»، لبثا وقتاً طويلاً واقفين متقاربين فمالت هي برأسها على كتفه، أمّا هو فظلّ مرتبكاً لا يدري ما يفعل بذراعيه، لأنّه لا يجرؤ على ضمّها إليه. وأحدثت الخادمة ضجة في الحجرة المجاورة فافترقا ثم دخلت. وبعدها وصل القاضي أليساندرو فطلب إلى زوجته أن تقدّم لهما كأساً من الكونياك الفرنسي. وتحدثوا عن موسيقى الجاز.

كانت لوكريزيا تفضّل مدرسة أورليانز، أمّا فرانشيسكو فيميل إلى موسيقى البوب، والقاضي لا يحب إلا بتهوفن. وعاد فرانشيسكو إلى بيته من غير أن يتاح له سماع دونا لوكريزيا تكرّر القول إنّها تحبه. سافر في اليوم التالي إلى نابولي دون أن يتمكن من رؤيتها ثانية.

ولم يحاول وهو في نابولي أن يطرح حقيقة عاطفته على بساط البحث، لاسيّما أنّها ليست من جانب واحد، وأنّها ترتكز على دعائم أدبية مضمونة. وشاء المصادفة أن يقع في مستودع الكاهن على ترجمة «آنا كارنينا» فقرأها دفعة

واحدة مكتشفاً أنّ الخيانة الزوجية تؤول بالسيدات العظيمات إلى نهاية مفجعة. فانتابه شيء من الغمّ بشأن دونا لوكريزيا، لكنّ غروره صار غاية في الرضى.

وفيما هو يستعد لامتحان الحقوق كان يتساءل دون انقطاع عمّا يسعه أن يفعل. إذْ لم يكن وارداً بالنسبة له إطلاقاً، أمرُ اتخاذ زوجة القاضي عشيقة له في بورتو مناكوري. لن يجد على كل حال، في أرجاء المدينة كلّها، باباً واحداً يعمل بمفتاح. وتنطبق هذه القاعدة على كل مدينة يفوق عدد سكانها، عدد الحجرات المأهولة فيها بمرات عديدة.

زدْ أنّ الشاطئ يقع على مرأى من الطريق، وتقع الحدائق على مرأى من الحدائق الأخرى، أمّا بساتين الزيتون فهي على مرأى من الجميع. وقد اعتاد رجال غابة الظلّ، والذين يجوبونها على ظهور الخيل، ورجال الجبل، عند اكتشافهم عاشقين في حالة خلوة، أن يوسعوا الرجل ضرباً باسم الله وأن ينتفعوا بالمرأة باسم الشيطان. ولا يسع أحداً والحال هذه أن يشكو الأمر لرجال الدرك، إذ ليس الزنى مجرد خطيئة فقط إنّما هو جناية يعاقب عليها القانون. كما يتحاشى الدرك على كل حال الإساءة الى رجال الغابة. أمّا التلال فواقعة تحت أعين رعاة الماعز، والسبخة تحت أعين صيادي الأسماك، أمّا الزوارق التي تخوض عباب اليمّ فتكون تحت أعين الشاطئ كلّه. سوف يكون بوسعهما اللقاء في غابة الصنوبر شريطة التوجّه إلى هناك بشكل منفصل، فكافة الدروب التي تؤدي إليها تمرّ تحت أنواع الأعين كلها. ويُشترَط الذهابُ مرة واحدة فقط، لأنّ التوافق في المرة الثانية سينكشف أمره. أمّا فرانشيسكو الذي لم يسافر إلى أبعد من نابولي، فلم يتعرّف قط على ريف ساكن خال من العيون. وهذا ما كان يمنعه، من أن يفهم تمام الفهم، كثيراً من الروايات الفرنسية: كيف كان يتوفّر للعشاق العثور على مكان آمن في الأحراش والمروج والحقول؟ وكيف لخليجٍ أن يكون بلا أعين ؟

رأى لِزاماً عليه لقاءَ عشيقته في مكان خارج حدود الجنوب. لكنّه ما يزال واقعاً ضمن تبعية والده من حيث النقود والزمن والأسفار. وما انفكّ يدير

المشكلة في فكره ويقلّبها، فلا يقع إلا على حلول لا يلبث أن يجدها غير معقولة أو غير قابلة للتحقيق. فكّر على سبيل المثال في أن يختطف دونا لوكريزيا فيذهب بها إلى الشمال، ليعيش معها في جنوة أو تورينو أو ميلانو، وأن يعمل ليكسب ما يكفي من متطلبات العيش معها. فهو قوي بما فيه الكفاية، وبوسعه القيام بجبل الملاط للبنائين، أو تفريغ عربات الشحن في القطارات، أو تحميل المراكب أو تكسير الحجارة لرصف الطرقات.

استغلّ نهار عيد القربان المقدّس، وهو يوم عطلة رسمية في الجمهورية الديمقراطية المسيحية، للذهاب إلى بورتو مناكوري. ونجح في البقاء نصف ساعة وحده مع لوكريزيا في بيتها. فهذا هو لقاؤهما الثالث على انفراد. شبّهها في اللقاء الأول بسانسيفيرينا وأمسك بيدها مطوّلاً وشدّ عليها قليلاً. وفي اللقاء الثاني باح كل منهما بحبه للآخر.

وقد أوضح لها هذه المرة أنّه ما عاد بوسعه العيش بدونها، وأنّه ينبغي عليها أن تتبعه، ولئن كان لا يعرف إلى أين، فالمكان لا يهم.

وأصغت إليه بصمت وهي تحدّق فيه بعينين مُلتهبتين.

حينئذ قصّ عليها أحلامه الخرقاء، ومشاريع الاختطاف والحياة المشتركة في الشمال والأعمال اليدوية. فأعلنت أنّ المشروع معقول تماماً، ما خلا اختيار المهنة. فلديه حتى الآن شهادتان في الحقوق. وسوف يحصل على الثالثة قريباً. فبوسعه البدء بكسب شيء من المال، إذا عمل مساعداً لمحام أولموثق عقود، أو في الاستشارات القانونية. إلى جانب مواصلة دراسته.

فكّرت في الأمر ودلّته على الخطوات الواجب إتباعها. فالقاضي أليساندرو تربطه صداقة قديمة بوكيل لشركة تجارية كبرى في تورينو، يعمل حالياً في نابولي، وهي تعود لأيام الطفولة فالمدرسة فالجامعة. على فرانشيسكو أن يذهب للقاء هذا الرجل من قبل القاضي (هاتِ من يحقّق يوماً في صحة تلك الأشياء)، ليقول له إنّ ظروفاً طارئة قد أرغمته على كسب

عيشه، وإنّ له أسرة مهاجرة في البيمونت، مؤلفة من أم أرملة وأخوات صغيرات عليه إعالتهن. أو شيئاً ما من هذا القبيل وفق ما يشاء. لكنّه مرغم على تحصيل معيشته في مدينة تورينو. وبعد بضعة أيام ستقوم دونا لوكريزيا بالكتابة للرجل بنفسها، ومن قبل القاضي أيضاً ، طالبة بإلحاح أن يجد عملاً لفرانشيسكو. سوف تراقب بعدئذ البريد الذي يحمله الساعي يوميا إلى الطابق الرابع، حين يكون زوجها في المحكمة. وإذا لم ينجح هذا المسعى فسوف تجد حلاً آخر، لأن الحلول البديلة لا تعوزها.

كانت دهشة فرانشيسكو كبيرة، حتى أنّه نسي أن يضمّ بين ذراعيه تلك التي صار يسميها عشيقته، رغم أنّهما لم يتبادلا قبلة واحدة حتى الآن.

كان يتسلّق لاهثاً، والعرق يتصبّب منه، صاعداً بين أشجار الصنوبر التي لا تؤمّن حماية كافية من شمس الأسد، يلفّه عبق العطور التي تسبب وجعاً في الرأس، وتلاحقه وخزات العواقيص. لقد اختار عن قلة دراية، صعود أشدّ المنحدرات. وليست لديه أية خبرة في الجري وسط غابة الصنوبر ساعة الظهيرة. إنّه صبي من أبناء المدرسة. بشرته بيضاء ناعمة مثل أمه.

ظلّ يتساءل عن السبب الذي دعا لوكريزيا، حين ضربت له موعداً، لأن تختار المغارة الأقرب الى رأس اللسان، أي تلك التي تُلزم كلاً منهما بقطع أطول مسافة مشياً على قدميه، وذلك بين مغاور عديدة تعمر الشاطئ الصخري بكتلته الكلسية الملأى بالثقوب من طرف إلى طرف. فاللهاث يجعله يفقد الثقة القائمة على عادة اتخذها بدافع الحذر من والده، وهي التحدث ببطء والاعتدال في التقاط الأنفاس.

حين خرج من ثالث لقاء على انفراد مع عشيقته، دون أن ينال منها قبلة واحدة بعد، كان مصيره قد تقرر.

توجّه إلى صديق القاضي في نابولي، فاستقبله بكل حفاوة، وأعجب أيّما إعجاب بصمته وسكينته، وهما مظهران غريبان على العادات النابوليتانية. استدعاه الرجل ثانية بعد ذلك بثلاثة أسابيع، فقد تلقى في آن واحد توصية ملحة من دونا لوكريزيا، وكلمة من مطران فوجيا حصلت عليها بواسطة إحدى

قريباته، وجواباً من تورينو يتضمّن موافقة مبدئية، لكنّه يطلب المزيد من الإيضاحات حول المرحلة الدراسية التي وصل إليها الشاب. وها إنّ كل شيء قد سار تماماً وفق ما ارتأت عشيقته وخططت له.

بدأت في ذلك الشهر عينه تتراءى له في أحلام نومه – وليس بعد في أحلام يقظته. فمنذ نعومة أظفاره وأحلام نومه تسير وفق الموضوع عينه:

كان يرى نفسه ملاحقاً – وبأشكال مختلفة ومتنوعة – فوق سلم، والدرجات تختفي من تحته. أو فوق مرتفع، وكل خطوة تقرّبه من حافة هاوية بلا قرار. أو في أي مكان آخر، إلا أنّ ساقيه تتراخيان فلا تطاوعانه. ونادراً ما كان يرى وجه ذاك الذي يلاحقه لكنّه يدرك إدراكاً غامضاً، مثلما تُدرَكُ الأشياء في الأحلام، أنّه والده ماتيو بريغانتي. وكان أحياناً يلمحه فلا يتبيّن له منه إلا العينان الصغيرتان بنظرتهما القاسية، والشارب الدقيق الأسود. وحين يوشك معذبه هذا، وهو أبوه، منظوراً كان أم غير منظور، على أن يمسك به، كان القلق أو الغم الذي استبدّ به ورافقه طول الحلم، يتعاظم بلا حدود. إلا أنّه غمٌّ مشوبٌ ومريب، يمتزج باللذة الشبيهة بما كان يُحِسّ به – وقد دام ذلك حتى سن الثالثة عشرة – حين كان أبوه يعاقبه جلداً بسوط جلدي، وبكل برود، فيما هو يعدّ الجلدات أو يرغمه على عدها. إذ كان يراها طريقة مثلى في معاقبة الولد لتربيته تربية حسنة، ليصير ذات يوم سيد نفسه، قادراً على الدفاع عن إرثه في وجه رجال القانون. ينبغي إذن والحال هذه جعل القانون ينفذ إلى داخل جلده. وحين يبلغ به الغمّ قمة الترويع فيصبح فائق التحمّل، كان يستيقظ وقد عرته أحياناً رعشة مواكبة لرعشة الحب، فهي موجعة وعذبة.

إلا أنّه في ذلك الشهر(الذي تلا عيد القربان المقدّس، وثالث لقاء له على انفراد مع تلك التي بات يطلق عليها اسم عشيقته) بدأ المعذِّب يتخذ في أحلامه وجهاً غامضاً أو ملتبساً، فصارت دونا لوكريزيا ترتسم داخل ملامح ماتيو بريغانتي، مثل حشرة مجنّحة في النغفة أثناء التحوّل، فالشكل الأول والثاني متمايزان ومتوحّدان في آن معاً، مثلما يحصل في الأحلام. كان يلمح

عيني والده الباردتين المسيطرتين ثم عيني عشيقته الملتهبتين المسيطرتين، ثم عيني والده وعشيقته الباردتين الملتهبتين.

بلغ قمّة لسان الجبل. وهو يمشي بخطى كبيرة على درب القمة الصخرية، تحت السوليوني. لقد امتلأ صدره سخطاً على دونا لوكريزيا التي اختارت مكان الموعد عبثاً. وواصلت العواقيص ملاحقته فامتلأ سخطاً على العواقيص، وعلى أبيه الذي يرغمه على اتخاذ الكثير من الحيطة، وعلى عشيقته، التي أرغمته على تلك المسيرة المرهقة فجعلته يعجز عن التقاط أنفاسه ، فيفقد تنفّسه الموزون، أي رباطة جأشه الوهمية.

* * *

لدى انتهاء لقائهما الثالث على انفراد، هتفت دونا لوكريزيا، حين غادر فرانشيسكو بيتها دون أن يضمّها بين ذراعيه، لكن بعد أن وافق على مشاريعها كلّها، قائلة:

- إنّه يحبني مثلما أحبه.

هي تمشي الآن بخطى كبيرة ومطمئنّة نحو المغارة التي حددتها مكاناً للقائهما، سالكة الدرب الذي يساير قمة الكتلة الصخرية، فينحدر أحياناً نحو المساحات الصغيرة، القريبة من مياه البحر، والمغطاة بالحصى الملساء التي تراها قريبة من قدميها مبعثرة بين الشجيرات، ليعود أحياناً أخرى فيرتفع نحو غابة الصنوبر.

أمّا هو فيمشي في الجانب الثاني، موازياً لها بخطى كبيرة لاهثاً، سالكاً الدرب الأعلى فوق لسان الجبل.

حين رجع إلى بورتو مناكوري لقضاء الإجازة الجامعية بدءاً من أول شهر تموز، بحثت دونا لوكريزيا عن عميل يقوم صلة وصل بينهما. إذ يستحيل إرساء الأسس لبناء المستقبل بالاعتماد على لقاءات منفردة تتحكّم فيها المصادفات، أو عن طريق تحادثهما قرب جهاز الحاكي في صالات الأعيان أو على الشاطئ حول مظلات نساء الأعيان.

فلا بدّ لهما، حتى إن رغبا في تنظيم لقاء على موعد كالذي يمضيان إليه الآن، من التكاتب مسبقاً. وليس حل التكاتب عن طريق شباك البريد ممكناً على الإطلاق. فالأمر يتعلق بها أكثر من مما يتعلق به هو، لأنّ المدينة كلّها سوف تعرف قريباً جداً أنّ زوجة القاضي لها مراسلات سرّية.

أمّا وقد اتخذت قرارها النهائي، فإنّ بادرتها الأولى ستكون إعلام زوجها بأنّها عازمة على تركه، وإنّها تطالب قبل رحيلها بحرية المراسلة على الأقل.

قرّرت أن لا تتزحزح عن موقفها أمام شكواه. فقد سمعته مراراً يبدي استياءه من أنّ التشريع الإيطالي يرفض الاعتراف بحق الطلاق، وإنّ ذلك مثالٌ مُشينٌ على ديكتاتورية الكهنة. ولئن كانت لا تخشى الخوض معه في جدال فقد باتت تحذره، مذ أن فرض عليها إرسال ولديهما لحضور دروس التعليم المسيحي وأدان العمال الزراعيين الذين احتلوا الأراضي البور. إنّه قادر في اعتقادها على استخدام أساليب مشروعة، مباشرة أو غير مباشرة، لمنعها من الرحيل أو للانتقام من فرانشيسكو. فالقانون الإيطالي مليء بالمنغّصات التي تقضّ مضاجع العشاق وتحكم الخناق عليهم.

كذلك فإن قوانين الشرطة تتيح فرض حظرٍ على رجل من الجنوب يريد أن يعمل في الشمال.

خشيت أيضاً من أن يُحيط ماتيو بريغانتي علماً بالأمر، لأنّ هذا الأخير لن يدع امرأة زانية تختطف منه ابنه بهذه السهولة. صحيح أنّها كانت تحسّ في نفسها القدرة على تحطيم كافة العوائق. لكنّها كانت تخشى على فرانشيسكو من أن يظلّ عالقاً في الشراك الثلاثية التي سيوقعه فيها كل من القاضي والمفوّض وماتيو بريغانتي، أي في الآلة الجهنمية للسلطات، الشرعية وغير الشرعية وشبه الشرعية. يكمن الحل إذن في التكتم على السر.

بقيت أمامها مسألة العثور على عميل اتصال يؤمّن المراسلة مع فرانشيسكو.

قامت باستعراض أسماء كافة النساء اللواتي تألفهن، دون أن تقرر إيداع أحداهن سرها، فهي تزدريهن دونما تمييز. على كل حال، ليست نساء الأعيان الآخرين أقلّ منها خضوعاً للمراقبة.

وكان أن اختارت جوزبينا، ابنة بائع الخرداوات، لأنّها عرفت على الفور كيف تشتريها.

لقد فقدت جوزبينا مع بلوغها الخامسة والعشرين كل أمل لها في الزواج، لا سيّما أنّها بلا بائنة (بائع الخرداوات لمّا ينتهِ من تسديد اعتماده). فصار لزاماً عليها أن تقف في طموحها للمستقبل عند حد، ولا تتطلع لأكثر من أن تصير عشيقة معترفٌ بها، أو على الأقل مسكوتٌ عنها. فإمّا أن تكون من نصيب أرمل، أو من نصيب ابنٍ ثانٍ في العائلة، حريص على عدم انجاب أطفال شرعيين، ينازعون فرع الابن البكر ميراثه ذات يوم (فبموجب هذا الشرط فقط يحصل هذا الأخيرعلى نفقة ثابتة من زعيم العائلة). أو من رجل متزوج ذي تأثير قوي حتى يستطيع فرض وجود امرأة ثانية، أو ذي حيلة وحنكة فيقوى على إقناع زوجته بالتنحي والانزواء بعيداً. فهي ستستسلم للمفوض إذا ما رجعت زوجته آنا أنيليو إلى لونتشيرا. وهو سيفتح لها مسكناً خاصاً، يستطيع التوجّه إليه ساعة يشاء، أمّا هي فلن تملك حق الحضور إلى عنده في السرايا. ذلك هو نظام الأصول واللياقات. وتحدد هذه المنظورات الوضع الخاص بجوزبينا في مجتمع مناكوري. فليست هنالك فضيحة التصقت بها لتُلام عليها. والرجال متفقون على تلقيبها بـ«القابسة المثيرة»[1] أو «الشريرة الصغيرة» ويتفق كثيرون على أنّها ما تزال عذراء.

كانوا يستقبلونها إذن مثلما يستقبلون غيرها من بنات التجار، لكن باهتمام أقل أو بمرتبة أدنى، انعكاساً مسبقاً لوضعها المستقبلي على الهامش. ويكلّفونها القيام بمهام صغيرة كحراسة الأولاد أو القيام ببعض المشتريات أو

(١) القابس: الذي يأتي بالنار. (م)

المرافقة. وتتمتع من ناحيتها، مقابل تلك الخدمات، بحرية أكبر من باقي الفتيات. فما من أحد تأخذه الدهشة لدى رؤيتها داخلة إلى دار أو خارجة منها أو متجولة في المدينة نهاراً أو ليلاً وفي أية ساعة كانت. وأحياناً تسهرعلى المرضى.

وليس من يظن أنّها حمقاء، بل المدينة كلّها على قناعة بأنّها لن تتنازل عن بكارتها إلا في أفضل الشروط، وبعد الحصول على أفضل الضمانات. إنّما هذه العذراء الحمقاء أرجح الناس عقلاً.

ولكي لا تسيء جوزبينا إلى ذلك الاعتبار الخاص بها، فإنّها لا تقبل أية هدية من النساء إلا مقابل الخدمات الصغيرة التي تؤديها لهنّ، وهذه أشياء ضئيلة. أمّا والدها بائع الخرداوات، الواقع تحت وسواس تسديد السندات المستحقة لدى نهاية كل شهر، فإنّه لا يكفّ عن الشكوى من ارتفاع أجور الخيّاطات. لذا فهي لا تقوى على منافسة بنات الأعيان أناقة. لكنّها على درجة من الحذق تجعل معظم الرجال لا يلحظون ذلك.

فهي ترتدي شلحة ذات ثلاثة أدوار مثل بنت دون أوتافيو، لكنّ الكشاكش تزين دوراً واحداً فقط.

سبق لدونا لوكريزيا أيضاً أن احتاجت لخدمات جوزبينا أكثر من مرة. كانت توكل إليها حراسة الأولاد حين تكون الخادمة عند أهلها. لكنّها ما كانت لتبوح لها بأي سرّ خاص - بل ماذا لديها لتبوح به؟ - كما أنّها لا تولي سفاسف الفتاة أذناً صاغية. فكبرياؤها كان يزيد لقبها «دونا» رسوخاً وثباتاً، من غير أن تكون محبوبة. لقد شقّ عليها كثيراً أن تجد نفسها مرغمة على الطلب من جوزبينا القيام بمهمة رسول بينها وبين غلام في الثانية والعشرين. فكان ذلك أول تنازل من كبريائها في سبيل عشقها. ولقد تصرّفت على النحو التالي:

وجدت مبرراً للذهاب إلى عند آنا أتيليو زوجة المفوّض المقيمة في الطابق الأدنى، ساعة العصر حين تكون جوزبينا عندها حسب العادة. إذ تقوم بين دونا لوكريزيا وآنا أتيليو علاقة مودّة وحسن جوار ليس إلا. وبعد تبادل بضع كلمات عن الأولاد قالت:

- أنا ذاهبة إلى مخزن فيديليا...

فيديليا هي بائعة نوفوتيه وصاحبة أجمل مخزن في شارع غاريبالدي.

ثم التفتت إلى جوزبينا وقالت:

- هل ترافقينني؟

لم يكن في ذلك ما هو خارج عن المألوف. فالمرافقة إحدى مهمات جوزبينا. ولم تتوجّه إليها بكلمة واحدة طول الطريق من السرايا إلى مخزن فيديليا. كان قلبها يخفق، بأشدّ مما خفق هذا الصباح، حين سلكت درب غابة الصنوبر وراء رواق المنتجع الصيفي وهي ذاهبة للقاء عشيقها. ومن أجل أن تتفادى أي تواطؤ يمكن أن يسببّ لها مسبقاً إحساساً بالغثيان، قررت أن تشتري جوزبينا من قبل أن تطلب منها أية خدمة.

كانت في بيت آنا أتيليو قبل أيام، وسمعت جوزبينا وهي تشكو من عدم قدرتها على شراء مايوه مطاطي من اللستكس للسباحة. إنّ من دواعي خجل هذه الفتاة، المعاصرة لكل من جينا لولو بريجيدا وصوفيا لورين، أنّها ذات نهدين صغيرين. وما من قماش في نظرها، يفوق اللستكس، في تمويه الحشوتين اللتين تضعهما لتكبير نهديها. لكنّ مايوه من اللستكس يكلّف ما بين ستة إلى عشرة آلاف لير، أي ثمن ستين إلى مئة وعشرين ليتراً من النبيذ، أو أجر عامل زراعي مدة خمسة عشر إلى ثلاثين يوماً. وذلك المبلغ باهظ بالنسبة لابنة بائع الخرداوات.

اختارت دونا لوكريزيا، وهي في مخزن فيديليا، مايوه من اللستكس دونما تعيين. وسألت جوزبينا قائلة:

- هل يروقك؟

أجابت جوزبينا:

- إنّه يسلب الألباب. لكنّه بالتأكيد أصغر من قياسك بقليل.

- هذا قياسك أنت.

حدّقت فيها جوزبينا بعينيها السوداوين الكبيرتين الذاهلتين المريضتين. فأضافت لوكريزيا قائلة لها:

- سوف تسعدينني بقبوله.

وانتابها الغيظ وهي تظنّ أنّ في رنّة صوتها شيئاً من التذلل.

فتابعت تقول بلهجة الغضب:

- هيّا، قرري.

ظلت جوزبينا تتفرّس في وجهها.

فقالت لوكريزيا لفيديليا:

- غلّفي لنا هذا.

فقالت جوزبينا:

- كلا، بل أفضّل الأزرق الفاتح.

وظلّت تتفرس في وجه لوكريزيا. ثم قالت:

- أنا أكثر سواداً منك. واللون الأزرق يزيد الأسمر ظهوراً.

جرّبت جوزبينا على نفسها قياس المايوه الأزرق الفاتح فوجدته كبيراً. ثم جرّبت واحداً آخر لتعود بعده للأول.

ظلّت دونا لوكريزيا تنتظر ساكنة منتصبة صامتة. فجوزبينا لم تتوصّل للاختيار وفيديليا تراقبهما. ثرثرت جوزبينا طويلاً عن الألوان، وملاءمتها لألوان البشرة المختلفة، وهي تتفحّص وجه لوكريزيا. وأخيراً قامت بالاختيار. فدفعت زوجة القاضي ثمانية آلاف لير وحملت جوزبينا الرزمة.

ما إن صارتا في الشارع حتى سألتها لوكريزيا:

- هل تعرفين فرانشيسكو بريغانتي؟

- بكل تأكيد

- هل بوسعك أن تقابليه وحده؟

- يمكن أن أتدبر الأمر.

- ستحملين له رسالة وتأتيني بالجواب.

- سأفعل حين ترغبين.

- تعالي إلي غداً صباحاً لأخذ الرسالة.

- أجل. سأحضر قبل الظهر، قبل أن يصعد السيد القاضي.

قالت لوكريزيا:

- نعم.

وأكملتا ما تبقى من الطريق بصمت. وحين أصبحتا أمام السراي قالت جوزبينا:

- سنقول أمام الجميع إنّ والدي هو الذي قدّم لي المايوه.

فقالت لوكريزيا:

- لا بأس. وشكراً لك.

حين التقت دونا لوكريزيا في مساء ذلك اليوم بفرانشيسكو بريغانتي مصادفة في الساحة الكبرى، روت له على عجل تفاصيل مأثرتها، وكان وسط عشرة أشخاص حاولوا دون جدوى اقتناص كلماتها. فقال فرانشيسكو هامساً:

- مايوه بثمانية آلاف لير. هذا باهظ جداً. كان بوسعك شراؤها مدى الحياة بصدرية لا تزيد على ثلاثة آلاف لير. أمّا الآن فسوف يساورها الاعتقاد بأنّ لها عليك حقوقاً. فقالت في نفسها: «يا للولد المسكين، فهو لمّا يتحرّر من أساليب تفكير بوردو مناكوري».

إنّ مصروف القاضي وزوجته محدود جداً. فلم تخطر على بالهما إطلاقاً فكرة تبديل سيارة التوبولينو. ونادراً ما كانا يخرجان سويا. ويمكن لهما أن يأكلا كيفما اتفق، دون أن يعلّق أيٌّ منهما على الأمر أهميّة تذكر.

أمّا والخياطات يسبّبن غيظاً دائماً لدونا لوكريزيا، فإنّ أي ثوب من الملابس الجاهزة تشتريه من فوجيا يأخذ عليها مظهراً حسنا. وأمّا الكتب والأسطوانات والكونياك الفرنسي فيقدّمهما والدا القاضي اللذان يحقّقان عائدات كبيرة من أراضيهما في منطقة التافوليري. كذلك بات الزيت والنبيذ من الحصص التي ينتجها المرابعون. وهكذا فعلى الرغم من ضآلة المرتب الذي يحصل عليه قاض من المرتبة الدنيا، تتبقّى أحياناً عند نهاية الشهر بعض الأوراق النقدية، في الدُّرج الذي تلقي فيه دونا لوكريزيا بالمال بشكل فوضوي. وحين يصل المال الجديد، تأخذ فائض الشهر السابق وترمي به دون عدٍّ داخل علبة حديدية كبيرة من النوع الذي يستخدمه القاضي لتجميع شواهد الغباء المعاصر. وحين قرّرت الرحيل، فتحت العلبة وأحصت محتوياتها لتجد مئة واثنين وتسعين ألف لير. أي ما يكفي لشراء دزينتين من مايوهات اللستكس أو ما يقارب طنين من النبيذ. فامتلأت نفسها راحة ورضى.

أقام الصيادون ترابوكو قبل ألف عام أو ألفين، عند رأس اللسان، غير بعيد عن المغارة التي ضربت دونا لوكريزيا لفرانشيسكو موعداً فيها.

الترابوكو ماكنة صيد، تتألف بشكل أساسي من مجموعة من الصواري الممتدة فوق البحر، والمنبسطة على شكل مروحة بموازاة سطح الماء، تتعلّق برؤوسها شبكة ضخمة متعددة الزوايا، تكون فوق الماء أثناء الراحة، وداخل الماء أثناء العمل.

ويتمّ تشغيل الشبكة بواسطة كابلات تنزلق فوق بكرات وتلتفّ حول رافعة رحوية. ويكون عدد الصواري مساوياً لعدد أضلاع الشبكة وينزلق كابل رئيس معقود على كل زاوية من زوايا الشبكة، فوق بكرة مثبتة على رأس كل صار، ويلتف حول رحوية.

يُعتبَر الترابوكو القائم عند رأس مناكوري من أضخم الأنواع على الساحل الأدرياتيكي: له سبعة صوارٍ ضخمة وشبكة ذات سبعة أضلاع ويعمل عليه اثنا عشر رجلاً.

حين تكون الشبكة غارقة - أي فخّ السمك منصوباً- يلامس واحد من الأضلاع السبعة القاع الصخري ويمتد اثنان من الجانبين بشكل مائل وتبقى الأربعة الأخرى على سطح الماء.

وعلى هذا النحو تكون الشبكة مفتوحة داخل المياه عند بدء الصيد على شكل فك. وحين تشد الرافعات الرحوية الكابلات، فإن القسم المغمور بالمياه يرتفع نحو السطح: فينغلق الفك.

تعمل الرافعات الرحوية بقوة أذرع الرجال دون الاستعانة بمحرك. ويتولى الرجال عملية الضغط على أذرع الرافعات وهم يدورون حولها بمشية دائرية، مثلما كانت الخيول تدير، وهي معصوبة الأعين، رحى الطواحين والمعاصر القديمة. فتنزلق الكابلات على البكرات، وينغلق الفك العملاق بسرعة، تزيد أو تنقص، تبعاً لسرعة دوران الرجال بأذرع الرحوية.

يتولى أحد الرجال عملية الرصد. وهو إمّا أن يكون واقفاً فوق منتصف الصاري المركزي ويداه متشبثتان بحبل من القنب، أو راكباً عليه والجذع مائل إلى الأمام مثل فارس يمضي خبباً. ويمكث معلقاً على هذا النحو عمودياً على مركز الشبكة وبعيداً عن سطح الماء مسافة عشرين متراً. والبحر شفاف كما ليس إلا في الجنوب، فوق قاع صخري داخل خليج هادئ. وهكذا يميّز الراصد تمييزاً واضحاً، تفاصيل الأعماق كلّها. فنظره يشمل جوف الشبكة بأكمله، وعمقَ البحر داخل الشدق المفتوح وخارجه. إنّه يرصد. وحين يلمح سرباً من الأسماك متوجّهاً نحو الشبكة فإنّه يوجه الإنذار، فيسرع أفراد الطاقم الأرضي لاحتلال مراكزهم حول الرافعات الرحوية. وهو بانتظار ذلك يجد الوقت الكافي لمتابعة حركة الرخويات البحرية في زحفها البطيء وتنقّل نجوم البحر وعبث أسماك السلطان إبراهيم فوق سطح الصخور.

إنّ صيد السمك بواسطة الترابوكو صيد بالعين المجردة.

إنّ الصواري السبعة الكبيرة المنبسطة فوق البحر على شكل مروحة، مشدودة بكابلات تتدلى إلى الأسفل مربوطة بحجارة كبيرة، ومشدودة إلى الشاطئ بكابلات أخرى مربوطة بأعمدة. وتتصل حبال من القنب برؤوس الصواري فتشد الواحد عن الآخر لتبقيها متباعدة فيما بينها على الدوام. وهنالك أمراس لها مهام ثانوية، تُربَط بملقافة عملاقة يتطلّب تحريكها تضافر أربعة أذرع. وتتقاطع الكابلات والحبال والأمراس وتتشابك بألف شكل واتجاه مشكلة ما يشبه شبكة ثانية معلقة في الهواء، كأنّها انعكاس لشبكة الأسماك المغمورة بالماء، فاغرة شدقها الضخم.

ويتخطى الترابوكو الحدود على الشاطئ: فهنالك أبنية شيّدت على شكل قباب يلجأ إليها الصيادون أيام الطقس العاصف، تُستخدَم مستودعاتٍ لصناديق الأسماك، وهناك مساطب للرافعات والأعمدة الخشبية والأوتاد ومرابط من الاسمنت. بالإضافة إلى شرفة دائرية من الخشب معلقة حول صخور الرأس، على ارتفاع عشرين متراً فوق سطح البحر، مذكّرة من حيث شكلها بمؤخرات السفن القديمة.

وتشير النصوص اليونانية واللاتينية، إلى وجود آلات صيد عملاقة، في ذلك الجزء من الساحل الأدرياتيكي، تنطبق أوصافها على أوصاف الترابوكو. ويعود بعض التقنيين في أصله إلى الفريجيين. ويقول آخرون بل إلى البيلاجيين. ومن المحتمل أن يكون معاصراً لاختراع الشبكة والبكرة والرافعة الرحوية.

يطرأ على الترابوكو في كل عام تجديد بسيط. إذ يقوم الصيادون بعد العواصف الكبرى، باستبدال صارٍ أو تغيير كابل. لكنْ لا تتغير فيه الآلية ولا يتغير منه الشكل. فهو مختلف في كل عام وهو دوماً على حاله، مثله مثل الكائن الذي يشيخ ويظلّ مماثلاً لذاته. ولا ريب في أنّ الترابوكو قائم هنالك منذ مئات، بل آلاف السنين.

ينحدر فرانشيسكو الآن راكضاً من قمة اللسان عبر غابة الصنوبر.

تقع المغارة التي ضربت دونا لوكريزيا له موعداً فيها عند نهاية الجُوَيْن المجاور للرأس مباشرة. ويطلّ مدخلها على شاطئ صغير يتوجّه بشكل معاكس لموقع الترابوكو، في مأمن من مراقبة الصيادين، كما تحجبه عن عين الراصد كتلة الصخور التي تقع المغارة داخلها.

ويتم الوصول إلى الشاطئ الصغير عن طريق تجويف في غابة الصنوبر، هو مجرى سيل شتوي.

نزل فرانشيسكو نحو الجُوَيْن راكضاً. ورأى أنّ اختيار لوكريزيا غير معقول. فهي اختارت من بين كل مغاور الشاطئ، أقرب مغارة إلى الترابوكو، أي تلك التي تتطلب أطول مسيرة تحت الشمس، أي تلك التي يُخشى عليهما فيها من افتضاح أمرهما أكثر من غيرها. لقد شاهد وهو نازل بين الصنوبر نحو الجُوَيْن عدداً من الصيادين، الذين لا يسعهم رؤيته لأنّ الصنوبر يحجبه. ومع ذلك فمن غير المعقول الاقتراب منهم إلى هذا الحد. فقام أحياناً بالتخفيف من سرعة خطاه، بل قد همّ بالعودة على أعقابه. لكنّه وجد نفسه قد قطع مسافة طويلة وأصبح الآن على المنحدر الهيّن، فرضخ.

يبدو الترابوكو من المكان الذي يقف فيه فرانشيسكو الآن، أشبه ما يكون بآلات الحرب في العهود الغابرة، على نحو ما هو معروض في رسوم الأكاديميات. إنّها آلة حرب جبارة منصوبة على رأس اللسان الممتد في البحر، ومصوبة نحو رتل الغيوم التي يدفع بها الليبيشيو فتحجب الأفق.

أمّا دونا لوكريزيا فهي متأخرة قليلاً عن حبيبها. إنّها تسير بخطى كبيرة وواثقة فوق درب الشاطئ الصخري، تحجبها الشجيرات عن الأنظار.

لقد اختارت تلك المغارة تحديداً دون غيرها لأنّها تعرف اسمها، فهي تدعى مغارة التوسكانيين، مُذْ أن قَدِم علماء الآثار من بيتزا، فقاموا فيها بعمليات حفر وتنقيب. وقد افترضوا أنّها استُخدمت ملجأً للبحارة الإغريق من قبل تأسيس مرفأ أوريا. وكانوا يُمنّون النفس بالعثور على أوان أو نقود وأدوات. فلم يعثروا إلا على القليل من العظام. لقد حضرت لوكريزيا إلى

المغارة بصحبة زوجها ودون سيزار، حين كان التوسكانيون يقومون بحفرياتهم. تحدثوا آنذاك عن بوليفيم وعن أوليس. كان ذلك بعد زواجهما مباشرة وكانا إذ ذاك يهتمان بتلك الأمور.

أمّا المغاور الأخرى فهي بلا أسماء، بالنسبة لدونا لوكريزيا على الأقل. فلم تشأ أن تخاطر بجعل فرانشيسكو ينتظرها في مغارة، في حين تنتظره هي داخل أخرى... لذا فقد كتبت: «مغارة التوسكانيين قرب الترابوكو، تلك التي قام فيها علماء الآثار بعمليات التنقيب». ثم وضعت خطاً تحت عبارة «قرب الترابوكو»، وخطين تحت «تلك التي قام فيها علماء الآثار بعمليات التنقيب». وهذه أيضاً عادة اكتسبتها من زوجها بوضع خط تحت الكلمات الهامة، لكنّها تتلاءم وميلها إلى الإيضاح الدقيق. ثم أغلقت الرسالة وسلمتها إلى جوزبينا.

* * *

كان فرانشيسكو الواصل الأول إلى الشاطئ الصغير عند نهاية الجوين. وبما أن مجرى السيل ينتهي بشكل شديد الوعورة، فقد اضطر لنزول الأمتار المئة الأخيرة مواجهاً للجبل، بحذر شديد مع الانتباه إلى موطئ قدميه، كأنّما يهبط على عوارض سلم خشبي، مستنداً بيده إلى جوانب الصخور البارزة، ومتشبثاً بأغصان نباتات الكابر. وغمغم قائلاً: «لست من متسلقي الجبال». ثم ابتسم ابتسامة ماكرة حين فكّر في أنّ دونا لوكريزيا مرغمة بدورها على المرور من هناك. ثم لامَ نفسَه على ذلك الخبث الذي لا يليق بهواه.

ذلك الشاطئ الصغير لا يتجاوز خمسين خطوة طولاً وخمس عشرة في العمق. وإذا ما أبحر المرء في زورق ما بمحاذاة الشاطىء، فإنّه لا يتبيّنه ما لم يعرف مكانه مسبقاً. إنْ هو إلا حزامٌ رقيقٌ من الرمل الأبيض محصور بالكتلة الصخرية في نهاية الجوين.

يُعتبر مدخل المغارة ضخماً إذا ما قورن بمساحة ذلك الشاطئ. فهو يحتلّ جانب الجُوَيْن بأكمله من الجهة المعاكسة لجانب الترابوكو، وكأنّه فم الشاطئ الصخري. بل هو الشاطئ فاغراً شدقيه.

ورأى فرانشيسكو أن نظرة يلقيها رجل واقف مثله على الشاطئ يمكن أن تمسح داخل المغارة مسحاً تاماً. وتذكر أنّه يعرف مغاور أخرى أكثر تستراً. ولا بدّ أن دونا لوكريزيا لم تتمتع بالحس السليم حين اختارت هذا الحلق المفتوح للعيون على مصراعيه. إذ ليس مستبعداً مرور زورق على مقربة من الشاطئ.

ولم يكتشف إلا حين دخل المغارة وجود أعماق جديدة فيها وتجاويف معتمة. ولا بدّ لعينيه أولاً من أن تألفا العتمة.

أرض المغارة غير مستوية، وهي من جهة اليسار وعرة وملأى بعثرات ونتوءات وشُعَفٍ وسطيحات، ومضاءة إضاءة باهتة، كأنّ بصيصاً من نور يتسرّب إليها من قلب الصخر. أمّا من ناحية اليمين فالأرض جوفاء تكشف عن قاعة ثانية محفورة بعمق داخل أحشاء لسان الجبل، مغلقة من الأعلى بقبة من الصخور مشوّشة الأشكال، أمّا قمّتها فتضيع في الظلمة. وتشاهَد أبعد قليلاً فتحةُ قاعة ثالثة عند نهاية خندق حفرَهُ المنقّبون التوسكانيون.

وقف فرانشيسكو في صدر القاعة الأولى واستدار نحو الضوء. شاهد الخليج بأكمله وقد ظهر عبر الفوهة المسننة، غارقاً فيما يشبه الضباب الناجم عن انعكاسات الشمس، كما رأى البرزخ وبساتين الزيتون العائدة لدون سيزار، وأسطحة بورتومناكوري البيضاء يعلوها دير القديسة أورسولا بنت أوريا، ثمّ الشاطئ وبساتين البرتقال والليمون. ومن قلب هذا الضباب الحار سوف تنبثق دونا لوكريزيا.

كان جوّ المغارة بارداً. فأرضها رطبة وغير ثابتة تحت الأقدام. وتنبعث من الجدران رائحة مريبة.

اتجه فرانشيسكو نحو اليسار منجذباً بخيط النور الذي يبدو متسرّباً من بين الصخور. فتسلّق النتوءات والعوائق الناشزة ليبلغ بروزاً ينتهي بسطح صغير جداً. وعندها اكتشف تجويفاً في الجدار الصخري، كان ينبعث منه النور.

وقعت عيناه من تلك الفتحة، الواقعة في نهاية المغارة الى اليسار وأعلى من سطح البحر بقليل، على الترابوكو. إنّه قائم على مئتين أو ثلاث مئة متر منه. لقد شاهد من الأسفل مروحة الصواري المنبسطة فوق البحر ومعها آلية الكابلات والحبال والأمراس. بدا الرجل الراصد واقفاً على منتصف الصاري الأوسط وذراعاه متصالبان حول حبل الدعم، ورأسه مائل إلى الأمام، متنبّهاً لكل ما يجري في أعماق المياه.

كما شاهد مساعدَيْ نوتيين جالسين القرفصاء، فوق الشرفة الخشبية التي تطوّق صخور الرأس، وهما يرصدان أيضاً قاع البحر. أمّا باقي رجال الطاقم فهم وقوف قريباً من الرافعات الرحوية في حالة من الترقّب.

كان بوسع فرانشيسكو الاعتقاد بأنّ الراصد ومساعدَيْ النوتيين بوجوههم المائلة نحو البحر، أي في اتجاهه، إنّما يراقبونه. لكنّه يعرف أنّهم لا يستطيعون رؤيته لأنّهم واقعون تحت إشعاع شمس الأسد بينما يقف هو في عتمة المغارة.

كان يُشاهَد تحت قدمي الرجل الراصد، خيطٌ متدلٍ ينتهي بشيء ما يتحرّك داخل الماء. وتبعاً لحركة هذا الشيء المتنقّل في الماء يميل الخيط عن وضعه العمودي يميناً ويساراً، ويرسم فوق صفحة الماء دوائر وأهاليج وزركشات، ثم يعود الى نقطة مسقطه تحت قدمي الرجل الراصد ليبتعد من جديد وهكذا.

لقد تردد فرانشيسكو إلى الترابوكو مراراً وتكراراً، فأدرك على الفور حقيقة ما يجري الآن.

إنّهم الآن يمارسون الصيد بالبوري الداعي. وتلك واحدة من طرائق الصيد العديدة التي تُزاول من أعلى الجَيّاب الأرضي. لكنّها دون شك الطريقة الأكثر سحرا، حتى لتأخذ بمجامع القلوب. لذا فقد أولاها فرانشيسكو كل انتباهه.

لا ريب في أن الحظ حالف الصيادين صباحاً أو بالأمس فوجدوا داخل شباكهم واحداً من تلك الأسماك التي تسمى البــرذون بالإيطاليــة والفرنــسية والبغل (البوري) على شواطئ المتوسط والمحيط الأطلسي.

أسماك البغل هذه تتجاذب فيما بينها. فتكمن الـصعوبة الوحيــدة فــي الإمساك بالأول. ويا لحسنِ الطالع إذا كان سميناً قوياً، مليئاً بالحيــاة، مليئــاً بـــ«الدعاء». هذا البغل الأول الذي يطلقون عليه اسم «الداعي»، يعيدونه إلى البحر مربوطاً بخيط طويل، بحيث يسمح له بالتنقل بحريــة داخــل الــشبكة، وقصير بحيث يمنعه من الاقتراب من الجدران الصخرية.

سبق لفرانشيسكو بريغانتي أن توجّه مثل باقي الفتيان في مناكوري مرات عديدة إلى الترابوكو وهو قادر على أن يتخيّل بدقة تامة حقيقة ما يجري الآن.

إنّ بغلاً آخرسيبرز فجأة (إن لم يكن قد برز فعلاً) لينضمّ إلــى البغــل الأول المربوط، إلى «الداعي»، فيلتصق به متأخّراً شيئاً ما إلى الوراء، بحيث يصبح رأسه على سوية زعانفه الظهرية، تماماً كمــا يحــدث أثنــاء سـباق الدراجات حين يقوم راكب متسابق بإلصاق عجلته الأمامية بالعجلــة الخلفيــة للراكب الذي يسبقه. وسوف يقوم البغل الثاني برسم الدوائر نفسها والأهــاليج والزخارف والتعرّجات التي يرسمها الداعي غائصاً وراءه نحــو الــصخور السفلى، راجعاً للتوقف عند مسقط الخيط تحت قدمي الراصد، مخففاً السرعة، ثم منطلقاً مثله، إنّه ملتصق به.

ثم يبرز بغل ثالث فينضم إلى الرتل ملتصقاً بالثاني ورأسه على ســوية الزعنفة الظهرية، ثم يبرز رابع فخامس، ففصيلٌ كامل من البغال المتــسابقة، ملتصقة عجلة بعجلة، سالكة خط الــداعي ، راســمة، بــلا نهايــة، الــدوائر والأهاليج والزخارف والتعرجات نفسها.

أمّا الرجل الراصد فعليه أن يعرف ليقرّر، مكثفاً في حكم كلمح البصر، كل تجربته صيادَ ترابوكو، متى عليه أن يصيح «شُدّوا، هيّا، شُــدّوا» ولــيس

قبل أن يكون المتأخرون كلّهم قد انضموا إلى الفصيل – لكن أنّى له أن يعرف كم سيكون عدد أفراد الفصيل الكامل؟- وليس بعد أن يكون الداعي الذي أُرهِق من جري بلا طائل قد جاء ليستسلم فجأة عند طرف الشبكة، بلا حياة، تحت أقدام الرجل الراصد، وعندها سيتبدد شمل الفصيل كلّه، بحيث لا يصيح الرجل «شُدّوا هيا، شُدّوا» إلا وتكون الأسماك كلّها قد أصبحت خارج الشبكة.

كان فرانشيسكو يتابع باهتمام تحرّكات خيط الداعي، عبر التجويف الذي حفرته في قلب الصخر أمواج الشتاء. تُرى كم يبلغ عدد أسماك الفصيل؟ وحاول بعيون الخيال أن يرى الأسماك السوداء الضخمة اللامعة ذات الرأس الأبطح والفك العريض، حيث يوحي الخط الأبيض فوق رأسه بأنّ له شفة مقلوبة. وتحرك رأس فرانشيسكو من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين مثلما كان يتحرك رأس الرجل الراصد ورأس مساعدَيْ الذوتيين وهم يتابعون باهتمام بالغ حركات الداعي. ألم ينتظر الرجل الراصد أكثر مما ينبغي؟

أدرك فرانشيسكو أنّه يفضل لو كان فوق الترابوكو يتابع حركات فصيل الأسماك، خافق القلب، حابساً أنفاسه بانتظارسماع الصيحة التي ستجعل شدق الشبكة ينغلق. وكيف سيندفع الرجال إلى الرافعات الرحوية ليقوم هو بمساعدتهم، بدلاً من الانتظار في هذه المغارة الى حين مجئ عشيقته.

ثم استبعد هذه الفكرة على الفور لأنّها غير جديرة بتلك العاطفة التي تملأ نفسه اعتزازاً.

تراجع من مكانه، واستدار. إنّها دونا لوكريزيا. ها هي تمشي على رمال الشاطئ الصغير، رشيقة، ممشوقة القوام في ثوبها ذي الياقة العالية والأكمام الطويلة، غارقة في أشعّة شمس الأسد. ودخلت المغارة. ها هما وجهاً لوجه عند المدخل غارقين في انعكاسات أشعّة الشمس على البحر، وارتدادها عن رمال الشاطئ الصغير البيضاء.

تفرّس كل منهما في وجه الآخر بصمت.

كان فرانشيسكو يرتدي بنطالاً من الكتّان الأزرق، ضيقاً من الأسفل، ذا درزات كبيرة ظاهرة على الوركين، بخيط أبيض، على طــراز الكــاوبوي، ويلبس قميصاً من أحدث طراز صيفي، بلا زر علوي عند الياقة، فما من أحــد يضع ربطة عنق على شاطئ البحر، لكنّه مغلق مع ذلك بواسطة شــكل مــن أشكال الصدرة حسب طراز عصور الازدهار الخوالي. أمّا الكُمّان الطــويلان فمشموران ومرفوعان إلى ما فوق المرفقين، بدافع من الإهمال المتعمّد.

جال في خاطر دونا لوكريزيا أنّهما حين يصيران معاً في إيطاليا الشمالية، عمّا قريب، ستجد لزاماً عليها أن تجعله يتخلى عن عادة ملاحقة أحدث طراز في الملابس، والابتعاد عن آخر موضة ظهرت في نابولي بشكل خاص.

أمّا هو فقد استبدّ به الغمّ. إذ جال في خاطره أنّها المرة الأولــى التــي يجد فيها نفسه مع عشيقته في مكان ناءٍ ومعزول، وأنّ عليه أن يحتويها بــين ذراعيه فيغمرها بالقبل. لكنّها تنظر إليه ساكنة صامتة. وفي أكمل لباس لهــا. فما عليه أن يفعل؟ وما هو واجبه؟

قال:

- كنت أشاهد الترابوكو.

- وكيف أمكن لك أن تشاهد الترابوكو؟

- رؤيته ممكنة من هناك، في الأعلى.

فسألته قائلة:

- وهم، ألا يسعهم مشاهدتنا؟

- وأنّى لهم أن يشاهدونا؟

- هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

فأجابها:

- كلا.

كان واقفاً تجاهها. ناظراً إليها بعينيه الكبيرتين الطافيتين على صفحة محياه.

امتلأت نفسها بالرضى حين رأت أنّه ليس مثــل بــاقي الرجــال فــي الجنوب، الذين تلتهب نظراتهم فوراً حين يكونون فــي حــضرة امــرأة. وإذا كانت في موقف عجزٍ عن حماية نفسها، صارت النظرة صلفاء متعجرفة.

تخيلته في إحدى صالات تورينو، فبدت راضية عن طبعــه المــتحفّظ المغاير تماماً لكل ما هو جنوبي (إلا في لباسه) حتى ليحسبه المرء إنكليزياً.

أمّا بالنسبة له، فقد بات ذلك الصمت الطويل، وتلك السكينة، أشياء تفوق الاحتمال. إنّه مقصّر في أداء واجبه. إذ لم يجرؤ على أن يضمّ حبيبته إليه.

قال:

- إنّهم يصطادون سمك البوري بواسطة الداعي.

فقالت مستفسرة:

- بواسطة الداعي؟

فشرح لها كيفية الصيد عن طريق الداعي. كان صوته خفيفــاً. حــسن الوقع. هادئاً. يصوغ كلامه بعبارات وجيزة، تتخللها فترات صمت.

خطر على بالها زوجها القاضي اليساندرو، الذي لا يعبأ إلا بالمجادلات الفكرية، والأفكار العامة، وأبطال الأزمنة الغابرة. أمّا فرانشيسكو فيتحدّث عن طريقة تقنية، بكل هدوء ومعرفة تامة بالوقائع، إنّه رجل حقيقــي. تخيّلتــه ذا مهارات يدوية عالية (في حين أنّه ليس كذلك).

فكّر من جانبه في أنّ واجبه رجلاً يقتضي أن يضمّها بين ذراعيــه وأن يلقي بها أرضاً وأن يحتضنها. لكنّ أرض المغارة مبللة وفيها خطــوط مــن العفن. وهو لا يجرؤعلى أن يجعل الحسناء الفارعة بحلّتها البهيّة تستلقي على الأرض، كماأربكته فكرة الثوب الملطّخ.

صاح الرجل الراصد:

- شدّوا! هيا! شدّوا!

وطرقت الصيحة التي أطلقها بملء فيه مسامعهما داخل المغارة.

قال:

- إنّهم يسحبون الشبكة.

كانت تقف تجاهه، لكنّها أبعد من أن تطالها يده. ولم تتحرّك كأنّما كانت تريد أن تظل بعيدة لتراه بشكل أفضل.

قال في نفسه: «إنّها لا تساعدني».

وسألها:

- هل تريدين أن تريهم؟ فالمشهد ممتع حقاً.

فكرت في نفسها: «ألا كم هو رقيق!».

ثم قالت:

- أريد مشاهدتهم بكل تأكيد. ولا بد أن يكون ذلك في غاية الروعة.

فأمسك بيدها ليساعدها على تسلّق العوائق لبلوغ التجويف الذي حفرته عواصف الشتاء في الجدار الصخري.

سألها:

- ألم تشاهدي قط عملية صيد بالترابوكو؟

فأجابت:

- من بعيد فقط .

وجلس داخل تجويف الصخرة. فيما وقفت بالقرب منه.

قال:

- رأيتهم مرة وقد اصطادوا خمس مئة كيلو من السمك في رفعة واحدة.

- لا شك في أنّهم كانوا سعداء جداً.

- لكنّ هذا نادرُ الوقوع.

إنّ وضعيتهما الحالية لاتيسّر لدونا لوكريزيا أن ترى طريقـة تـشغيل الترابوكو. فهي واقفة وفرانشيسكو جالس. اقتربت كي لايظنّ أنّها غير مبالية بمآثر الصيادين. فأسندت فخذها الطويل إلى كتف الشاب.

كان طول البروز داخل الصخرة أكبر من عرضه. فهو بطـول جـسم متمدد وبعرض جسمين راقدين جنباً إلى جنب. أمّا أرضه فمفتتـة ومـستوية نتيجة حتّ البحر في فصل الشتاء. وفكر فرانشيسكو قائلاً: «لابد لي مـن أن أحتضنها هنا».

وظهرت على صفحة ذاكرته أحاديث الطلاب، حول كيفية العمل لجذب انتباه المرأة، وكيف يجري إعدادها للمتعة، كيما تغمها النشوة.

خشي أن يقصّر في تلبية تلك الالتزامات كلّها.

كرّر الرجل الراصد بلهجة أكثر فأكثر إلحاحاً:

- شُدّوا! هيا! شُدّوا!

دارالصيادون حول الرافعات الرحوية وأيديهم تشد أذرعها، فالبعض يدور في اتجاه عقّارب الساعة والبعض الأخر يدور في اتجاه معاكس، تبعاً للروافع.

طوّق فرنشيسكو ركبتي لوكريزيا... بذراعه فضمهما إليه وشد عليهما.

أزاحت لوكريزيا... ذراع الشاب وقالت:

- لا تتحرّك.

ومدّت يدها إلى رأسه وجذبته إلى عطفها.

ثم كرّرت قولها:

- لا تتحرّك.

بدا مساعدا النوتيين وهما يتململان من على الشرفة الخشبية. فتـرتعش أطرافهما وهما يصيحان مع الراصد بإيقاع واحد: «شُدّوا! هيا، شُدّوا!».

علا صرير البكرات وصريف الكابلات وحفيف الحبال. فترتفع الشبكة فوق سطح الماء بكل بطء. وينخرط أفراد الطاقم كلّهم في الهتاف:

- شُدّوا هيا، شُدّوا!

أصبحت كافة أطراف الشبكة عالية فوق الماء، أمّا حِملُها من السمك فلمّا يطفُ على السطح.

أسندت لوكريزيا رأس الشاب إلى أحد عطفيها.

وتردد فرانشيسكو في تطويق ركبتي عشيقته مجدداً. فذراعه التي ابعدتها عنها تربكه، ولم يجرؤ على البحث عن وضعية أكثر راحة. «لو أنا تحرّكت لآعتقدت أنّني أُزيحها عني انتقاماً».

أخذت تمسح على صدغيه وجبينه بملامسة خفيفة جداً. ولم يتخيّل أنّ التعبير عن نار العواطف المتأججة يكون على هذه الشاكلة. كما لم يكفّ عن التفكير في التزاماته فأغمض عينيه.

مرّت بكفها مروراً خفيفاً على العينين المغمضتين وعلى الجفنين.

شدّها إليه مجدّداً برفق. فلم تبعد الذراع عنها. ولم يشعر أنّه ملزم، بفضل ذلك الفيض من الحنان، بـ «الإفادة من التفوّق الحاصل لتحقيق مكاسب أكبر على الأرض»، على حد تعبير رفاقه في الجامعة.

لبثا وقتاً لا بأس به على تلك الحال.

قالت لوكروزيا:

- أنت لست مثل الآخرين. فهم لا يفكّرون إلا في دناءاتهم. ألا كمْ أحبك لأنّك صبور في معاملتك لي. أحبك يا فرانشيسكو.

فاستند برأسه الى عطف المرأة القويّة، إلى عشيقته الحنون. الى الكلمات المريحة الطليقة التي تجيد التفوّه بها. أودع رأسه في رعاية يد لوكريزيا الملساء لتمسح عليه بخفة ونعومة. أودعه في دفء حضنها. وأحسّ بانحلال عقدة الشقاء الكامن كلّه في أعماق ذاته.

توقف طاقم الترابوكو عن تدوير الرافعات. فقعرُ الشبكة صار الآن طافياً على وجه الماء. واندفعت الأسماك الكبيرة، وهي ترى مياه الموجة الأخيرة تغور من تحتها، لتؤدي قفزات كبرى فتصطدم بجانب الشبكة المرفوعة. كانت تتلوى في الهواء فيسقط بعضها فوق البعض الأخر وسط حفيف جلودها اللامعة وزعانفها الخفاقة. أخذ الرجال يجففون عرقهم، وعيونهم تقدّر كمية الصيد وتخمّن الربح. بينما بدأ مساعدا النوتيين بتحريك المنزفة العملاقة.

كان مشهد شبكة الترابوكو فيما مضى، وهي ترتفع من قاع البحر، متعة ما بعدها متعة في نظر فرانشيسكو. لقد ارتعش جسده وهو يافع، واهتزّ وهو منهمك بالصياح مع مساعدي النوتيين «شدوا!هيا، شدوا!». أمّا حين صار فتى فقد شارك مشاركة فعلية في تدوير الرافعات مبادراً لأخذ مكان بحار هدّه التعب، ضاغطاً بكل قوته ووزنه على أذرع الرافعة.

أمّا اليوم، فها هو يغمض عينيه مستسلماً لدفء لوكريزيا، دفء الحسناء الممشوقة وهي تحتضن محيّاه. وطرقت مسامعه جلبة الأسماك الضخمة وهي تتخابط وتتلاطم على جوانب الشبكة، فلم يكلّف نفسه عناء شقّ جفنيه. لقد بات الآن رجلاً. فانقطعت الأواصر ما بينه وبين عصبة الفتيان الأبطال وألعابهم العفيفة والعنيفة كلّها. لقد تخلّى واستسلم.

إنّ الصبي الذي تعلّم أن يكون رابط الجأش في «حضرة» والده ماتيو بريغانتي، مسيطراً على حركاته كلّها وكلماته وحتى على تعابير نظراته، إنّ خريج تلك المدرسة الرهيبة، يرخي العنان لنفسه الآن فتنحلّ عقدة لسانه، وتنطلق كلماته على سجيتها، غير خاضعة لغرض أو سلطان.

بدأت كلماته هامسة:

– يا قديسة مريم، يا أم الابن الحبيب...

وانحلّت عقدة إثنين وعشرين عاماً من الشقاء.

- يا دونا لوكريزيا، أنا أحبك، إيه كم أنا أحبك.....

فقالت بدورها: «أحبك يا فرانشيسكو» وضمّت رأس الشاب بقوة الى كبدها. وكرّرت القول مرات عديدة حتى صار يخاطبها دونما حرج.

- لوكريزيا، أحبك .

كان مغمض العينين، بعيداً في تفكيره عن أي نوع من الالتزام لأول مرة في حياته. مثل رجل بين ذراعي عشيقته.

ظلاّ وقتاً طويلاً على ذلك النحو دونما الإتيان بأية حركة، صامتين أو مرددين الكلمات ذاتها. وحين فتح عينيه ثانية رأى الشبكة مغمورة بالماء من جديد، والرجل الراصد راكباً فوق الصاري الرئيس.

قال لها:

- تلقيت الردّ من مدير الشركة في تورينو.

وأعطى لوكريزيا الرسالة التي دارت حولها استفسارات أبيه لتقرأها. لقد قبل المدير بتوظيفه بناء على المواصفات التي ذكرها له وكيل الشركة في نابولي.

لكنّه أبدى رغبة في رؤيته مقدّماً، وطلب إليه الاستفادة من إجازته الصيفية والحضور لمقابلته. وبوسع الشاب، إذا ما تم الاتفاق، البدء بالعمل في شهر تشرين الأول ومتابعة دراسته في الوقت ذاته في جامعة تورينو.

قالت:

- لابدّ من الذهاب.

فأجاب:

- أجل. وبوسعي الإفلات من عند خالي في بينيفان لمدة يومين دون علم والدي. لكن لا مال لديّ للسفر.

لقد أوجس خيفة في السابق من قول ذلك لها. أمّا الآن وقد انحلّت عقدةُ لسانه فبدا الأمر له عادياً جداً.

قالت:

- أمّا أنا فلديّ المال.

تقرّر أن يسافر إلى بينيفان في اليوم التالي. فاتفقا على أن ترسل إليـه المال مساء، في مظروف مغلق، مع جوزبينا.

* * *

عند الظهيرة، جلس ماتيو بريغانتي وبيزاشيو في مكانهما المعهود، على المنصّة الخشبية لمنهل الشاطئ في الهواء الطلق، وأمام كل منهمـا زجاجـة كوكا كولا. كانت الدفوف المتوضّعة فوق دعائم معطوبة، قائمة على الرمـل، ذات طنين أجوف. وحين يخبط المرء بقدمه عليها، يتسرّب من بين المفاصل غبار رمادي، مخلّفاً انطباعاً مزعجاً. فماتيو بريغانتي يفضّل الأرض الـصلبة مثل بلاط منهل نادي الرياضة ورخام المناهل في فوجيـا. إنّ الحيـاة فـي بورتو مناكوري تتمركز شتاءً في الساحة الكبرى. فلا مناص له من ملازمـة منهل نادي الرياضة حيث تتردّد أصداء كل ما يجري في الـساحة الكبـرى. رُبَّ صفقةٍ تعقد مثلا عن طريق إشارة بين رجلين تقابلا فافترقا مـن دون أن يلحظ أحد حدوث لقاء بينهما. ولئنْ تكن أصـداؤها غيـر محـسوسة، فـإنّ بريغانتي يلتقطها ويحسن تفسيرها. فالحال معه في الشتاء أكثر يسراً وسهولة.

أمّا في فصل الصيف، ومن منتصف تموز حتّى نهاية آب، فليس أمامه إلا الانتقال إلى الشاطئ ليقوم بالمراقبة ظهراً من الثانية عشرة وحتى الرابعة عشرة.

تقوم إلى جانب المنهل من كل جهة عشر مقصورات. ويتـولّى مكبّـر للصوت فوق عمود خاص بثّ الأغاني مـن الإذاعـة الإيطاليـة. وتتـوزّع الكراسي والطاولات الحديدية المطليّة بالأخضر على منـصة المنهـل وقـد أصبحت كلّها مشغولة.

الشاطئ طويل وضيق يحدّ الطريق المتعرجة نزولاً من الساحة الكبرى. وتعجّ رماله على مقربة من المرفأ بقوارب الصيد الصغيرة والشباك المنشورة حتى تجف. وينقطع الشاطئ من الناحية الأخرى، في اتجاه اللسان، حين يعترضه جدار استنادي لبستان برتقال كبير يملكه دون أوتافيو. لا يتجاوزعرض الشاطئ عشرين متراً أمّا طوله فيقارب الألف ومئتي متر. ويقع المنهل والمقصورات في الوسط تماماً. أمّا المكبّر فمن النوع الضخم وصوت الإذاعة مسموع على الشاطئ بين كلا الطرفين.

يمتدّ نظر الجالس على منصة المنهل فيشمل ذلك الشريط الرملي الساحلي بأكمله دون عائق. بل يتعداه إلى الخليج كلّه بمياهه الراكدة التي لا تثير اهتمام أحد، ما خلا القسم الواقع بين الضفة والجرف الرملي، فهو بمكانة الحديقة التي يرتع فيها السباحون والقوارب المطاطية ذات الدوّاسات. وما من أحد يرفع نظره نحو الأفق إلا ليتأكد من أنّ الليبيشيو ليس في سبيله لأخذ الغلبة على السيروكو. وإلا، فإنّ رتل الغيوم سيتقدم باتجاه الشاطئ ليصير مطراً حين يلامس قمة الجبل. غير أنّ مثل هذا لمّا يحصل في هذه السنة. أمّا إذا سرّح المرء ناظريه باتجاه رأس لسان مناكوري الذي يغلق الخليج من ناحية الشرق، فإنّه سيميّز هيكل الترابوكو (الذي يبوح بقربه الآن كل من فرانشيسكو بريغانتي ودونيا لوكريزيا بحبه للآخر)، وهو أشبه ما يكون بسفينة كبيرة تتجاوز رأس اللسان. إلا أنّ السباحين في غالبيتهم لا يعبؤون كثيراً بـ الترابوكو.

إنّ ذلك الشاطئ الممتد باستقامة تامة من مكسر الميناء حتى بستان برتقال دون اوتافيو، ممعن في الصغر. والمرء الناظر إليه من صوب البحر لا يميّزه عن جدران الاستناد لبساتين البرتقال والليمون الواصلة حتى الطريق. ومع ذلك فإنّ هذا الشاطئ على صغره يضم ثلاث مجتمعات تتجاور فوقه، ولكل واحد أرضه الخاصة، المحددة بدقة، دون أن نشاهد أي حاجز من أي نوع كان لرسم الحدود.

فبدءاً من المرفأ وحتى مسافة خمسين متراً عن المقصورات، تعود ملكية الرمال لعامة الشعب. إنّ نزول الشعب إلى الشاطئ أمر بالغ الجِدّة. وقد بادرت الى هذا الغزو، بعد الحرب مباشرة، طليعة من الصبية أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، بقيادة معلّم من جنوه، نُقِل إلى مناكوري نقلاً تعسّفياً، فكان يعلِّمهم طريقة الكراول في السباحة، والغطس الفني من أعلى المكسر.

وما لبث أن انضمّ إليهم عدد من الفتيات، بل هي نفس العصبة الطليعية الشجاعة من الفتيات اللواتي تجرأن، وسط الفوضى التي أعقبت الحرب، على ركوب الدراجات رغم تعرّضهن للشتائم الجائرة، ولقذفهن بالحجارة من قِبل الواليوني، بتحريض من الكاهن. لقد فرضن على مناكوري رؤيتهن على دراجات، حقيقةً واقعة، رغم الكلمات الفاحشة المقذعة التي كان يتفوّه بها الرجال، الذين شبّهوا سرج الدرّاجة بكل ما هو مدبّب وشبّهوا الدراجة بكل ما هو قابل لأن يُمتطى، وأيضا رغم حمل لواء المعارضة من قبل معلّم آخر، شيوعي، كان يرى ضرورة الاستيلاء على مقاليد الحكم أولاً والقيام بعد ذلك بإصلاحٍ شامل للعادات، مؤكداً أنّ تطلّع النساء لركوب الدراجات شبيه بتطلّع كلارا زيتكين ودعوتها للحب المتحرّر من كافة القيود، وهو من تطلعات البرجوازية الصغيرة التي أدانها لينين في رسالة شهيرة.

إلا أن هؤلاء الفتيات، بعد قيامهن بغزو عالم الدراجات، تحوّلن بهجومهن نحو الشاطئ. فنزلن بالمايوهات التي ما زلن يلبسنها حتى الآن، والتي ترتفع حتّى الكتفين وتنخفض حتى منتصف الفخذين، بالإضافة إلى صدرية تحت المايوه وتنورة فوقه تنزل من الخصر إلى الفخذين. وتولى الأشقاء مهمة حراستهن طول الفصلين الأولين. فكنتَ تراهم على الطريق يمشون جيئةً وذهاباً وأيديهم في جيوبهم تقبض على الأمواس، في حين كنّ يسبحن أو يستلقين على الرمال تحت الشمس، معتزّاتٍ تحدّياً، ومنتشياتٍ جرأةً.

منذ ذلك الحين وموجة الحرية تتقدم بخطى عملاقة. فأصبحت الأمهات الآن ينزلن إلى الشاطئ مع بناتهن، منحدرات من المدينة القديمة، يجررن وراءهن أولاداً عديدين، متعلقين بأذيالهن. فيتحلّقن مجموعات يثرثرن وهن

جالسات فوق الرمال. وتدفع بهنّ الرغبة أيضاً للنزول أحياناً والاستحمام في البحر وهن الأمهات، فيتقدمن بخطى وجلة وئيدة حتى يبلغ الماء أفخاذهن، وهن بأثوابهنّ الطويلة البيضاء، يتحركن مثنى أو ثلاث، ضاحكات تثبيتاً لحريتهن، لكن بشيء من العصبية، متبادلات الضرب بالأكفّ على الظهور، وأيديهنّ مبللة بالماء تأكيداً على شجاعتهن، وهنّ الأمهات، ململمات باليد الأخرى أطراف الثوب الأبيض لترتفع وتلتف حول الساقين، فينتفخ الثوب عند الأوراك ويخفي بروز أردافهن.

يحتلّ أفراد الشعب إذن من أمهات وفتيات وأولاد ذلك القسم من الشاطئ، الذي يبدأ عند حدود المرفأ (حيث تجف الشباك بين القوارب المسحوبة إلى ما فوق الرمال) وينتهي قبل المقصورات بخمسين متراً تقريباً.

أمّا الرجال من عامة الشعب فلا ينزلون إلى البحر، سواء كانوا منشغلين بأعمالهم أو كانوا عاطلين وباقين في مراكزهم وقوفاً بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى. كما يفضّلون قضاء يوم الأحد في صيد السمك أو اللعب بكرة القدم أو الجلوس في الحانات حيث تجتذبهم لعبة «القانون».

أمّاالرمال الممتدة حتى جانبي المقصورات، فهي خاصة بأعيان بورتو مناكوري وبالمغتربين الأثرياء، القادمين لقضاء إجازتهم فوق أرض الوطن.

وهنالك اتفاق ضمني بترك قسم فارغ، هو بمكانة أرض محايدة تفصل ما بين رمال عامة الشعب ورمال الأعيان.

ترى النساءَ في قسم الأعيان، مستلقياتٍ فوق مقاعد طويلة تحت المظلات، وقد ارتدت الأمهات والزوجات منهنّ الأثواب الخاصة بالشاطئ، أمّا الفتيات فيلبسن مايوه السباحة. ويجلس الرجال فوق منصة المنهل وأمامهم كأس شراب. وبين وقت وآخر ترى هذا أو ذاك منهم وقد نهض وتوجّه ليبادل النساء الحديث، واقفاً قرب الكراسي الطويلة.

إنّ الحياة الاجتماعية على درجة عالية من النشاط في هذه المنطقة، التي لا تمتد إلى أبعد من خمسة أمتار عن كل جانب من المقصورات، والتي

تنقسم داخلياً مع ذلك إلى عدة «أقاليم» تبعاً لكل جماعة وعصبة، وبالإضـــافة لوجود حلقات محصورة وانقسامات فيها انقسامات داخلية، إلى جانب نزعات انضمامية تحت المظلة الواحدة. وذلك عائد للانتمــاءات الـــسياسية والدينيـــة والمعارضة للدين، والأفكار الأكثر أوالأقل «تقدّميـــة» فيمـــا يتعلـــق منهـــا بالعادات، وبكل أنواع الأشياء المتداخلة والمتشابكة مع الظروف الاجتماعيـــة وتلوّناتها التي لا تحصى.

وترى هنالك خمس نساء أو ستاً من عصبة الأفكار الطليعيـــة لابـــسات المايوه مثل الفتيات، وهنّ يسبحن أو يتناولن كأساً من الشراب علـــى منـــصة المنهل إلى جانب أزواجهن. فيما النساء الأخريات ينظـــرن إلـــيهن بغيـــرة أو بازدراء، فالنظرة تابعة للمفهوم الذي يحملنه عن الأخلاق والعادات والتقدم.

ويبقى من الشاطئ قسمه الثالث المنتهي بجدار الاستناد لبستان برتقـــال دون اوتافيو، وهو من نصيب المصطافين، من عائلات المستخدمين والتجـــار القادمين من مدينة فوجيا، ومن نساء موثقي العقـــود والمحـــامين والـــصيادلة وأطفالهم المقيمين في المدن الجبلية الصغيرة. إنّ هؤلاء ليفضّلون التوجّه إلى الشواطئ الحقيقية، المدونة أسماؤها في أدلّة المنتجعـــات البحريـــة الـــشهيرة. حيث تتاح للمرء رؤية الأجانب بالثياب القصيرة وهم يرقصون في المنتديات الليلية. لكنّ كلفتها الباهظة جداً تجعلهم ساخطين، لا سيّما الفتيات. وعلى هـــذا تراهم يتجمّعون هنا تجمّعات عائلية أو عشائرية، فيتعرّون تحت خيام رقيقـــة من الكتان أو في سياراتهم المصطفة على حافة الطريـــق. ويمكـــن تـــصنيف هؤلاء قوماً رحّلاً بلا مراتب أو طبقات اجتماعية، غرباء عن حيـــاة بورتـــو مناكوري. إنّهم حادث صيف ليس إلا.

ويملك دون اوتافيو شاطئاً خاصاً، فيه قليل من الرمل الأبـــيض يحـــيط بجَوْنٍ عند نهاية بستان البرتقال. لكنّه لا يتوجّه إليه البتة.

ويروح أبناء الأعيان ويغدون على الطريق راكبين دراجـــاتهم الناريـــة ممعنين بحثاً وتفتيشاً عن مصطافة تقبل بأن تصحبتهم في جولة. إلا أنّهـــم لا يقعـــون عليها إطلاقاً. ذلك أنّ المصطافات أيضاً لهنّ أمهات وأخوة وأخوات وخاطبون.

أمّا الفئة الوحيدة التي تقطع الشاطئ من أقصاه إلى أقصاه غير عابئة بالحدود، والتي يطأ أفرادها رمال المناطق الثلاث دونما تمييز، عابرين ركضاً، باحثين عن غنيمة ما، فهي فئة الواليوني.

وترى على الدرب الذي يحدّ الشاطىء، رجال الشرطة البلدية وهم في حركة د ائبة، ذهاباً وإياباً، وعيونهم على الواليوني.

وتشاهَد هنالك سياراتُ الأجانب الكبيرة عابرة. لأنّهم لا يتوقفون عند هذا الشاطئ الذي يعجّ بالايطاليين. بل يتابعون السير بعيداً، متجاوزين شيافوني نحو الأجوان والخلجان الصخرية التي يأملون في أن يجدوها خالية. لكنّهم يقعون عندها على مخيمات الألمان والسويديين والسويسريين وجميع أبناء الأقوام الشمالية، القادمين بحثاً عن السماء الزرقاء والذكريات الرومنسية وأربع ساعات من الاستحمام يومياً وعن بشرات محمرّة مقليّة، متشققة من لفح الشمس. وإنّ قدرة المرء على أن ينعم بالعزلة باتت ترفاً يزداد ندرة فوق أرض رجال منصرفين لصنع الأطفال.

في تمام الثانية عشرة والنصف، أوقف المفوّض أتيليو سيارته الألف ومئة مقابل الشاطئ، وإلى جانبه زوجته آنا بينما احتلّت جوزيبينا المقعد الخلفي بجانب الأولاد الثلاثة. نزلت المرأتان والأولاد. أمّا المفوّض فقد استدار بالسيارة في نفس المكان فتقدّم خطوتين وتراجع خطوتين والعجلات متوجّهة الجهة السليمة بدقة، ثم صفّ السيارة على مستوى المنحدر تماماً. فيا له من رجل. وبدوره ترجّل من السيارة.

حين رآه بيزاشيو أعلن قائلاً:

- المفوّض قادم إلى الشاطئ.

من النادر رؤية المفوّض على الشاطئ، في غير يوم الأحد. وهذا ما دعا بيزاشيو الى الإعلان عن قدومه.

دخلت آنا وجوزيبينا والأولاد المقصورة المستأجرة طول فصل الصيف وأغلقوا على أنفسهم الباب. وتخلّف المفوّض عنهم قليلاً فوقف على منصة

المنهل وأخذ يتنقّل بين طاولة وأخرى وهو يتحدث مع أصدقائه. وحيّاه بريغانتي عن بعد بحركة من رأسه. فردّ له التحية من غير أن ينظر إليه، فرفع يده حتى مستوى كتفه فقط، دونما زيادة. فهما لا يُظهِران علناً مدى الصداقة المتينة التي تربط بينهما في واقع الأمر.

كان ماتيوبريغانتي يمعِن التفكير في فحوى التقرير الذي رفعه إليه بيزاشيو قبل قليل: لقد توجّه بيبو زعيم الواليوني في ساعة مبكرة من صباح اليوم للقاء ماربيت في مستودع أحد بساتين دون سيزار. وليس بيبو وبالبو وزمرتهما ذوي أهمية أو اعتبار ليصبحوا شغله الشاغل، فقد سرقوا له الموسى عند انتهاء الحفل، وهو يرغب في أن يلقّنهم درساً، ليس إلا. وحين كلّف بيزاشيو آخر الليل بمراقبة بيبو، فإنّما فعل ذلك سعياً وراء اختيار الفرصة الملائمة، وبتأثير الغضب الذي استولى عليه عندئذٍ أيضا. وها قد جاء اقتفاء الأثر من جانب بيزاشيو ليكشف عن واقعة جديدة: إنّ ماربيت لم تبِتْ ليلتها في الدار ذات الأعمدة. فهي مختبئة في مستودع البستان. وهنالك استقبلت بيبو في الصباح الباكر. ولا يعتقد بريغانتي أنّ ماربيت على درجة من الغباء لتتخذ من بيبو عشيقاً لها. فهي فتاة نبيهة. وكلّما وجد بريغانتي مبرراً للتوجّه إلى دار دون سيزار لاحظ أنّها، وهي تغضّ الطرف، تنظر إليه نظرة باردة وقاسية تستأثر بإعجابه. ولو كانت له ابنة، لتمنّى أن يرى في وجهها وعلى محياها، تلك النظرة الذكية العنيدة، والفطنة الخفية، مع رباطة جأش مذهلة من فتاة السابعة عشرة.

كان يبحث جاهداً عن تفسير صحيح للموعد المبكّر ما بين ماربيت وبيبو. فهو يشعر بأنّ في المسألة شيئاً متميّزاً يجدر الكشف عنه. وأخذ يدور بفكره حول الواقعة فيقلّبها من كافة جوانبها. ويتركها ليعود إليها متفحّصاً بكل صبر وأناة، وبشرود متعمّد أحياناً، مظاهرها وخفاياها. لقد اعتاد أن يفكّر على هذا النحو، لحين العثور على صلةٍ ما بين الأحداث، أو على تشابهٍ من نوع ما. وعندها تضاء أمامه فجأة كل الوقائع الفريدة والمعزولة أو الخارجة

عن المألوف. تلك هي طريقته غير المبالية ظاهرياً في تحليل الواقع، والتي تتيح له أن يكتشف من الأشياء، ما يفوق بكثير، كل ما يحمل إليه معاونه بيزاشيو ومخبروه الآخرون من تقارير.

خرج أبناء المفوّض أتيليو من المقصورة ثم تبعتهم آنا وجوزبينا. كانت هذه الأخيرة تلبس مايوه اللستكس الذي بدأت تظهر به في الأيام الأخيرة، منذ أن أهدتها إياه دونا لوكريزيا (ما من أحد يعرف مصدره باستثناء بريغانتي الذي علم بالواقعة من فيديليا، فدوّنها في ذاكرته إذ يُحتمل أن تفيده يوماً ما). ثم كان أن ظهرت زوجة المفوّض بالمايوه أيضاً، ليصبح ظهورها حدث اليوم دون منازع. فها قد انقضت عشر سنين وهي تقيم في بورتو مناكوري. وظلّت ترتاد الشاطئ لعشرة مواسم بلا انقطاع، وترتدي دوماً ثوب الشاطئ، أمّا المايوه فلم يرها أحد قط تلبسه إلا اليوم. إنّها قنبلة الموسم حقاً. فهل يُفهم من ذلك أن المفوّض أتيليو يبرهن على ولائه لعصبة ذوي الأفكار الطليعية؟

لابدّ للمرء لكي يتوجّه من المقصورات إلى الشاطئ من أن يجتاز المنهل. وعليه فقد مشت آنا وجوزبينا فوق المنصة.

اتجهت الأنظار كلّها نحو آنا. ولم يقوَ حتى الرجال الذين كان المفوّض يتحدث إليهم على إخفاء دهشتهم.

قال المفوّض:

- جاء دوري أنا لأخلع ملابسي. ولن أتأخّر...

وضحك ضحكة الرجل الواثق من نفسه، فهو الوسيم والرياضي الأنيق. ثم أغلق على نفسه باب المقصورة.

شعرت آنا بنظرات الرجال كلّهم مصوبة نحوها. ورأت أنّ الأولاد قد ابتعدوا فلم يتبقَّ لها ما تتمسك به. فحثّت الخطى كي تبلغ الدرجات الثلاث المؤدّية من منصة المنهل إلى الشاطئ. بيد أنّ جوزبينا حصرتها في الممر الضيق بين الطاولات.

قالت لها هامسة:

- يا مدام آنا، لا تحمّري خجلاً. ارفعي رأسك قليلاً. لا تُظهـري لهـم أنك خجلى... فلست أول امرأة متزوجة تلبس المايوه... إنّك سيدة حسناء فـلا تخشَيْ شيئاً... أثبتي لهم أنك غير خائفة منهم.

السيدة آنا سمينة وبيضاء، أمّا جوزيبينا فنحيفـة ومحروقـة بالـشمس، لتعرّضها لها يومياً من ساعة الظهيرة حتى الثانية بدءاً من أول الموسم.

لقد لبست آنا المايوه الأحمر الرُّمّاني، الـذي اشـترته بمناسـبة شـهر العسل، الذي أمضته قبل عشر سنين على أحد شواطئ توسكانيا. ولم تتوجّـه بعدها إلى شاطئ حقيقي قط. وهي لم تكن في توسكانيا بصفتها زوجة لأحـد الأعيان بل كانت مصطافة عادية. والمشكلة على كل حال غير مطروحة فـي الشمال من أساسها.

لقد اكتنز جسدها لحماً وشحماً في بحر عشر سنين، علـى أثـر ثـلاث أمومات. وجاء المايوه ليبرز انتفاخاتها الدهنية. لم يخطر هـذا الوجـه مـن المسألة على بالها مطلقاً، طول الأيام والأسابيع الفائتة، التي أمضتها في إلحاح شديد ودائم على زوجها، كي يسمح لها بأن تنزل إلى البحر بالمـايوه، مثلمـا تفعل خمس نساء أو ست من عصبة الأفكار الطليعية. غافلة تماماً عن حقـائق عدّة ، منها أنّها لم تكن تمارس أية رياضة مثلهن، وأنّها تأكل بإفراط وأنّهـا متراخية وكسلى. بل باتت مترهّلة بلا شكل وهي لمّا تزل في الثلاثـين مـن عمرها، مثلها مثل نساء ما قبل الانبثاق الوجل لطـرْزٍ جديـدة فـي اللبـاس وطرائق حديثة في الحياة. حين تزوجت آنا، أحضرت معهـا ضـمن جهـاز العرس، مثلما تفعل كافة بنات البرجوازية الميسورة في الجنوب، مجموعة من الملابس الداخلية المضبوطة على مقاسها آنذاك، فتاةً رقيقةً ممشوقة لا تحتـاج ملابسها إلى غبن أو ثنية. لكنّها لم تعد الآن قابلة لأن تُلـبّس مـن قبـل الأم البدينة، ولا المرأة الضخمة المسنّة التي ستصير إليها، حين يبدأ درب العمـر بالانحدار. وما انفكّت جوزيبينا تؤجّج في نفسها نار الرغبة في النـزول إلـى

الشاطئ بالمايوه، فتزيدها اشتعالاً، حتى باتت لا تفكّر إلا في التطلّع إلى الإنعتاق، الذي تتوق إليه كافة النساء، بما فيهن بنات الجذوب، لأنّه مغروس في أعماقهن. ولم تحسب أيّ حساب لما آلت إليه الآن، وهي معروضة كأنّها عارية تماماً، أمام أنظار المدينة بكاملها، داخل جسمٍ لا شكل له، جسمٍ مترهّلٍ ومشوّه.

قاوم المفوّض في البداية مقاومة عنيدة، بالضحك والمزاح أحياناً ، على طريقته المعهودة، رجلاً يألف النساء، وبلهجة قاطعة أحياناً أخرى: «لا فائدة ترتجى من الإلحاح»، وبسلطة رجلٍ تعوّد إصدار الأوامر باسم الحكومة. ولم يتزحزح عن موقفه إلا في اليوم السابق مساءً بعد أن اقتنع فجأةً على يد جوزبينا. ولم تعرف آنا أنّ ثمن موافقة زوجها المباغتة، كان قبلة وبضع ملامسات دُفِعَت له في أحد ممرات السراي. إلا أنّها ليست بعيدة عن الشك في شيء من هذا القبيل. لأنّ أتيليو أخذ يردّ منذ عدة شهور، على استفزازات جوزبينا، بنظرات وخلجات في الصوت، وإيماءات خاصة به صاحبَ غزوات. ولم تغفل عين آنا عن شيء، فهي تندب حظها حين تكون وحدها، زوجةً لزير نساء. إلا أنّها لا تكفّ عن توجيه الدعوة لجوزبينا، مخافة أن تغيظ أتيليو إذا ما جافتها أو أبعدتها، فيسعى الى لقائها في مكان آخر. إنّها تفضّل إذن الاحتفاظ بغريمتها تحت مراقبتها. لا بل يراودها الأمل في نزع سلاحها منها إذا ما أغدقت عليها ظاهراً اللطف والثقة. وتعتبرها في الواقع أقلّ خطورة من أخريات، فهي تراها تمتلئ غروراً ساذجاً من إطراء المفوّض إياها، أي أنّها بالتالي دون قيمة حقيقية بالنسبة له. لذا لم يراود فكرها أي شك في أنّ هذه العذراء الحمقاء هي التي تملي أوامرها على هذا الـ دون جوان.

إنّ جوزبينا تحصرها الآن بين الطاولات فوق منصة منهل الشاطئ، تحت أنظار عِلْية القوم، فتزيد من شدة خجلها وهي تطلب إليها ألا تبديه.

همست آنا وقد احمرّت خجلاً وغضباً:

– دعيني أمرّ.

والتهب جسدها كلّه بالخجل والغضب حتى بلغ الاحمرار كتفيها (حيث حفرت شرائط المايوه أخدوداً عميقاً).

شقّت ببطء شديد طريقاً بين الطاولات، وجوزبينا متعلقة بذراعها، كابحة سرعتها قدر المستطاع، صائحة بملء فيها: «لن يسودّ لونك فوراً تحت شمس الأسد، لكن ستصبحين بعد ثلاثة أيام سوداء مثلي، يا مدام آنا».

خرج المفوّض من المقصورة بسروال أسود. إنّه رجل طويل القامة، وسيم ومفتول العضلات، شديد السمرة أصلاً، حتى ليظنّ المرء أنّ الشمس لوحته، رغم أنّه لا ينزل إلى الشاطئ سوى مرة في الأسبوع، يوم الأحد.

شاهد آنا تتعثر فوق الدرجات المؤدية إلى الشاطئ وقد احمرّت حتى كتفيها، ومعها جوزبينا تساعدها فتدفع بها أو تكبح حركتها. وتحوّلت الأنظار نحوه. إلا أنّه موظف تعوّد التحكّم في قسمات وجهه وضبط انفعاله فلم يبدِ استياءه.

قال بيزاشيو:

- كانت جوزبينا في الليلة الفائتة تتولى أمر مدير مصرف نابولي.

فصحّح له بريغانتي قوله:

- بل مدير فرع المصرف.

تقدّم المفوّض بسرعة ففصل بين السيدتين ممسكاً بكل واحدة من تحت ذراعها دافعاً بهما إلى البحر بسرعة، قائلاً بصوت عالٍ وبلهجة مازحة:

- سيداتي، إلى الماء، هيّا إلى الماء فوراً.

واتجهت نحوهم أنظار نساء الأعيان وبناتهم، وهنّ مستلقيات فوق الكراسي الطويلة تحت المظلات.

صاحت جوزبينا:

- هذا هو المطلوب، سنعلّم السيدة آنا السباحة!

وانفصلت عنها وركضت إلى الأمام. ارتسم جسدها جميلاً. فالنساء في مناكوري أمّا ثقيلات الجسم أو هزيلات مشدودات كالخيط. أمّا جوزيبينا فمستديرة الأرداف رقيقة الخصر. وقد كبر نهداها بحشوة متينة أُحسِن إخفاؤها تحت مايوه اللستكس. إنّها بديعة القوام حقاً ورشيقة مكتنزة.

قطعت بضع خطى راكضة ثم استدارت رافعة ذراعيها نحو السماء وقد برز الرأسان (الصناعيان) للنهدين المشدودين تحت المايوه.

صاحت:

- تعالَيْ، يا مدام آنا، تعالَيْ! سوف نعلّمك السباحة.

ثم تابعت الركض إلى البحر فخاضت فيه بخطى خفيفة، وظلت تركض حتى غمرها الماء لمنتصف الفخذين فتوقفت فجأة، وارتفعت على رأس قدميها وضمت يديها فوق رأسها وقامت برهزة قوية وغطست. ولقد شوهد جسمها وهو يتقوّس فوق الماء. وانسلّت لتظهر على بعد خمسة عشر باعاً عند طرف الجرف الرملي الأول، حيث يستطيع المرء الاستناد بقدميه على الأرض. برزت من الماء ووجهها إلى الشاطئ باسطة فوق مياه البحر (وهي واقفة فوق بساط الرمل يغمر الماء ساقيها فقط) جسدها الطويل الرشيق وهو يقطر ماء، لامعاً بتأثير الشمس والبحر.

تابع المفوّض، تحت أنظار الأعيان - رجالاً حول موائد المنهل ونساءً تحت المظلات فوق الرمل - دفع زوجته آنا بقوة نحو البحر. لقد شدّ على آنا بقوة حتى رسمت أصابعه أثلاماً، كخطوط بيضاء حمر الحوافي، فوق الذراع السمينة، تماماً كما فعلت شرائط المايوه فوق الكتفين السمينتين. إنّ عيون مناكوري المدرّبة على عمليات مراقبة نفّاذة، لا تعد ولا تحصى، قد أبصرت ذلك. فارتفع الهمس والغمز وشاع الانشراح.

قالت آنا:

- دعني، أريد أولاً أن أتعرّض للشمس تحت مظلتنا.

فانتهرها أتيليو قائلاً:

- لا يتعرّض أحد للشمس وهو تحت المظلة. تقدّمي.

- تمهّل. دعني أتعوّد على الماء فأنا أشعر بالبرد.

- الماء دافئ. تقدّمي.

وخاضا في الماء حتى منتصف الساق. قالت:

- أشعر بالبرد وقد نفذ إلى عظامي. دعني التقط أنفاسي.

- ألم يكفك الوضع المضحك الذي أنتِ فيه ؟ ارفعي ظهرك وتقدمي.

غمر الماء جسمها حتى الوركين. فقالت:

- أفضّل أن أغطس في الماء دفعة واحدة.

فتوقف وأرخى ذراعها وأخذ ينظر إليها. ثم قال:

- اغطسي، اغطسي. لا تخافي فالشحم سيرفعك.

رجعت جوزبينا سابحة على ظهرها ورأس النهدين على مستوى صفحة الماء. وتوقفت على خطوتين منها وصاحت:

- اغطسي دفعة واحدة يا مدام آنا. الماء رائع. إيه يا قديسة مريم، يا شفيعة كابو، ما أروع الماء!

نقّلت آنا ناظريها بينهما من واحد إلى آخر. ثم قعدت فجأةً فوق القاع الرملي فغمرها الماء حتى عنقها.

صاحت جوزبينا:

- مرحى لكِ، يا مدام آنا، مرحى. فأنت رياضية حقاً.

وبدا رأس آنا الأبيض كأنّه طاف على وجه الماء. فقال لها المفوّض بصوت هادئ:

- هل أنت راضية أخيراً ؟ كان بودك أن تسبحي، وها أنت الآن في الماء. ظلّي حيث أنت، فيا لها من متعة...

وانطلق سابحاً بكل يسر مبتعداً إلى عمق البحر.

فصاحت به جوزيبينا:

- سيدي المفوّض، أين الكياسة؟ لا يصح أن تترك مدام آنا وحدها....

ثم توجّهت بحديثها نحو رأس آنا الأبيض الطافي على سطح البحر قائلة:

- لا تتحرّكي، يا مدام آنا، سوف ألحق به لأقول له رأينا فيه.

وانطلقت تجدُّ في إثر المفوّض سابحة الكراول. وهي، إذا ما شاءت، تسبح أسرع منه. ولا يعوزها التدريب، فهي تسبح الكراول يومياً منذ بداية الموسم. فوضعت في حسابها أنّ التعب حين يدركه سيقفل راجعاً، وعندها تكون هي في المقدمة فيبدو هو كأنّه يلاحقها.

نهضت السيدة آنا واقفة، تقطر ماء، ورجعت متثاقلة نحو الشاطئ تحت أنظار الأعيان.

قال بيزاشيو:

- لو كنتُ أنا المفوّض أتيليو، لما كِلْت لجوزبينا غير الصفعات.

فقال ماتيو بريغانتي:

- أمّا أنا، فكنت منحتها الوشاح الأصفر.

- لماذا الوشاح الأصفر؟

- مثل الفائز الأول في دورة فرنسا.

- لماذا الفائز الأول؟

- لأنّها بطلة.

قال بيزاشيو:

- إنّها تسبح جيداً. هذا صحيح.

فقال ماتيو بريغانتي:

- يا لك من غبي.

يستقبل المفوّض عشيقاته في برج فريدريك الثاني دو سواب، الذي يؤجّره ماتيو بريغانتي للبلدية. ويمكن الدخول إليه بثلاث طرق. فعند إحدى زوايا سطح قصر البريد المواجه للسراي تماماً، يقوم باب يؤدي إلى الطابق الثاني حيث تقع قاعة كبيرة ثمانية الأضلاع، ترك بريغانتي لعناصر المفوّضية حرية استعمالها. فأصبحوا يودعون فيها ملفّات القضايا المنسقة، فليس من تتولاه الدهشة إذن لرؤية المفوّض داخلاً إليها أو خارجاً منها. وهنالك باب آخر في قسم من السور، ينفتح على درج حجري يؤدي إلى الطابق الثالث، حيث تقوم الشقة الصغيرة الخاصة والمشتركة بين المفوّض وماتيو بريغانتي. ويمكن بلوغها أيضاً من بيت بريغانتي نفسه عبر ممر يتفرّع من حجرة الدرج، تحت سقف قسم القصر، المبني في عصر النهضة والواقع فوق البلدية.

أمّا الطريق الثالثة فيبدأ من كنيسة القصر الصغيرة. ومفاتيح هذه الطرق الثلاث بحوزة بريغانتي. فعلى المفوّض أن يأخذ منه هذا المفتاح أو ذاك من أجل لقاء عشيقاته.

الطابق الثالث من البرج عبارة عن قاعة ثمانية الأضلاع مماثلة لقاعة الطابق الثاني. لقد سُطِمت نوافذها المقنطرة، وبقيت كوّة في أعلى القوس من أجل التهوية. وغُزلت إحدى زوايا القاعة بسجاجيد جدارية تم شراؤها من عند أحد الباعة في فوجيا، وجُهّزت بسرير حديدي مدهون بزخارف من الورود، تقليداً لزخارف الأسرّة الخشبية الفينيسية، وبطاولة للزينة عليها كل المستلزمات، وراء حاجز قماشي من الكريتون. وعلى الجدار وراء السرير مرآة كبيرة. وفرشت على الأرض بجانب السرير سجادة مغربية الزخارف، شبيهة بالتي كان يحضرها ضباط الصف العاملون في «جيش ليبيا»، كما وُضِع شمعدان زجاجته مزينة باللآلئ الصناعية فوق منضدة صغيرة من طراز السجادة الليبي نفسه.

تؤم النساء عامة هذه الشقة عن طريق الكنيسة المفتوحة للصلاة. فيسلكن الدرج اللولبي القائم داخل السور القديم والذي يؤدي إلى قمة البرج حيث يأتي السواح عادة. وعند دورة الطابق الثالث يجدن الباب الذي أعطاهن المفوّض مفتاحه، بعد أن استعاره من بريغانتي.

ويأتين أحياناً عن طريق بيت بريغانتي نفسه. لأنّ زوجة هذا الأخير كانت تقوم فيما مضى ببعض أعمال الخياطة. وهذا مبرٌّر بذاته لدخول بيتها. وترسخت لدى الجميع ثقة في تكتمها. لا سيّما والكل يعرف أنّها تعيش في حال رعب دائم من أن يتهمها زوجها ذات يوم بخيانة أحد أسراره التي لا تحصى. حتى أنّها لا تبوح بشيء لأحد.

وعلى هذا النحو فإنّ علاقات المفوّض الغرامية تقع تحت مراقبة ماتيو بريغانتي (مثلما تقع علاقة لوكرزيا ضمن علم جوزبينا). إنّ العلاقات الغرامية غير المشروعة يستحيل قيامها في المدن الصغيرة، كثيفة السكان، دون تواطؤ ووساطة. (وهذا ما يفسّر دور القوادات وسماسرة الهوى في الأدب الإيطالي).

ولا يبقى غير كبار المالكين الذين بوسعهم القبول بمبرّرات مكلفة جداً حتى لا تخدع أحداً. فإن كانت الفتاة، أو المرأة، فقيرة استدعوها لبعض الوقت خادمة. وإن كانت زوجة لأحد الأعيان وجهوا دعوة للاثنين لزيارة القصر أو الفيلا. فينظّمون رحلة صيد يشارك فيها الزوج، أو يطلبون إليه الذهاب لمراقبة معصرة الزيتون أو لتسوية أية مسألة مزعجة لا بدّ وأن تعود عليه بربح وفير.

إنّ الشقة الفاصلة بين كبار ملاك الأراضي، من أمثال دون سيزار أو دون أوتافيو وبين الأعيان، مثل تلك التي تفصل ما بين الأعيان وبين عامة الشعب. وإذا مضينا إلى أبعد من ذلك نجد أن ماتيو بريغانتي قد التقى بإداريي شركة مونتيكاتيني، الذين فاوضهم على بيع أراضيه من ماغريتا دي سافويا،

أو إداريي شركة مناجم البوكسيت الذين يتعهّد بعض نقلياتهم. إنّ بوسع كل من هاتين الشركتين شراء جميع أملاك دون سيزار أو دون اوتافيو دون أن يطرأ أي تعديل، مهما يكن طفيفاً، على مخططها لنهاية العام.

والعالم مخلوق على صورة الأسطول الملكي حين كان ماتيو بريغانتي منخرطاً في سلكه برتبة عريف بحار. البحارة : عامة الشعب. ضباط الصف: بريغانتي نفسه ورجال الأعمال في فوجيا. أمّا الضباط من المراتب الدنيا فهم أعيان بورتو مناكوري أو فوجيا ورجال الأعمال المسجلين في غرف التجارة أو الصناعة. وكبار الضباط هم: دون سيزار ودون اوتافيو. أمّا هيئة الأركان العليا فهي: شركة المونتيكا تيني وشركة البوكسيت. وفوق كل هؤلاء يأتي الملك الذي لم يعد له أسم معروف من حين قيام الجمهورية. فليكن اسمه الشركة المغفلة لسلطة الدولة. وفي أقصى الأعالي: يستوي الله.

إنّ ماتيو بريغانتي، الذي يعيش دائماً في حالة الخطيئة المميتة باستثناء ليلة واحدة في السنة تبدأ من لحظة اعترافه أمام الكاهن يوم سبت النور، وتنتهي بتناوله القربان المقدس (في اليوم التالي) صباح أحد عيد الفصح، يؤمن رغم ذلك إيماناً راسخاً بالله وبالكنيسة المقدسة. والمجتمع الإنساني على نحو ما يعرفه، وبشكلّه المنسّق تسلسلاً، وبتدرّجه الشديد، يقدّم في نظره برهاناً قاطعاً على وجود الله، الذي يتوّج كل شيء ويختمه. مثلما تتوج شمس الأسد خليج مناكوري عند الظهيرة وتختمه.

ولئنْ كان ماتيو بريغانتي مرغماً على ارتكاب العديد من الخطايا المميتة، فإنّما ذلك لأنّ الله أتاح له أن يصبح ضابط صف ومراقباً لبورتو مناكوري، ولأنّه يمنعه من الارتقاء إلى طبقة أعلى (طبقة المحامين وموثقي العقود والأطباء والقضاة والمفوّضين، ومرتبة السيد الدكتور والسيد الأستاذ وكافة ذوي الألقاب الجامعية). إلا أنّ هذا مخصص لابنه. أي كأنّه يدفع بخطاياه، ثمن المقام الرفيع الذي سيحتله ابنه. فكل شيء له ثمن. ذلك هو القانون.

ولا يقدّم المال وحده تفسيراً كافياً لقسوة التفاوت وصلابة التمايز بين الطبقات. فماتيو بريغانتي يملك من المال أكثر مما يملك المفوّض بكثير. بل لا مجال لهذه المقارنة أصلاً. فالمفوّض يسدّد ثمن سيارته الألف ومئة بالتقسيط، أمّا بريغانتي فلو اشترى سيارة لما كلفه الأمر أكثر من توقيع شيك على حسابه في مصرف نابلولي. وإذا كان لم يشترِ سيارة فذلك كي لا يخسر فوائد رأس المال الذي تمثله السيارة، زدْ أنّه يجد متعة أكبر في استخدام سيارات الأشخاص الذين يراقبهم. وبشكل خاص حين يبدو عليهم التبرّم. والمفوّض موظف. وقد صار بريغانتي على درجة من الغنى تجعله يتلفظ بهذه الكلمة "موظف" بشيء من الاستهانة. ولكن مهما يبلغْ بريغانتي من الغنى، بفضل الفوائد المركبة لرأس مالٍ يُدار ويوظَّف بمهارة، ومهما تكنْ قيمةُ الخدمات التي يقدمها بشكل أو بآخر للمفوض، فسوف يظلّ يخاطبه بقوله «سيدي المفوّض» أو بلفظة «ليي». (وليي هذه بالإيطالية تشبه قول أنتم بالفرنسية أو حضرتكم.) في حين أنّ المفوّض سيرد عليه بقوله «يا بريغانتي» أو بلفظة «أنت». فينبغي على ماتيو بريغانتي، من أجل أن يتمتع بامتيازات كبار الضباط، وقد صارت ثروته تؤهله لذلك، أن يرتحل عن بورتو مناكوري. وهذا ما قد ينوي القيام به حين بلوغه سن التقاعد، من بعد أن يكون ابنه قد صار محامياً وواحداً من أصحاب الأملاك، وبعد أن يكون تدرّب على يديه ليعرف كيف يحمي ثروته. ولو كان يعيش في مقاطعة أخرى غير مقاطعة فوجيا، في الشمال مثلاً أو في الخارج، لحصل على امتيازات المنزلة الاجتماعية، التي سيُرسّخ المال الذي ينفقه، الاعتقاد بأنّه ينتمي إليها. لكن هل هذا الأمر مؤكد ومضمون؟ فهو من ناحية ينظر بعين الشك والريبة، إلى الأجانب الذين يعبرون بورتو مناكوري في سيارات كبيرة، أميركية (أو ألمانية أو فرنسية)، فيتوقّفون أحياناً لتناول الفطور في استراحة رصيف المرفأ. وقد لا يكونون أكثر من عرفاء بحريين في بلادهم، إلا أنّهم يجوبون إيطاليا في سياراتهم الكبيرة، فيزورون المتاحف، وتتفتح لمقدمهم أبوابُ الكنائس، ويتصبّب منهم العرق مدراراً وهم يدورون حول الكاتدرائيات

الضخمة في حرّ الظهيرة، تحت لهيب شمس الأسد، وينزلـــون فـــي الفنـــادق الفخمة التي من حقّ كافة نزلائها التمتع بالقدر نفسه مـــن الاحتـــرام. وقـــد لا يفعلون ذلك كلّه إلا ليوهموا أنفسهم بأنّهم من كبار الضباط. ويجلـــس مـــاتيو بريغانتي في زاوية من الاستراحة يراقبهم ويرصد حركاتهم ولهجاتهم، وقلـــة الانطلاق والمرح، أو الإفراط في الانطلاق حتى الوقاحة، فتقـــدّم لـــه تلـــك الأشياء كلّها الدليل والبرهان على أنّ هذا الأجنبي أو ذاك مخـــادع غـــشاش. مثلما سيكون بدوره غشاشاً فيما لو اختار المنفى الطوعي، لأنّ الذي ســـيكون قائماً بدور بريغانتي في المكان الذي سيختاره منفى، سوف يكتشف على الفور أنّه غشاش. وإنّ المرء الذي يجوب رحاب دنيا الله، لا يقوى على الإفلات من أعين المراقبين الذين غرسهم الله في كل مكان تقريبـــاً، والـــذين باقتطـــاعهم ضريبتهم على حساب الفوضى، يساهمون بطريقتهم الخاصـــة فـــي إحـــلال النظام. هذا ما كان ماتيو بريغانتي مستغرقاً في التفكير فيـــه، انـــسجاماً مـــع طبيعته التأمّلية، وهو الذي أعدته مهنته مبتزاً، إعداداً خاصاً للتأمّل في الفروق الاجتماعية. كان يفكر بذلك وهو يواصل مراقبة المفوّض وجوزيبينـــا وهمـــا يسبحان وراء حدود الجرف الرملي الأول.

إنّ جوزبينا، سباحةٌ ماهرة، أسرعُ حركةً من المفوّض، ومهما يكنْ نوع المخاتلة التي يلجأ إليها، تجدْها قد تدبَّرت أمرها لتكون متقدّمةً عليـــه قلـــيلاً، كيما يستطيع الأعيان وزوجاتهم، الذين يراقبونهما من على الشاطئ، الاعتقـــادَ بأنّ المفوّض هو الذي يلاحق جوزبينا. فهي تلتفت إليه في الماء بـــين وقـــت وآخر وتطلق ضحكة قوية جداً حتى تُسمَع من على الشاطئ. إنّهـــا ضـــحكة فتاة لرجل يحاول إغراءها فلا ترفض إغراءه تماماً، لكنّها تلهو بـــه وتتـــسلّى باستجراره لملاحقتها، فتجعله يسير على أعقابها، تجعله يمشي.

أمّا آنا فقد عادت إلى الشاطئ وتمدّدت فوق الكرســـي الطويـــل تحـــت مظلتها، ناشرة منشفة على فخذيها، لتخفي تكتلات اللحم النافرة عنـــد حـــوافي المايوه الضيّق. وقد حبست، بكل ما أوتيت من قوّة، الدموع المتزاحمة لتـــسيل

من مآقيها، فيما كافة النساء يرصدنها بترقّب. وحين شعرت بأنّها باتت عاجزة عن احتباسها أكثر، ذهبت لتحبس نفسها في مقصورتها. أمّا الآن وهي جالسة على مقعد خشبي وراء الباب المغلق، وبعد أن أرخت شرائط المايوه لتحـــرّر منه نهديها الكبيرين الأبيضين، فقد أطلقت لدموعها العنـــان باكيـــة بـــصمت. استمرّ المفوّض يسبح بعيداً عن الجرف الرملـــي الأول، مخـــاتلاً مـــن هنـــا ومواربياً من هناك، متبوعاً من جوزيبينا وباديـــاً أنّـــه يتبعهـــا. ربمـــا كـــان يشتمها. لا ريب في أنّه شتمها بادئ ذي بدء. أمّا فـــي هـــذه الـــساعة، فإنّـــه يتوسّل إليها دون أدنى ريب، لتأتي في يوم قريـــب إلـــى شـــقّته الـــصغيرة الخاصة، في برج فريدريك الثاني دو سواب. وتجيبه جوزيبينا والحـــال هـــذه بكل تأكيد: «أرجع السيدة آنا، بادىء الأمر، إلى بيت ذويها فـــي لوتـــشيرا». ولا يسعُ مَن على الشاطئ سماع ما يقولان، إنّما يسمعُ فقط ضـــحك جوزيبينـــا المتحدّي والاستفزازي.

إلا أنّ الأعيان الذين يتناولون المـــشروبات، جلوســـاً فـــوق منـــصة منهـــل الشاطئ، ونساؤهم المستلقيات تحت المظلات فوق الكراسي الطويلة، لا ينخـــدعون. فهم يعلمون حق العلم أنّ المفوّض ليس هو الذي يلاحق جوزيبينا، بل ربمـــا يكيـــل لها الشتائم، إنّما الفتاة هي التي تستغلّ رشاقتها فـــي الـــسباحة لتبـــدو كأنّهـــا المطارَدة من قبل المفوّض. إنّ جوزيبينا، والحال هذه، تلعب لعبة مكشوفة أمام أعين جمهور عالم بخفايا الحياة الاجتماعية كلّها. وهي تعرف هـــذه الحقيقـــة مثلما يعرفها جمهور المتفرجين. لكنّ عناصر الإثارة والمتعة لأعيان بورتـــو مناكوري تمثلت في المفوّض أتيليو، وقد حوصر وضُيِّق عليه الخناق حتى:

١ – سمح لزوجته السمينة، للسيدة آنا المحترمة والجديرة بالتقدير، بـــأن تنزل إلى الشاطئ بمايوه السباحة.

٢ – بظهوره علناً على الشاطئ وأمام الجميع، بين زوجته التي ستصير من الآن فصاعداً آنا البشعة (المشوّهة بسبب الأمومـــات والـــشراهة)، وبـــين

الشقيّة الهيفاء جوزيبينا (التي ازدادت نحفاً بسبب الملاريا) والأكثر تهتكاً بين كافة عذارى مناكوري.

٣- أن يتحول على صفحة الماء، وراء الجرف الرملي الأول، وأمام عيون الشاطئ كلّه، إلى مجرّد أُلعوبة بيد جوزيبينا الخفيفة الحركة، المتعمِّدة الإثارة. إنّه يؤجل لحظة رجوعه إلى الشاطئ. فيواصل المخاتلة هنا وهناك بين ضحكات جوزيبينا، لأنّه لمّا يقررْ مواجهة نظرات الأعيان الساخرة (ونظرة بريغانتي الباردة). وإنّ انطلاقه رجلاً تعوّد أن يروق عيون السيدات، لن يعود عليه بأية فائدة، في هذه المباراة، التي أُلغيت فجأة، لأنّه قبل على وجه التحديد، أن يجعل من نفسه أضحوكة أمام نساء الأعيان، وبينهن عشيقات الماضي، وبينهن، كما تراوده الآمال، عشيقات المستقبل، وذلك كلّه على يديّ العذراء الأكثر وقاحة وجنوناً بين فتيات بورتو مناكوري.

ليس الفضول إذن هو الذي يبقي عيون المتفرجين مفتوحة على المشهد، إذ ليس لدى جوزيبينا من جديد بالنسبة لغالبيتهم العظمى. فمنذ وقت طويل والكل يعرف أن المفوّض يسعى لينال جوزيبينا، صديقة زوجته المفضلة، وأنّه يفرض على زوجته أن تستقبلها على أنّها صديقتها المفضلة. لكنّ الإثارة التي تبدو في عيون المتفرجين من نوع آخر، إنّها أعمقُ أثراً وأكثرُ عنفاً. إنّها شبيهة بمتعة حضور جلسة مثيرة في محكمة الجنايات أو التفرّج على مصارعة الثيران. إنّهم يتفرّجون على صراع المفوّض أتيليو مع المصارعة البارعة جوزيبينا ابنة بائع الخرداوات في شارع غاريبالدي وكيف خرّ على يديها صريعاً.

أخيراً فهم بيزاشيو، فقال:

- إنّ جوزيبينا لـتفرِض إرادتها على المفوّض.

فأجاب بريغانتي:

- لا مناص للنهاية من أن تكون كذلك.

- لماذا؟

- لأنّ قسوته مزوّرة.

إنّ الشقة الصغيرة الخاصة المشتركة بين المفوّض وماتيو بريغانتي سبب دائم لتبادل الأحاديث فيما بينهما عن العشق، وهما جالسان في مكتب المفوّض المغلق أو في الشقة نفسها حين يتبادلان المفاتيح. ويتكلمان في هذه الحالات بكل حرية، كلام رجل لرجل، ساقت الظروف كلاً منهما إلى عدم إخفاء أي شيء عن الآخر. حين يتحدثان عن العشق، وحدهما، وفي هذه الحالات حصراً، يدعو بريغانتي المفوّض باسمه فقط، أتيليو، مجرّداً من أي لقب. ويقول له المفوّض بدوره «عزيزي» ماتيو. ويحمل الرجلان عن العشق فكرة متماثلة في خطوطها العريضة: فقيمة العشق كلّها تتمثل في أن تفرض إرادتك على الطرف الآخر، امرأة كانت أم فتاة.

(أمّا فيما يتعلق بالمتعة، فإنّ بنات بعض الدور، ودور المتعة منها بشكل خاص، تلك اللواتي تتراوح قيمة نصف ساعتهن بين ألفين وخمسة آلاف لير، وساعتهن بعشرة آلاف، أكثرُ تجربة وخبرة من أية عشيقة. لكنّها متعة من نوع آخر، وهي أقل إثارة في نهاية الأمر من متعة فرض الإرادة على العشيقة، وإن تكن هنالك حالات تتفوق فيها فتاة الدار على كل عشيقة. وإنّ العلاقة في الواقع بين الفتيات وبين هواة الفتيات على شيء من التعقيد. فدفع المال للفتاة فيه سيطرة وفيه فرض إرادة. لكن حين تفرض هي دفع المال، تتولى هي السيطرة وفرض الإرادة. وبوسعها والحال هذه أن تمنح المتعة المزدوجة بفرض السيطرة والخضوع لها في آن معاً. وهذا هو أوج الحرية في العشق. والنجاح هنا متعلق بمهارة الفتاة - وفي كل حركة - على توضيح هذه التبعية- الحرية لكل من الشريكين تجاه الإرادة التي يتبادلان فرضها، وسيطرة كل منهما على الآخر. أمّا إذا كانت الفتاة غير حاذقة في ممارسة هذه اللعبة التي تشكل جوهر مهمتها، فإن الإرادتين في هذه الحال يبطل مفعولهما أي تلغي الواحدة منهما مفعول الأخرى(بدلاً من مضاعفته نحو درجة متفوقة لتأثيرهما المتبادل). ولا تبقى والحال هذه غير متعة الامتطاء

التي لا تعوذ الوسائل ذات قيمة معها ولا الأوضاع، فهي من أكثر أنواع المتع بلادة وتفاهة، حتى ليحصل عليها البعض مع الماعز أو في العزلة أو مع الزوجة، التي ألفت منذ وقت طويل الخضوع لفرض الإرادة، حتى بات فرضها عليها دون قيمة تذكر. وهذا على وجه التقريب رأي ماتيو بريغانتي بالفتيات ضمن صيغ أخرى، لكن بوضوح شديد بسبب ممارسته لعبة القانون، ورأي المفوّض أيضاً لكن بغموض أكبر وببعض التشويش).

ويتفق ماتيو بريغانتي والمفوّض على أن فرض الإرادة هو الذي يعطي العشق أهميته. لكنّهما يتوجّهان نحو أهداف مختلفة.

فالمفوّض أتيليو حين يبدأ بمغازلة زوجة أحد الأعيان، يحيطها بالعناية ويسعى للإيقاع بها في شراكه، فيمالقها ويداهنها ويلاطفها ويدللها، ويجهد لإقناعها بزيارته في شقته الصغيرة الخاصة، في برج فريدريك الثاني دو سواب. ثم يرهق نفسه في طرق مطارحة الغرام، مقتنعاً بأنّه يحقّق من المتعة، للمرأة التي تشاركه الزنى، ما لا تقع عليه، حسبما تقول، عند زوجها. ويحقّق انتصاره بقوله: «أنتِ لي». إنّ الرجال في البلدان المسيحية يتوهّمون بسهولة أن المرأة حين تقول: «أنا سعيدة» إنّما تقصد أن تقول: «أنت دمغتني وطبعتني بطابعك فصرتُ ملك يمينك». إنّهم ميتافيزيقيون دون أن يدروا، وملاكون وقانونيون بالجوهر، يتصوّرون متعة الحب بعبارات المطلق:

إنّه الحديد الأحمر يدمغ الماشية التي تمتلكها أبدياً. وحين يقتنع أتيليو أخيراً بأن عشيقته باتت تخصّه دون تحفظ، يعلّمها أساليب بنات فوجيا وحركاتهن وسكناتهن قائلاً في نفسه: «إنني أحطّ من مقامها». ويقطع بعدئذ كل صلة بها فينتقل إلى أخرى.

الإغواء والسيطرة والإفساد والقطيعة، تلك هي الوجوه الأربعة لفجور المفوّض أتيليو، الذي ينصرف إليه بممارسة دينية أكثر مما يظنّ. وها هو قد وقع في نهاية المطاف تحت سيطرة جوزبينا. فيتهلل بريغانتي فرحاً، منشرح الصدر.

أمّا عن ماتيو بريغانتي فأنّه يفضّل اغتصاب الأبكار.

انتهت مباهج الشاطئ في حدود الساعة الثانية بعد الظهر. وعاد الجميع إلى مناكوري للغداء والراحة فترة القيلولة. وأعاد المفوّض في سيارته الألف ومئة زوجته آنا وجوزبينا والأولاد الثلاثة. وفي اللحظة ذاتها افترقت دونا لوكريزيا عن فرانشيسكو عند رأس لسان الجبل قرب «الترابوكو». سار كل منهما في غابة الصنوبر، فاتجه هو ناحية المكان الذي خبأ فيه فيسبا دون روجيرو، وتوجّهت هي إلى بوابة المنتجع الصيفي، مردّداً كل منهما في نفسه كلمات الحب التي سمعها من الآخر.

نام ماتيو بريغانتي حتى الساعة الخامسة في بيته، داخل مسكنه في قصر فريدريك الثاني دو سواب. ثم استحم بماء بارد واعتنى بمظهره فهو شديد الحرص على أن يكون في أحسن شكل وأكمل هندام. واختار لهذه الفترة الثانية من النهار، التي تبدأ بعد القيلولة، سترة من المخمل الأزرق البترولي، وقميصاً أزرق فيروزي اللون، وزيّن ياقته بعقدة فراشة زرقاء سماوية. صحيح أن عقدة الفراشة لم تعد تستخدم كثيراً في إيطاليا، لكنّ بريغانتي اعتمدها مذ أن دخل عالم الابتزاز، على أثر تسريحه من الجيش مباشرة. وقد رأى آنذاك أنّ عقدة الفراشة تسبغ على الشخصية طابعاً من المهابة والأبّهة، أكثر من ربطة العنق. أمّا الآن فقد ينكر نفسه إذا كان بدون عقدة الفراشة.

سألته السيدة بريغانتي:

- هل ستعود للعشاء؟

فأجابها:

- لست أدري.

وانعطف عند زاوية الساحة الكبرى وشارع غار يبالدي. كان السجناء في طابق السراي الأرضي وراء قضبان الكوى المفتوحة نحو الأعلى يغنون:

«دوري، يا حلوة، دوري...»

لكنّ أصواتهم لم تطرق مسامعه أكثر مما يطرق مسامع الصياد دويّ محرّك زورقه. ثم توجّه نحو أولى دعائم الجبل حيث تبدأ منطقة بساتين البرتقال والليمون.

سلك درباً مغايراً للدرب الذي سلكته مارييت ليلاً، ثم سلكه بيبو صباحاً، وبيزاشيو يلاحقه دون أن يدري.

وهكذا وصل إلى بستان مجاور لبستان دون سيزار (حيث تختبئ مارييت) لكن من طريق آخر، على الجانب المناظر للوادي ذي الينابيع الثلاثة.

كان الوقّاف على البستان، وهو واحد من أصدقائه، يراقب حوالي عشر نساء يقمن بعزق الحفر المحيطة بجذع كل شجرة وتعشيبها.

تحدثا معاً لبعض الوقت إلى أن قال الوقاف:

- إنّهن مجموعة من التنابل. ولو أغمضت عيني لتوقفن عن العمل.

فقال بريغانتي:

- إن لم تلتفت بنفسك إلى رزقك، فآخرون لن يهتموا به بدلاً عنك.

قال الوقاف:

- إنّهن يأكلن مالي.

فأجاب بريغانتي:

- وما بوسع اليد أن تفعل بدون العين....؟

وتابع الاثنان لبعض الوقت تبادل تلك العبارات المنمّقة التي يتداولها في العادة ضباط الصف.

ثم قال بريغانتي:

- سوف أرتاح قليلاً.

فأجابه الوقاف:

- إفعل ما يروقك.

ما من أحد يلقي أسئلة على بريغانتي قط. وإذا ما توقف في هذا البستان فمعنى ذلك أنّ لديه ما يراقب في مكان قريب. وهذا من شؤونه الخاصة.

ومضى فجلس في ظل شجرة تين بانتظار انصراف الوقاف والعاملات.

كان والد بريغانتي عاملاً زراعياً يشتغل مياومة (ما لم يكن عاطلاً عن العمل). وكانت أمه تعمل مياومة في عزق البستان أو في فتح الماء من البئر للسقاية. كانت تمضي فترات عاطلة عن العمل أكثر من الأب. وكانا إلى جانب ذلك يقومان بكل أنواع السخرة دون مقابل لصالح الوقاف أو المرابع الذي كان يتلطّف باستدعائهما للعمل.

كان لدى ايتالو باربوني، وهو أحد الوقافين عند دون اوتاني، شيء من العطف على والده فيشغـله في أغلب الأحيان. كان يقطن منطقة البساتين، على بعد مئتي متر من الطريق. فيسلك درباً فرعياً يقطعه عدد من الدرجات. وحين يذهب إلى بورتو مناكوري كان الأب ينتظره عند زاوية الطريق حاملاً بيده فانوساً، بدءاً من هبوط الظلام وحتى ساعة رجوعه، ليقوده عبر الدرب الفرعي. فيسير أمامه متنحياً قليلاً، مثلما يمشي السرطان، كي لا يشكل حاجزاً بين الفانوس وبين قدمي باربوني. والوقاف من أكبر عشاق لعبة القانون. وغالباً ما يعود قبيل الفجر. فكان والد ماتيو ينتظر طول الليل، دون أن يجرؤ مرة على أن يقول للرجل الذي كان يتعطّف فيشغله: «سأترك الفانوس عند طرف الدرب وأذهب لأنام». والواقع أنّه لو ترك الفانوس هناك لوُجِد بالتأكيد من يتطوع لسرقته. والفانوس ذو قيمة لا يستهان بها في بلد للعاطلين عن العمل. ولو انّه خبّأه (كان بوسعهما الاتفاق على مخبأ) فإن باربوني الذي يرجع مخموراً بصورة شبه دائمة، ما كان سيعثر على المخبأ، ولا كان بوسعه إضاءة الفانوس. فلم يكن أمامه من حل آخر غير الانتظار، جالساً على الأرض عند زاوية الطريق، ريثما يقرّر الوقاف العودة إلى بيته.

وباربوني أيضاً كان ينتظر. فدون اوتافيو تعوّد أن يمضي آنذاك القسم الأكبر من السنة في روما. ويحصل أحياناً أن يكتب لوقافه قائلاً: «انتظرني

يوم الاثنين في محطة فيلانوفا». فيقوم باربوني بإسراج العربة ذات الجوادين، وينطلق مبكراً لانتظار سيده في محطة فيلانوفا، التي تبعد عشرين كيلو متراً عن بورتو مناكوري. وغالباً ما كان دون اوتافيو يتأخر. فلا يأتي يوم الاثنين حسبما أعلن، ولا يوم الثلاثاء ولا الأربعاء. وحدث مرة أن انتظر الوقاف قدومه أسبوعاً كاملاً أمام المحطة. فكان ينام الليل فوق رزمة من القش يضعها في صدر العربة. لم يعد دون اوتافيو يركب القطار الآن، فلديه عدد كبير من السيارات. لكنّ ايتالو باربوني العجوز، ما انفك ينتظره في مناسبات عديدة، لأسباب متنوعة، وفي أماكن مختلفة.

كان دون اوتافيو يُرغِم وقافه على الانتظار وهذا بدوره يرغم العامل الزراعي لديه على الانتظار. لاشك في أنّ الملك كان يُرغم دون اوتافيو على الانتظار والله يفعل الشيء نفسه مع الملك. كانت تلك أوّل فكرة يكوّنها الفتى ماتيو عن التسلسل الاجتماعي. فكل واحد ينتظر آخر ويجعل ثالثاً ينتظر. إنّما الله وحده لا ينتظر أحداً والعامل الزراعي وحده لا يجد من أحد أدنى منه فيجعله ينتظره. وهكذا تحدّد بالنسبة له المطلقان عند كل من طرفي التسلسل (علماً أنّه لم يستخدم هذه التعابير):

الله والعامل الزراعي. فأصبح وضع العامل الزراعي، يمثّل في نظر ابن العامل الزراعي هذا، تَـعْسَ العيش المطلق.

إن أناساً آخرين من أمثال ماريو البناء (ذاك الذي رفض المفوّض منحه جواز سفر لأنّه رفض أن يمزّق بطاقته الحزبية) يريد نسف البنيان من أساسه وإقامة مجتمع آخر يرتكز التسلسل الاجتماعي فيه على اعتبارات مختلفة (بل إنّ الفوضويين الذين ما زالوا كثراً في الجنوب يريدونه دون طبقات على الإطلاق)، إلا أنّ مثل هذه المفاهيم تتطلّب مطالعة الصحف والكتب، أو مخالطة قُراء الصحف والكتب على أقل تقدير، وهو مالا يمكن توفره. بل هي أشياء يستحيل أن تتوفر للشاب ماتيو (لا سيّما في المرحلة الفاشية). إلا أنّه اتخذ قراره وهو في سن العاشرة بأن يتخلص بأي ثمن من تُعْس العيش

المطلق، أي من وضع العامل الزراعي. فالانتظار لا بأس به، إذا لم يكن منه بد، على أن يكون قادراً فقط على أن يجعل آخر ينتظره. ولا بـأس مـن أن تـُفرَض عليه الإرادة، لكن ينبغي أن يكون قادراً بدوره على فـرض الإرادة على غيره. وعلى ذلك النحو تمثلت في ذهن الولد صورة الكرامة الإنسانية.

وهكذا فقد رفض بإصرار، رغم العقوبات الزجرية، أن يذهب ولو مرة واحدة للعزق والتعشيب مع النساء أو لمتح الماء من البئـر والـصعود بـه، سطلين فسطلين، على طرفي عصا الميزان، لسقاية البساتين غيـر المرويـة، مثلما يفعل أبناء العمال الزراعيين، حين يبتسم لهم الحـظ فيطلـبهم الوقـاف لتشغيلهم. ويرى اليوم أن ضربات والده جعلته صلباً كالسقاية للمعادن. وتمتلئ الآن نفسه رضىً حين يفكر بذلك لأنّ أباه كان يضربه ولأنّه لم يرضخ علـى أثر الضرب. وبهذا أصبح على القساوة التي يتباهى بها الآن. وبـدوره قـام، للسبب عينه أيضاً، بضرب ابنه فرانشيسكو، ليس غضباً مثلما كان يفعل أبـوه به، إذ يقلل ذلك من أثر العقاب، فيضفي عليـه قـسوة الكـوارث الطبيعيـة كالعواصف والزلازل والأوبئة، بل بكل برود، فينهال عليه ضـرباً بالـسوط الجلدي وهو يعدّ السياط أو يرغم فرانشيسكو على عدِّها. وكان ينتشي فرحـاً لرؤية الولد يصرّ بأسنانه دون صراخ، ولشعوره بأن الولد بات يكرهـه. إلا أنّه أصبح على درجة كافية من السيطرة على نفسه تجعله لا يصرخ غيظـاً، بل إنّه ليكظم غيظه فلا يبدو له في عينيه من أثر. وعلى هذا النحـو يـزداد صلابة ويقسى كالفولاذ ويصير رجلاً.

ما إن اشتدّ عود ماتيو بريغانتي حتى بدأ يعمل مع الـصيادين مـساعدَ نوتي. والصياد إنسان بائس أيضاً له العديد من الأسـياد: هنالـك صـاحب زورق الصيد، ثم تاجر السمك، وهنالك الريح والبحر وهجرة الأسماك. لكـن بوسعه أن يتذرّع بالريح أو بالبحر أو بهجرة الأسماك. وبوسـعه أن يـراهن على المنافسة بين التجار ليرغمهم على الانتظار. إنّها مهنـة تتطلـب ذكـاء وتزيده تمرساً.

فعملية استخدام الريح للتوجّه ضد جريان الريح، ليست مجرد تعريف للملاحة الشراعية، ولكنّها تعريف لتلك السلطة التي يمنحها الذكاء للإنسان، بحيث يُخضِع القوانين الطبيعية والاجتماعية لخدمة أغراضه، ولإظهار مدى حريته. وإذا كان الصياد في أغلب الأحيان على الدرجة نفسها من الفقر مع العامل الزراعي، إلا أنّه ليس مثله في حالة تَعْسِ العيش المطلق. فالصياد يبيع سمكه، والناس يشترونه منه. فلا تعود العبودية مطلقة بوجود التجارة. وتنعكس الحرية النسبية لكبير الصيادين على البحّار وحتى على مساعد النوتي، وهي ثمن لاشتراكهما معاً في الصراع ضد الطبيعة وضد الإنسان.

حين بلغ ماتيو بريغانتي الخامسة عشرة كان يسبح سباحة جيّدة ويغطس غطساً ممتازاً. فالميديات[1] التي يقتلعها الآخرون بواسطة الكلاليب، ينزل هو إليها بنفسه، فيغطس فاتح العينين باحثاً عنها بين صخور البحر، ثم يصعد حاملاً إياها بكلتا يديه وعلى ذراعيه. فيحصل على مكافآت صغيرة عينية أو نقدية لكنّه كان أكثر تأثراً بالمديح والإطراء. وما لبثت شهرته أن ذاعت على ساحل مناكوري بأكمله حتى لم يعد يعرف إلا بلقب: ماتيو سيد البحر. إنّ صبياً في الخامسة عشرة، يحمل لقب سيد البحر، لا يمكن اليوم أن يبقى ليعمل مساعد نوتي على زورق صياد معلم. فهو قد يذهب إلى الجزر، ليكون دليلاً للأجانب من هواة الصيد تحت الماء. وقد يصير مدرّباً للسباحة أو الغطس. كما سيجد الباب مفتوحاً على مصراعيه للقيام بأشكال المغامرات كلّها، ليس فقط على صعيد السباقات الوطنية والدولية للصيد تحت الماء، بل يمكن أيضاً أن يتقدم أحد الأثرياء الأجانب ليتبنّاه فينقله إلى مجالات جديدة يصعب التكهّن بأبعادها.

إلا أن ماتيو، سيد البحر، لم يغادر بورتو مناكوري، فتلك المناسبات كلّها لمّا تكن قائمة. وحين بلغ السادسة عشرة قام غلام باعتداء على عفاف إحدى شقيقاته ثم رفض أن يتزوجها. فطعنه ماتيو بالموسى. ورأفت المحكمة

---

(١) الميدية أو بلح البحر، نوع من الأصداف. (م)

به، مثل حالها عامة تجاه جرائم الشرف، لا سيّما أنّ الغلام، وهو من شيافوني، بقي على قيد الحياة رغم إصابته بطعنة نجلاء. فحُكِم على ماتيو بالسجن لحين بلوغه الثامنة عشرة. وسمح له من بعد بالتطوع في سلاح البحرية الملكية.

أمّا في هذه الساعة فما يزال جالساً تحت التينة في بستان صديقه الوقّاف. لقد خلع سترته المخملية بلونها الأزرق البترولي فطواها بكل عناية ووضعها بالقرب منه. وجال ببصره في اتجاه البحر ودقّق النظر في الشمس المنحدرة ناحية الجزر وفي رتل الغيوم، التي ساقها الليبيشيو فردها السيروكو، فأخذت تتراجع القهقرى نحو الغرب. وشعر بأنّه على أتم الاستعداد. فبات ينتظر انصراف الوقاف والمعشبات كي يقفز من فوق الجدار وينتقل إلى بستان دون سيزار. لقد قرّر أن يغتصب مارييت.

كان قد وصل في الساعة الثانية، واحد من الواليوني، بتكليف من بيبو، حاملاً لمارييت نيطلاً فيه زيت، وشيئاً من الخبز والبندورة. فتوجّهت إلى النبع القريب من المستودع لتجدّد ماء الجرة. فقد أصبح طعامها مؤمّناً. ثم نامت حتى الساعة الخامسة.

كانت جالسة فوق الأكياس مستغرقة في إعداد المشاريع، وقد جعّد التفكير جبينها. وعبثت، وهي في زخم التفكير، بعيدان من القش وفتتتها فتساقطت متناثرة فوق ركبتيها، ثم أخذت تحرّكها وتناور بها كحجارة على رقعة شطرنج. وتنقلها كشخصيات وهمية ترمز للعوائق والتسهيلات. ثم خططت لمشروع طويل المدى مستخدمة قطع القش مثلما يستخدم المحاسب العدّادة. ونفذت أشعّة الشمس المائلة نحو الغروب من كوة الجدار فغمرتها بنور أشقر.

غادر الوقّاف والمعشبات البستان المجاور، متوجّهين إلى مناكوري عبر الدروب الجوفاء بين الأسوار العالية.

وقفز ماتيو بريغانتي من فوق الجدار بمهــارة، دون أن تعلــق ســترته المخملية ذات اللون الأزرق البترولي بشيء. وبدا خفيف الحركة رشيقاً، مثلما كان أيام الغطس على الميديات، أو التسلّق إلى أعلى الصواري فيما بعد علــى ظهر السفينة المدرسية. اقترب من كوة المستودع فأبصر بماريت التــي لــم تره. وتأخر قليلاً، لا ليضع مخططه بعناية فهو عادي يتكرّر على حاله دائمــاً في حالات مشابهة، ولا ليتلذذ مسبقاً بمتعته، لأنّها متعة آنية مطلقــة لا يمكــن التنعّم بها مسبقاً (إلا في حال روايتها أمام الملأ بحضور شخص مــا يعــاني منها، مثلما فعل أمام طونيو. فمعاناة الشخص الآخر تسبغ على الفعل الخيــالي طابعاً واقعياً) لقد تلكأ برهة قبل أن يدفع الباب ويدخل المستودع، لأنّه فكّــر، وهو يوشك أن ينقضّ على فريسته، في المفوّض أتيليو، وهــو الآخــر مــن الطيور الجارحة وشريكه في الجريمة غالباً، وكيف شاهده قبل ساعات قلائــل رازحاً تحت نير جوزبينا. فأجرى مقارنة سريعة بين سلوك المفوّض أتيليــو المخزي وسلوكه الذي لا غبار عليه.

إنّ المفوّض أتيليو، فاتن النساء الأكبر، الذي أغوى فأحضر إلى شقتهما الصغيرة الخاصة والمشتركة، أكثر نساء الأعيان في مناكوري، قد قبل أخيراً بالهزء والسخرية، أي رضي بالهوان، حين رضخ لإرادة جوزبينا أمام أعــين عشيقات الماضي، وأمام عشيقات المستقبل حسبما تحدوه الآمال. ولو كانــت لبريغانتي في جوزبينا من رغبة لنالها. لكنّ العذارى الحمقــاوات لا يجتذبنــه فهو يهوى العاقلات ويأخذهن عنوة. ويعتبر نفسه أكثر فحولة مــن المفــوّض أتيليو. وحين يتحدثان معاً عن العشق ، في مكتب المفوّض كان ذلــك أم فــي شقتهما المشتركة، فإنّ وجهات نظرهما تتعارض غالباً.

ويتظاهر بريغانتي بتصديق مآثر صديقه التقنية فيقول له:

– لكنني لا أفهمك، فأنت تعلمهن فنون الحــب كلّهــا، فتجعــل مــنهن ملاطفات مداهنات مغناجات، وعاشقات ممتازات ثم تلفظهن. فتعود منافعــك والحال هذه على الأزواج.

فيهتف المفوّض قائلاً:

- بل سأفوز بدونا لوكريزيا.

- لن يكون تفكيك الجليد عنها بالأمر السهل.

فقال المفوّض منتشياً:

- إنّها مثل الأخريات.

ثم أغرق في الضحك ليضفي على زهوه مظهراً من الاستخفاف وقال:

- ينبغي على الأزواج في مناكوري أن يقيموا لي نصباً، عرفاناً بالجميل.

إنّه لا يتفهم ميول بريغانتي ولا رغباته. ولا يبرّر له قيامه فيما مضى بطعن الذي أغوى شقيقته. فالاغتصاب، والثأر له، يصدران كلاهما حسبما يرى، عن تولّه صنمي واحد وعبادة أشياء واحدة.

وحين تقع جريمة أخلاقية في القطاع الواقع تحت سلطة المفوّض القضائية تسمعه يقول لبريغانتي:

- وهذا غبي آخر مثلك ذاهب إلى السجن بسبب بكارة أخته.

أمّا في فكر بريغانتي، فليس من تناقض بين الاغتصاب والطعن، لأن المسعى واحد. فهو يقوم بالتنفيذ.

عندما خدم في البحرية كان الضباط من طبقة أتيليو (الضباط الكبار والصغار) يرسمون الخطط ويصدرون الأوامر. فيقوم ضباط الصف بالتنفيذ (مستخدمين البحارة قبضةَ الأداة). والجلاد أيضاً يتولّى التنفيذ. إذن، ليس استخدام التعبير ذاته اعتباطياً.

ويقوم المفوّض من جانبه فيوقع بـ «الأظنّاء» والمشتبه بهم في حبائل أسئلته، بعد أن يستدرجهم نحو شراك أدلته. وهو يُقْدِم على إغواء نساء الأعيان وإغرائهن. إنها تخطيطات مدروسة من ضابط محنّك.

لكنّ الضابط يبدو أخرق تماماً حين تدفع به الظروف للقيام بالتنفيذ. وبريغانتي على قناعة بأنّ المفوّض أتيليو لا ينفّذ على سرير الواقع كل المآثر التي يتباهى بها. حتى انتهى به المطاف أخيراً الى الوقوع تحت سيطرة عذراء حمقاء.

أمّا هو، بريغانتي، فيقوم بالاغتصاب والطعن. فيحقّق ذاته، ويبرهن بقيامه بالتنفيذ على ذاته. ولهذا السبب يعتقد أنّه أكثر فحولة من المفوّض أتيليو.

ويتحوّل إلى الناحية الجسدية ليتباهى بأنّه أكثر فحولة من المفوّض. فهذا الأخير له هيكل مصارع روماني بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة. أمّا ماتيو بريغانتي فقصير مكتنز مبحتر. فحاجباه خط أسود، وشارباه نقطة سوداء. وهو عريض المنكبين، ضيّق الوركين. إنّه خنجر مسلول.

راقته رؤية ماربيت جالسة فوق الأكياس مستغرقة في تخطيط المشاريع، وهي تتقّل نتف عيدان القش فوق ركبتيها، ساردة في تفكيرها. إنّها عذراء عاقلة.

دخل المستودع وأغلق الباب وراءه دون أن ينطق بكلمة.

ولم تلق ماربيت عليه سؤالاً. بل نهضت فاحصة فألصقت ظهرها بالجدار ويداها في جيبي قميصها، قاسية النظرة، مثل نظرة بريغانتي.

امتلأت نفس بريغانتي غبطة لنظرتها تلك.

خلع سترته المخملية الزرقاء البترولية، بكل تروٍّ وثقة، فنشرها بعناية على ظهر الكرسي، متنبّهاً الى وضعية حشايا الكتفين...

ثم تقدّم صوبها بخطى صغيرة، وقال لها:

- استلقي.

فلم تؤاتِ بحركة ولم تبسْ ببنت شفة. ظلّت تسدّد إليه نظرتها القاسية إياها، دونما خوف. وأمتعه ذلك.

تقدّم أيضاً خطوتين وصفعها بكل قوة، صفعة على كلّ خد. تلك هي طريقته المعهودة. وليس من طريقة سواها لنيل عذراءَ معاندةٍ شموسٍ ما لم ينهلْ عليها بالضرب.

لم تتحرك إلا بمقدار الاهتزاز تحت كل صفعة، ولم تطأطئ الرأس أو تخفض البصر. فكرّر قوله:

- استلقي!

تقدّمت مارييت خطوة، فذهل. هل ستستلقي؟ إنّه لم يتوقّع منها ذلك.

خطت خطوة ثانية أيضاً فأصبحت ملاصقة له.

قالت:

- موساك!

ولم يتح لبريغانتي الوقت الكافي ليفهم. لقد انتضت الفتاة الموسى بيدها من جيب قميصها، وشطبت بنتوء ظهر النصل خده مرتين متواليتين بخطين متصالبين. ثم تراجعت خطوتين إلى الوراء وأسندت ظهرها للجدار.

مرّ بكفّه على وجهه وبسطها فإذا بها تقطر دماً. وفي ذات اللحظة سمع طرقة مألوفة. لقد فتحت مارييت الموسى، مطبقة بيدها على قبضتها بكل عزم.

شاهد النصل المشحوذ والمرهف كموسى الحلاقة ورأى النتوء (الذي يباعد بين طرفي القشرة بعد شقها للتطعيم) على ظهر النصل كالمهماز، أحمر مصبوغاً بدمه. فتراجع مسرعاً نحو الباب.

مشت إليه مارييت بخطى وئيدة والموسى بيدها. ومنحته بتقصير خطاها، الوقت الكافي لفتح الباب، مع مواصلة التقدم نحوه، مائلة الجبين، متحفزة للانقضاض، مرفوعة الذراع أفقياً باحتراز كملاكم خبير، والموسى في قبضتها، مصوّبة النصل على مستوى العنق.

أدار بريغانتي ظهره وعبر الباب راكضاً. فأرتجت مارييت الباب وراءه بسرعة كبيرة وأدارت المفتاح في القفل. وذهبت لتكمن واقفة وراء الكوة. رأته جاثياً على ركبتيه أمام النبع يغسل الدم عن وجهه. ثم نهض فرأت، وبكل وضوح، الخطين المتصالبين اللذين حفرتهما في خده. إنّهما خطان واضحان يتقاطعان بزوايا قائمة، وعميقان لدرجة تكفل بقاءهما ما بقي ماتيو بريغانتي على قيد الحياة.

تركت ماريت الكوة وذهبت لتتفحّص الباب. إنّ قطع الإطار الخشبية المحيطة به متآكلة، قد أعمل السوس فيها نخراً، والمفصّلات يكاد يأكلّها الصدأ. في حين يمكن رؤية السماء عبر الشقوق في ألواح الباب، التي يمكن خلعها من مكانها، بأيّة رافعة كانت، كواحدة من المذاري المرمية بإهمال فوق أرض البستان. فاستردّت الموسى من فورها بعد أن وضعتها على الطاولة.

كانت قطرات الدم التي سالت من خد ماتيو بريغانتي على الأرض، ما تزال بلونها الأحمر القاني الجميل، ذلك أنّها لمّا تجف فوق أرضية المستودع الترابية المرصوصة. ورأت السترة المخملية الزرقاء البترولية ما تزال موضوعة على مسند الكرسي.

لم يطل بها التفكير مطلقاً. بل تصرّفت بسرعة تكاد تسبق التفكير. فأخرجت من تحت كومة الأكياس محفظة جلدية لونها أصهب، نُقشت عليها حروفٌ مذهّبة، وسحبت من جيب سترة بريغانتي الداخلية محفظة جلدية سوداء، فأبدلتهما واضعة ذات الحروف المذهبة في جيب السترة والمحفظة السوداء تحت كومة الأكياس. ثم رجعت إلى مكانها قرب الكوة ووقفت تنتظر.

عاد بريغانتي نحو المستودع فتوقّف أمام الكوة. كانت ماريت واقفة متنحية قليلاً. تفرّس كل منهما في وجه الآخر لبعض الوقت. لقد توقّف النزف من الصليب المحفور على الخد بصورة شبه تامة. كانت هنالك بضع قطرات فقط تنتفخ ببطء شديد بين شفاه الجرح كفقاعات صغيرة حمراء.

شتمها بريغانتي قائلاً:

- يا مجرمة، لقد وسمتني طول الحياة.

فالتمع بريق خفيف في عينيها كأنّه الشماتة.

قال:

- سوف أقتلك.

قالت:

- فعلتُها بموساك، بالموسى من علامة الثورين...

فشتمها مجدداً بقوله:

- اللعنة على يهوذا، أنا لم أرَ مثل هذه الشريرة قط.

قالت:

- سأحتفظ بها. ربما أستخدمتُها ثانية .

قال:

- دعيني أدخل لآخذ سترتي.

فرفعت نصل الموسى إلى مستوى عينيه وقالت:

- سأحزُّ بها رقبتك إذا ما حاولت الدخول.

قال:

- إنّك لقادرة على أن تفعلي مثل ذلك.

ورازها بطرف مخفوض مثلما تفعل هي عادة. فقالت:

- حاولْ، ترَ.

قال:

- سأتركك وشأنك. دعيني أدخل فقط كي آخذ سترتي.

قالت:

- أرى أنك قادم ثانية.

فقال:

- ممَّ أنت خائفة ؟ فيداي فارغتان. ثم قام بقلب جيوب بنطاله.

- جيوبي كلّها فارغة. حريٌ بي أنا أن أخاف منك...

قالت:

- حسناً تفعل.

وراح كل منهما يتفرّس في وجه الآخر بصمت.

قال:

- يجدر بنا، نحن الاثنين، أن نكون صديقين...

- يجدر بك أن تمسح خدك.

ظهرت عدة قطرات كالفقاعات فوق شفاه الجرح. وبدأت خيوط دقيقة حمراء تسيل على خده. فمسح ماتيو بريغانتي خده بالمنديل الذي غسله عدة مرات في حوض النبع.

قال:

- أصغي لي...

وعادت لصوته نبرته القاسية.

-... لقد وسمتني، وعليك أن تدفعي الثمن. وليس لديك إلا طريقة واحدة لنيل الصفح. دعيني أدخل، وأستلقي..

وضحكت بصمت.

- افتحي الباب.

قالت:

- سأعطيك سترتك.

ومضت فأخذت السترة من على مسند الكرسي ثم اقتربت من الكوة.

كانت تمسك السترة بيد وتقبض باليد الأخرى على الموسى المفتوحة.

قالت:

- سأعطيك إياها. لكنْ حذار. إنْ تمدُدْ يدك أقطعْها.

وناولته السترة عبر الكوة فأخذها دون أن يحاول القبض على ذراعها.

قالت:

- ها قد بدأت تفهم.

وارتدى السترة.

قال:

- لو شئتِ فقط...

وبدا صوته متهدِّجاً.

-... أنا لم أرَ قط مثل هذه الشريرة.

وازداد الصوت ليونة فصار شبه رقيق.

- ... لو وضعنا يداً بيد... وارتحلنا معاً صوب الشمال. إنّ فتاة من معدنك... العالم كلّه سيكون ملك أيدينا. أنا غني كما تعرفين... هل يتبقى من شيء نعجز عن تحقيقه؟...

وضحكت بصمت. ثم قامت بكل هدوء فأغلقت الكوة بمصراع خشبي يُدفَع من الداخل.

دقّ بريغانتي بطرقات خفيفة على المصراع الخشبي.

- أنا غنيّ، كما تعلمين. أنا غنيّ، يا مارييت، أنا غني جداً.

ولمّا يأته من جواب. فانصرف.

* * *

عند الصباح، خرج دون سيزار لصيد دجاج الماء في السبخة. مشى طويلاً بخطاه الكبيرة الصامتة، يتبعه طونيو، حاملاً الجعبة، وهو يتصبّب عرقاً. وحين يرتفع الطائر من بين القصب، يطلق عليه النار غريزياً، كأنّه يرمي البندقية. فهو يباشر حركة الرمي، فيرسم رأسُ السبطانة خطاً منحنياً، ثم يثبت لتنقذف رشقة الخردق، لا بتأثير انفجار البارود داخل العبوة، على ما يبدو، على قدر ما هو بتأثير الحركة السريعة المقتضبة بدقة وبمنتهى الأناقة، فتندفع في الهواء وكأنّها خاضعة لإرادة دون سيزار نفسه أكثر من خضوعها لقوانين الحركة. فتصفع الطائر مباشرة، فيواصل الطيران برهة أيضاً، لكنّ هبوطاً نحو القصب. فيوالي التصفيق بجناحيه إنّما بتحليق متعثر،

كأنّما هو أقلّ تأثّراً بتلك الصفعة المباشرة من رشقة الخردق، من تأثره، بل من خضوعه لإرادة دون سيزار، المتحوّلة إلى قوة مادية متمثلة في حركة الذراع المفاجئة تلك، رافعة البندقية حين تشبثت بعنق الطائر، وبالخوافي تحت الجناحين الكبيرين المبسوطين، فأطبقت عليه وأحكمت الخناق شيئاً فشيئاً، فأرغمته على الانحدار ثانية إلى الأرض السبخة.

حين أطلق دون سيزار النار ليقتل دجاجته الرابعة، أحسّ في اللحظة نفسها بذراعه كأنّما قد انعقدت. سبق أن أصابه مثل ذلك مرات عدة في بحر السنين الأخيرة. فكان ينسِب الأمر إلى طريقته في الرمي الغريزي، السريعة المقتضبة الحاسمة والتي هي في منتهى الأناقة، إذ يمكن أن يكون أسلوبها قد ازداد مبالغة مع التقدّم في السن، فصار الاقتضاب قسوة وتشنّجت العضلة. كانت الذراع والكتف والورك تظل مخدّرة لبضع ساعات أحياناً. فتلفّها إلفيرا بكمّادات ساخنة. أمّا العجوز جوليا فهي على قناعة بأنّ كل ما يُربط ويُعقد لا يكون إلا من إصابة عين. وإنّ فكّه لا يكون إلا برُقْية. فتحضِر طاسة فيها ماء وزيت.

- أنظر الى العين، يا دون سيزار.

ثم تشرع في تلاوة الرقية التي سترغم العين الشريرة على الخروج على شكل عين واحدة أو عدة عيون لتطفو على وجه الطاسة.

لا يؤمن دون سيزار من جهته بالإصابة بالعين ولا بالرقية. رغم اقتناعه بأنّ السحر يبقى نسبياً، وفقاً لما يقول في الغالب، أكثر عقلانية من الدين والطب. ولهذا فإنّه يحدّق في السائل داخل الطاسة حتى تتشكل العين، إرضاءً لجوليا ولكي يدخل السرور على قلبها، وأيضاً بشيء من التحدي للدين والطب، وشيء من التكريم لذكرى مدينة أوريا القديمة، حيث كانت تمارَس فيها هذه الطقوس. ولو لم يكن جاحداً من حيث المبدأ بتلك الخرافات، لخضع لها تمشياً مع تقاليد حاضرة أوريا القديمة، بوصفه واحداً من آخر الأسياد فوق تربتها، أكثر من خضوعه لخرافات الدين وأوهام

السياسة. وتنحلُّ عند المساء أو في اليوم التالي عقدة التشنّج أو التقلّص العضلي، في الذراع والكتف، ليعود إلى عهده عجوزاً متين البنية، وأعظم الصيادين مهارة ورشاقة.

وصل إلى الدار ذات الأعمدة مع حلول الظهيرة (في نفس الساعة التي بدأ فيها كل من فرانشيسكو بريغانتي ودونا لوكريزيا يردّد كلمات حبه على مسامع الآخر في المغارة عند رأس بورتو مناكوري، قرب الترابوكو). ونزل بعد القيلولة إلى القاعة الكبرى ليستوي على الكنبة النابوليتانية من القرن الثامن عشر، ذات المساند الخشبية المحفورة المذهبة. وقد لُفّت كمّادات على ذراعه ووركه تحت ثوب الراحة الفضفاض الذي لبسه، وهو من الحرير الأزرق السماوي (ظهرت من الجيب الصغير على الصدر زاوية منديل من الحرير الأبيض)، تحفّ به النساء الثلاث من أهل داره، هنّ العجوز جوليا وماريا زوجة طونيو وإلفيرا، شقيقة ماريا، عشيقته حالياً.

قرع المهندس الزراعي الباب المفتوح ودخل.

حثّت ماريا الخطى باتجاهه لتفادي اقترابه من دون سيزار والتحدث إليه.

قال المهندس:

- أتيت لأرى إن كنتم ما زلتم موافقين بالنسبة لمارييت.

أجابته ماريا:

- نحن دوماً على اتفاق .

واقتربت العجوز جوليا بدورها وسألت:

- من أجل ابنتي؟

كان واقفاً في مواجهة المرأتين، بخدّيه المتورّدين الغضّين لرجل من الشمال، وذلك الانطلاق الخاطئ، وهيئةٍ تتنازعها الثقة بالنفس وعدمُها، تميّز المهندسين الزراعيين، الذين يحيطون بمعارف عن العمل الزراعي ومهنة التعامل مع الأرض لا يمكن للفلاح أن يبلغها، لكنّهم يعرفون في الوقت ذاته

أنّ الفلاحين واقفون لهم بالمرصاد. وأنّهم ينتظرون أقل هفوة وأصغر كبوة للتشكيك بعملهم وإعادة النظر فيه. وهذا ما يجعل كل تصرفاتهم مطبوعة بطابع التشنّج، بما فيها تلك التي لا تمت إلى عالم التقنيات الزراعية بصلة.

قال:

- جئت لأرى إن كنا ما نزال على اتفاق.

فقالت جوليا:

- نحن على اتفاق وبالشروط نفسها.

قال:

- حسناً، بوسعها البدء هذا المساء. وسأحمل حوائجها في سيارتي.

فقالت جوليا:

- إنّما اليوم...

فقالت ماريا:

- ذهبت إلى عند خالتها... في فوجيا...

فعقّبت جوليا قائلة:

- خالتها في فوجيا مريضة.

فقال المهندس:

- لا بأس، لا بأس، سوف تبدأ غداً. وسأحضر لآخذها في فترة بعد الظهر.

قالت جوليا:

- قد لا تكون رجعت غداً مساء.

فأضافت ماريا:

- لأنّ خالتها مريضة.

واقتربت إلفيرا بدورها لتقول:

- قد يكون من المستحسن أن لا تبدأ مارييت إلا في الأسبوع القادم.

فارتفع صوت دون سيزار، مهيمناً على الأصوات الأخرى كلها صائحاً:

- تعال اجلس هنا.

ولانت النساء بالصمت. ونظر المهندس الزراعي إلى ماريا مستفسراً فقالت:

- يريد التحدث إلى حضرتك .

فكرّر دون سيزار طلبه:

- قلتُ لك أن تأتي فتجلس هنا.

فقالت إلفيرا بحيوية:

- دون سيزار راغب في التحدث مع حضرتك.

تقدّم المهندس الزراعي نحو الكنبة. فهو لا يرتاح لطريقة كبار الأسياد في الجنوب وهم يتحدثون الى الموظفين الشباب بتعالٍ وفوقيّة، كأنّهم من رجالهم أو أهل دورهم.

دلّه دون سيزار على المقعد الخشبي ليجلس عليه في مواجهة الكنبة.

قال له:

- اجلس.

وجلس اللومباردي، والنساء يتبعنه.

فصاح بهن دون سيزار:

- اتركننا وشأننا، يا حريم.

ابتعدت كل من ماريا وجوليا حتى نهاية القاعة، عند الموقد. فقال دون سيزار لإلفيرا:

- وأنتِ أيضاً.

فمضت إلفيرا لتنضم إلى الاثنتين الأخريين.

قال دون سيزار:

- كم عمرك؟

فأجاب اللمباردي:

- ثمانية وعشرون.

- ألمْ تدركْ أنّهن دبّرن دسيسة لإرغامك على الزواج من مارييت؟

- قيل لي ذلك.

- أنت لا تعرف الجنوب. ولن تقدر أن تتخلص.

- سوف نرى.

- لِمَ لا تتزوج؟

- لست رافضاً الفكرة.

- ألديك المال؟

- لدي مرتبي.

- ليست الحكومة، على كل حال، هي التي موّلت القصر الذي بنيته من أجل عنزاتك.

- حصلتُ على إرثٍ صغير. وأنفقتُ كل ما أملك على التجهيزات.

- هل أنت مقتنع بذلك؟

- إني أحب مهنتي.

- بوسعك أن تتزوج ابنة أحد أصحاب الأملاك.

- لا أفكر في ذلك.

- لا يصلح أبناء مُلاّك الأراضي عندنا، إلا للمحاماة أو ليصيروا نواباً. هذه هي حال الجنوب. إنّ المهندس الزراعي يمكن أن يقدّم نفعاً لمالك الأرض. وأعتقد أنّ دون اوتافيو يوافق على إعطائك إحدى بناته. فهل ترغب في أن أتحدث إليه بالأمر؟

فقال المهندس الزراعي:

- أنا لا أسعى وراء البائنة.

تفرّس فيه دون سيزار: حدّق بالجبين المحدّب والوجنتين المتوردتين لرجل من الشمال. وتلك الطلعة العنيدة والطفولية لفتى قام بدراسات عليا.

قال دون سيزار:

- كان لدينا مهندسون زراعيون في القرن الخامس قبل الميلاد. وتلال الماعز الواقعة في الجانب الثاني من البحيرة كانت مرويّة آنذاك...

فرد عليه قائلاً:

- لست أرى من علاقة.

فكر دون سيزار في نفسه: «أيها الفلاح الذي يعتقد أنّ علْمَه فلاحاً يؤهّله لاكتساب حق المواطنية عندنا. لكي تصبح مقبولاً بيننا، نحن أقدم الحضريين في العالم، لا بدّ لك من أن تجيد آداب السلوك». ثم فكّر أيضاً: «لقد غاصت آداب سلوكنا في السبخة، وغارت في الكثيب، مع حضارة أوربا النبيلة في وقت واحد. فلم يبقَ لنا إلا الخرافات». ولم يشأ الانتقاص من قيمة الشاب فقال:

- أنت على حق.

وسأله المهندس الزراعي بلهجة تهجمية:

- حضرتكم لا توافقون على دخول مارييت بخدمتي؟

- إنّها تفعل ما تريد.

- إن كان هنالك من معارض، فالأجدر أن تكون أمها، لا حضرتكم.

فسأله دون سيزار:

- وما مدى معلوماتك عن واقع الأمر؟

- إنّ حق التفخيذ قد صار باطلاً[1]

(١) هو حق السيد الإقطاعي في التمتع بالعروس في الليلة الأولى. (م)

وفكر دون سيزار: «يا لك من لومباردي غبيّ جداً».

ثم سأله:

- إذن أنت تفكــر في الزواج منها؟

- لا يتعلق هذا الأمر إلا بها وبي، وبأمها إلى حد ما.

- لقد فهمت. فأنت تفضل أن تنالها دون زواج. لكن إنْ ألزموك بأخذها إلى عند الكاهن فسوف ترضخ وتذهب إلى الكاهن.

قال اللومباردي:

- هذا من شأني.

ونهض قائلاً:

- أعتقد أن حديثنا قد انتهى.

فقال دون سيزار:

- أُقعد.

واعترض اللومباردي قائلاً:

- لم يبق لدي ما أقول لحضرتكم.

إلا أنّه جلس.

فكر دون سيزار كيف أنّه حين كانت تأخذه الرغبة في بكــارة إحــدى فتيات داره كان ينالها دون إثارة أدنى اعتراض. وأنّه إذا منح ماريبيــت لهــذا اللومباردي، فإن أهل بيته سيعتبرونه صاحب حق، إذا ما فرض بأن تمــضي بادئ الأمر ليلة معه أو ما يشاء من الليالي. ومن ثمّ تقوم نساء داره باصطناع بكارة للفتاة من أجل الأجنبي (تماماً مثلما حصل مع القديسة أورســولا بنــت أوريا). أمّا وأنّه رجل ثقافة فقد ذهب بفكره، في الوقت عينــه، إلــى كافــة التفسيرات التاريخية والاجتماعية والبيولوجية والمتعلّقة بالتحليل النفسي، التي يمكن أن تُعطى لذلك التبجيل الذي تحاط البكارة به، والرغبة فــي اغتــصابها في ذات الوقت. وكيف يشكل ذلك عملية استحواذ على الفكر فــي الجنــوب.

وكيف أنّه لا يشاطر أبناء الجنوب هذه الخرافات. وكيف أنّه لم يخصّ نفسه ببكارة كافة الفتيات في داره. كان يأخذ الفتيات أو النساء حسبما يرغب دونما حرص على متعته، أبكاراً كنّ أم لا. وأن لا فائدة ترتجى من إطالة الشرح مع المهندس الزراعي، الواثق من تفوّقه المزدوج، تقنياً ورجلاً من الشمال، حول التشريع الحاسم وغير المكتوب في الجنوب، بلد المشرّعين. وأنّ هذا الموظف الديمقراطي المسيحي سيغتاظ بحدة، معترضاً على واقع أنّ تشريع النبلاء من العهد الإقطاعي ما يزال سائداً في الجنوب ومعترفاً به ضمناً وبشكل مطلق. وأنّه مهما يكن من أمر رغباته وآرائه في مسألة العذرية، فقد قرّرهو، دون سيزار، استخدام ذلك الامتياز بشأن مارييت.

عيل صبر اللومباردي وهو جالس في مواجهة عجوز تجول في ذهنه كل تلك الأفكار بصمت.

فسأله:

- ماذا لدى حضرتكم لتقول لي؟

تذكّر دون سيزار أنّه في صباح هذا اليوم نفسه ، اتخذ وهو في الصيد، وقبل انعقاد ذراعه تحديداً، قراره بأن تكون بكارة مارييت له. فقد تذكر وهو يمشي مترصّداً الطيور الثقيلة، أحداث الليل، ومارييت وهي جالسة عند قدميه فوق مقعد خشبي صغير ترصد أمها وشقيقتها من فوق ركبتيه، وتذكر غناء الفتاة وهي تدور حول الدار. وأحسّ فجأة بأنّ قراره قد اتخذ.

فردّ على اللومباردي قائلاً:

- ليس لديّ ما أقول لك.

- حضرتكم طلبتم مني الجلوس.

- مارييت لا تريد الذهاب لتعمل عندك.

- لكن ها هي أمها تقول لي عكس ذلك.

- اسأل الصغيرة.

- أين هي؟

فأجاب دون سيزار:

- ما من أحد يعرف عنها شيئاً.

ومضى اللومباردي بخطى كبيرة مغمغماً، نادباً حظه الذي أرغمه على العيش بين فلاحي الجنوب المتخلّفين، والملاكين الكبار الأكثر تخلّفاً منهم أيضاً.

وصاح دون سيزار:

- إلفيرا.

فاقتربت إلفيرا.

- بدّلي كماداتي.

أسرعت إلفيرا إلى الموقد حيث يسخن الماء على ركّابة فوق الفحم.

اقتربت جوليا وماريا من الكنبة. وعاد طونيو ليشرف على عمل النساء وحسن تأديتهن للواجب. وظهر أولاد طونيو وماريا فأقبلوا يشكّلون حلقة. وشعر دون سيزار بأنّ عضلات فخذه قد بدأت تتقلّص أيضاً، فلم يقل لأحد شيئاً. وجرى تبديل الكمادات.

قال دون سيزار:

- يا إلفيرا، سوف تنامين بدءاً من هذا المساء في غرفة جوليا.

كان زوال النعمة في الدار يجري دائماً على هذا النحو. وامتقع لون إلفيرا. كان لابدّ لذلك الأمر من أن يحدث. وهي تعرف هذا على الدوام. لقد انحدرت إلى مستوى الخادمات مثل أمها، العجوز جوليا.

قالت جوليا معترضة:

- لم يعد في غرفتي من مكان.

- إلفيرا تنام في سرير ماربيت.

- ماربيت ستعود.

فقال دون سيزار:

- ماريت لم ترحل البتة. إنّها مختفية فقط لأنّكم تخيفونها. وحين ترونها قولوا لها أن تأتي لتراني.

ونهض من مجلسه فوق الكنبة النابوليتانية معتمداً على مسنديها من الخشب المحفور والمذهب. فبدت عضلات فخذه وقد تقلّصت بدورها.

قال:

- عكازي.

هرع طونيو لإحضار العكاز ذات القبضة الذهبية. وانتظر دون سيزار معتمداً على مسند الكنبة، محدّقاً في وجوه النساء بنظرة أفقدتهن الجرأة على الكلام.

قال:

- أنا ماضٍ لأعمل. لا أتحمّل أي إزعاج.

وبلغ الباب القائم في صدر القاعة، متوكئاً على عكازه. وسمعوا مطوّلاً وقع خطاه وطرق العكاز على أرض الممر وفوق الدرج، ثم في قاعات العاديات.

* * *

توجّه ماتيو بريغانتي نزولاً نحو بورتو مناكوري، عبر الدروب الجوفاء، بين الأسوار العالية المحيطة ببساتين البرتقال والليمون.

كان موسوماً. وأخذ يفكّر في كونه موسوماً، واقعةًجديدةً ومستبعدة الحدوث سابقاً، إلى حد أنّه لم يواجه قطّ مثل هذه الإمكانية، وهي خارقة على قدر ما تتعلّق به. حتى أنّه كان بعيداً كل البعد عن قياس نتائجها كلّها، حين وقع له ذلك قبل قليل، على يد ماريت، وبموساه الخاصة ذات علامة الثورين. فهذا الصليب ثابت ومحفور فوق خده، ولن يمّحي.

قلائل جداً هم الرجال الذين سيجرؤون على طرح أسئلة عليه، ناهيك بمجرّد التلميح الذي يكشف أنّهم قد رأوا الوسم. لكن هنالك الذين سوف

يجرؤون. كيف سيكون حياله، على سبيل المثال، سلوك شركاء الأمس في لعبة «القانون»؟

لن تطاوع الجرأة طونيو ولا الأميركي، أمّا الأسترالي فسوف يسأل بكل تأكيد، دونما رغبة في إهانته طبعاً. وستظهر في لهجته رنّة اعتبار، إلا أنّه سيسأل. وبيزاشيو أيضاً سيسأل، على طريقته الخاصة، عارضاً مساعدته: «إن كانت تعترضك مضايقات، فأنا لها»، «وإذا كان لا بدّ من الضرب، فأفضّلُ ألا تقوم أنت بذلك، سأضرب أنا بدلاً عنك»، ولسوف يبتهج سراً بكل مكر. سيردّ بريغانتي على سؤال الأسترالي بقوله: «إنّ الرجل الذي فعل بي ذلك قد مات».

كلا، إنّها إجابة سيئة ولن تخدع أحداً. بلى، إنّها إجابة حسنة وسوف تقضي على الرغبة في طرح أسئلة أخرى. أمّا بخصوص بيزاشيو فحسبه أن ينظر في وجهه حتى يشلّ لسانه. لكن ما العمل إذا رآه دون روجيرو وقال له ضاحكاً:

- لقد أُصبت بخدوش إذن، أيها الديك؟

فبمَ يجيبه؟ ستتملكه الرغبة في قتله. لكنّ رجلاً يملك ثروة طائلة، مثل ماتيو بريغانتي، لا يقتل هكذا لأتفه الأسباب، ولو ردّ على دون روجيرو بأنّ الرجل الذي فعل ذلك قد مات، كما ينبغي أن يكون، فإن دون روجيرو سيضحك بوقاحة أكبر قائلاً:

- إنّ ذلك سينكشف.

«إنّ الرجل الذي فعل ذلك، إنّ الرجل الذي وسم ماتيو بريغانتي»...

لكنّها في واقع الأمر بُنَيّة غيرُ راشدة ولا بدّ لها من أن تتباهى بفعلتها. وتسمّر في مكانه جامداً أمام هذه الفكرة التي لم تخطر منه على بال حتى الآن، وفي تلك الصورة. لقد وُسِمَ بيد عذراء صغيرة ستمضي لتفاخر المدينة كلّها بمأثرتها. لا مناص له من العودة إلى البستان والطلب إلى ماريبت

كتمان السر، والتأكيد عليها، تحت طائلة التهديد بالقتل، ألا تزهو بأنّها وسمته، بل التوسّل إليها واستدرار عطفها وتقديم المال لها وتنفيذ كافة متطلباتها. لكنّه رأى بعين الخيال جواب مارييت في ضحكة صغيرة وبريق تهكّم في العينين. إنّها مثله، فلا يسعها أن ترضخ.

سوف تعرف المدينة كلّها على هذا الأساس، ومعها المقاطعة كلّها، أنّه قد وُسِمَ من قبل عذراء. ومهما يكن غنياً، وحتى لو قرّر أن يقتل ليستردّ اعتباره، يظلّ التساؤل قائماً: بمن سينفّذ حكمه؟ لا يسعه أن يقتل ثُنَيّة صغيرة ولا واحداً من الواليوني، فحجم الضحيّة والحالة هذه، لا يتناسب أبداً مع كرامة ماتيو بريغانتي.

لم يبقَ أمامه سوى الرحيل. عليه أن يغادر مناكوري للتو. ولسوف يسهر بالمراسلة على قيام ابنه بحماية ثروة العائلة. وسوف يُعامَل، أينما ذهب بفضل ما يملك من مال، بوصفه أحد أبناء الطبقات العليا. لكن لا، فهو موسوم. إنّ الصليب المحفور على خده، والذي لن يَمّحي، ليس ندبة من أي نوع كان، ولا هو ندبة مشرّفة خلّفها النزال في مبارزة، مثل النوع الذي يظهر على بعض السوّاح الألمان الذين يقصدون موانئ الجنوب بحثاً عن الغلمان، وإنّما هي وصمة خزي وعار، تشبه الأذن المشقوقة للغشاشين في بلد لم يعد يتذكّر اسمه.

واصل السير متفكّراً في المشكلة من كافة وجوهها. إنّه ماتيو بريغانتي، إنّه الرجل الذي كزّ دوماً على أسنانه. ويوم دخل السجن، تلقّى ضربات الحراس دون أن يطرف له جفن. ولم يردّ على استفزازات السجناء الآخرين. وطول فترة إقامته في السجن، وضع عزّة نفسه على الهامش، لأنّه قرّر أن يطلّق سراحه مع انتهاء مدة محكوميّته. انخرط في سلاح البحرية ليخرج من السجن قبل انتهاء المدة. ومن جديد وجد نفسه مرغماً على وضع عزّة نفسه على الهامش حتى صار عريفاً بحرياً، حينئذ فقط تعارك بالسيف، وبحجة واهية، مع عريف بحري آخر كان قد أهانه وهو ما يزال بحاراً.

كانت الذريعة الظاهرية للعراك تتماشى وقانون الشرف العسكري، مع أنّها مزرية في نظره، إلا أنّه اختار ذريعة من هذا النوع كي يغضّ الضباط النظر عنه تسامحاً، متساهلين حيال ضابط الصف هذا، والذي يحاول الارتقاء إلى مصافهم. صحيح أنّها محاولة يائسة إلا أنّها تُبذَل بمجهود مستلطف، يستدرّ العطف. فباذل الجهد يخاطر بتعريض نفسه للقتل على يد زميله، أو بقتل زميله، في سبيل الظهور أهلاً لاعتناق مفهومهم عن الشرف. إلا أنّ السبب الحقيقي (والضباط يجهلونه) يتعلّق بمفهوم الشرف المناكوري.

فالعريف البحري أفرط في استخدام السلطة التي تمنحه إياها رتبته، بفرض سلطته على بحار عادي، حين قام قبل عامين بامتهان كرامة بريغانتي بوصفه ابناً وعاشقاً، فشتم أمه وشتم عشيقته(التي صارت زوجة له فيما بعد حين حملت بفرانشيسكو)، وذلك على مرأى ومسمع من كافة أفراد الطاقم المصطفين على ظهر السفينة. ولقد وُسِم الرجل مدى الحياة بشروخٍ عريضةٍ في وجهه وصدره، فأُودِع بريغانتي المعتقل دون أن يفقد رتبته، أي مثلما توقّع تماماً.

أمّا الآن فهو الموسوم، وبيد عذراء. تلك هي الفكرة المميتة التي تحتقر قلبه طول فترة نزوله نحو بورتو مناكوري.

قال في نفسه، بعد أن تذكّر واقعة مبارزته بالسيف: «أمّا الآن فليس ثمة من تكافؤ بين إهانةٍ جاءت من عذراء وبين كرامة رجل مثلي». وهو سيعرف، بالإضافة إلى ذلك، كيف سيرغم من يضع عدم التكافؤ الكبير هذا موضع شك، على الرجوع في كلامه، بل إنّ الفارق بين المُهان والإهانة كبير إلى حد إبطال الفعل وجعله لاغياً. ليس عليه إذن إخفاءُ مصيبته، بل القيام، خلافاً لذلك، بإظهارها والإعلان عنها بكل صلف وتبجّح، لتصير تافهة دون أدنى قيمة.

فقرّر دخول حيّز التجربة على الفور. وبدلاً من اللجوء إلى بيته، توجّه إلى منهل نادي الرياضة، مثلما كان مقرراً في البداية.

توقف عند منتصف الممشى الأوسط وأخرج منديله الملطخ، ومسح بهدوء قطرات الدم التي انتفخت فوق شفاه الجرح المزدوج. ودار في الوقت نفسه بحثاً عن أنظار الزبائن. فكانوا يشيحون بنظرهم عنه حين تستقرّ عليهم عيناه.

اقترب من المنهل وطلب كأس كونياك فرنسي. وترقب عيني الخادم جوستو ثم لمس بإصبعه طرف الجرح ليثير لديه تساؤلاً. ورفع جوستو حاجبيه مستفسراً.

فقال بريغانتي:

- إنّها عذراء. لقد وسمتني وأنا أغتصبُها.

قال ذلك بصوت عالٍ حتى يسمعه الجميع.

فقال جوستو:

- دمٌ بدم. ليست إهانة يا سيد بريغانتي.

فكرّر ماتيو بريغانتي قائلاً:

- دمٌ بدم .

ثم استدار نحو القاعة وأجال نظره على رواده.

بعدها أضاف:

- دمٌ بدم. ذلكم هو شعاري.

فسأله جوستو:

- هل يسعنا أن نعرف من هي تلك البكر؟

أجاب بريغانتي:

- كلا. فأنا رجل شهم.

وضحك ثم أضاف:

- لكن من المحتمل أن تتباهى هي بذلك.

ومدّ يده فأخرج محفظته ليدفع.

لكنْ تلك لم تكن المحفظة الجلدية السوداء الشهيرة، المعروفة لدى جوستو وكافة روّاد ملهى الرياضة، والتي ما من أحد من مناكوري إلا وقد أوْدع فيها نصيبه، من ضريبة أو غرامة. فالمحفظة من جلد بلون أصهب نُقِشت عليها حروف ذهبية.

وعلى الرغم من رباطة جأشه المعهودة، التي تدرّب عليها طويلاً، بدءاً من السنين التي كان يكزّ فيها على أسنانه، وانتهاءً بمرحلة الابتزاز الحالية، فقد قلّب المحفظة الغريبة بين يديه طويلاً وهو يتفحّصها، ثم فتحها. كانت إحدى جيوبها فارغة، ووقع في جيب آخر على أوراق لم يعرف كنهها، ولاحظ أنّ جوستو قد حوّل نظره عنه، لكنّه كان يراقبه في المرآة، فأعاد المحفظة بهدوء إلى جيب سترته المخملية بلونها الأزرق البترولي. وقال للخادم:

- سجّل هذا على حسابي.

فأجاب جوستو:

- عفوك، يا مسيو بريغانتي.

* * *

جلست ماربيت قرب حوض النبع تنتظر قدوم بيبو.

وقبيل غروب الشمس فيما وراء الجُزُر، ظهر فجأة من بين الأقنية الترابية حيث تجري المياه الصافية.

قالت بكل اتزان:

- لقد وَسمتُ ماتيو بريغانتي.

وروتْ له الواقعة كلها باستثناء تبديل المحفظتين. فأصغى إليها وعيناه تحت ضفائره السوداء المنسدلة على جبينه تتوقدان شرراً. ثم قال:

- هذا حسن. هذا حسن...

ودخلا الى المستودع لتريه ميدان المعركة. ودلّته على قطرات الدم التي حال لونها إلى البني، ثم صارت بلون الصدأ.

طُرِحَتْ أسئلةٌ عديدةٌ على بساط البحث فناقشاها معاً.

منها مثلاً: كيف اكتشف بريغانتي مخبأ مارييت؟ كـان بيبـو يـرفض بإصرار أن يكون ذلك بوشاية من أحد الواليوني المكلّفين بـصيانة الأقنيـة الترابية. فسبق لمارييت أن تنازعت مع أمها جوليا ومع شقيقتيها ماريا وإلفيرا مراراً وتكراراً وغادرت البيت على إثر ذلك لتلجأ إلى مستودع بـستان دون سيزار هذا، إلا أنّها كانت تلجأ إلى مستودعات بساتين دون سيزار الأخـرى، وأحياناً إلى الأكواخ الحجرية القائمة فوق تلال الماعز التابعة لـه، وأحيانـاً أخرى إلى الأكواخ الخشبية في بساتين الزيتون أو إلى بيوتـات القـش فـي السبخة. ومرة أمضت الليل في برج شارل كان فـوق رأس البـرزخ، وهـو ضمن حزام الأبراج التي أقامها الإمبراطور على شواطئ الجنـوب، ليـصير فيما بعد مستودعاً للأعلاف. وإذا كانت قد توجّهت إلى هذا البـستان عينـه فإنّما فعلت ذلك لأنّها كانت متفقة عليه مسبقاً مع بيبو، الذي كان واثقـاً مـن الواليوني المكلفين بأعمال الصيانة. أيمكن أن يكون الغـلام المكلـف بجمـع الحليب قد وشى؟ هذا مستحيل لأنّه لا يعرف دلالة الرمـز المرسـوم علـى الحجر الكيلو متري (دائرة وفي داخلها صليب). فقد كان من المتفـق عليـه مسبقاً أن تحيط مارييت بواسطته بيبو علماً، إذا ما نشأ نزاع جديد بينها وبـين أمها وشقيقتيها، أو أي حادث طارئ آخر يمكن أن يؤثر على سـير الخطـط التي قاما بوضعها معاً، ويدفع بها إلى الهرب من الدار ذات الأعمدة.

كانا يناقشان تلك المسائل كلّها بجدٍ وحرارة، وفورة فرحٍ ضمني تنعكس على كل ما يقولان، لأنّهما حققا النصر على ماتيو بريغانتي.

قال بيبو:

- من الممكن أن يعود. لا ينبغي أن تبقي هنا.

- لا أخشى شيئاً والموسى معي.

- حتى ولو كانت الموسى معك، إنّه ماكر، وسيجد الوسيلة لانتزاع سلاحك.

فقالت مارييت:

- ابقَ معي.

لم تكن الفكرة قد خطرت بباله.

قال:

- بكل تأكيد.

ولزما الصمت. جلسا فوق الأكياس، يداً بيد، مثلما كانا عند الصباح جالسين يداً بيد، على حافة حوض النبع، وبيبو يروي المآثر الليلية التي قام بها الواليوني. أمّا الآن فإنّهما جالسان بصمت، وكلٌ منهما يفكّر في هذه الليلة التي سيمضيانها بطولها معاً، جنباً إلى جنب. لم تكن قد فكرت مسبقاً في أن تطلب إليه البقاء. لقد تفوّهت بذلك في سياق المناقشة.

وها هما لأول مرة يتردّدان في جعل نظراتهما تتلاقى.

سبق لهما أن التقيا مراراً في النهار وفي الليل، في السبخة وفوق التلال وعلى الكثبان وفي البساتين وحتى في غابة الظل نفسها. كانت تلك اللقاءات لتنظيم عمليات السلب والنهب. كان دوماً يستشيرها ويطلب إليها النصح، قبل الانطلاق في أي مشروع مع الواليوني. وعلى الرغم من أنّ بعض المشاريع كان أحياناً على جانب عظيم من الأهمية، مثل سرقة فيسبا الدركي، أو السرقة الأخرى التي تفوقها أهمية، والتي كان من نتائجها (لمّا يدرِ بيبو بذلك) تبديل محفظة ماتيو بريغانتي بمحفظة من الجلد الأصهب. إلا أنّ اللهجة التي كانا يتحدثان بها كانت دوماً لهجة الطفولة.

لقد صرّح كل منهما بحبه للآخر. ولن يفترقا مطلقاً، فهذا الأمر مسلّم به. ولسوف يتزوجان، وهذه نتيجة طبيعية. وقبل فترة قصيرة قررا الهروب معاً من مناكوري، وجاءت المصادفة مع شيء من سعة الحيلة لتهيء لهما الوسيلة. فهما ليسا على عجلة من أمرهما. إلا أنّه لم يسبق لهما أن تبادلا الملاطفات ولا حتى القُبَل فماً لفم. ولم يجدا نفسيهما يكبحان الرغبة في ذلك،

إذ ليسا من المتشددين المتزمتين. ولو انّهما وجدا في نفسيهما الشوق لتبادل القبل على الفم وتاقا إلى ملاطفات العشق والوصل، لفعلا ذلك دونما تردّد ولا حيرة، نظرا لأنهما زعيما عصابة الواليوني ومعتادان على خرق القوانين كلها. إلا أنّهما لم يجدا نفسيهما راغبَيْنِ في ذلك حتى الآن.

ولم يكن بيبو جاهلاً بحركات الحب التي مارسها بصحبة الفتيان الآخرين مع الماعز أو وحده أو لمرّات متعددة مع فتيات دار بوردّو البانيزي بعد الاحتيال على شرط السن. وعرف شيئاً من المتعة في أغلب الأحيان، زيادة أو نقصاناً تبعاً للظروف، لكن النقصان كان أكبر. فالفتيات دوماً على عجلة من أمرهن، إلا مرة واحدة توفّر فيها لديه المال اللازم لنصف ساعة، فعلّمته الفتاة أثناءها الكثير من طرائق الحب وفنونه. إلا أنّه لم يُقِمْ حتى الآن أيّ رابط بين ملذات تلك الحب وبين حبه لماربيت. كان يستمتع بصحبتها، ويجعلها المؤتمنة على أسراره، وغالباً ما تكون الموجّهة لمنجزاته ومآثره، ومن المتفق عليه أن تصير زوجته. سوف يستمر التواطؤ بينهما إذن بلا نهاية. إلا أنّه لم يكن يطابق بين فكرة أن تصير زوجته وبين الفكرة الأخرى بأن تكون هي نفسها شريكة ملذاته في الحب. كان يعلم أنّها ستصير إلى ذلك. دون أن يطيل التوقف عند تلك الفكرة. لا بل كان يتحاشى التفكير فيها.

كان ضرورياً، بوصفه زعيم الواليوني وفي حالة صراع دائم مع كافة البالغين في مناكوري، أن يراقبهم بعمق وعن كثب. فالأغنياء يستولدون نساءهم أولاداً، لكنّهم يتوجّهون من أجل ملذات الحب إلى الدور في فوجيا، أو إلى عشيقة متخصصة في أساليب المتعة، مثلما ستصبح جوزيبينا بالنسبة للمفوض أو لأحد ما غيره. وليس إلا الفقراء يقتصرون في ممارسات الحب على نسائهم، لعجزهم عن الإنفاق على غيرهن. وعلى الرغم من أنّه لم يفكّر البتة في تطبيق مثل ذلك على نفسه، فإنّ عالم الرفاهية تمثّل لديه حتى الآن في استبعاد ماربيت، شريكته الحالية، وزوجته المقبلة، عن حركات العشق وأساليب المتعة.

أمّا مارييت، الفتاة البالغة منذ أربعة أعــوام، والحــسناء ذات النهــدين المتكورين تحت قميصها الرقيق، فكانت مرغمة دائماً علــى حمايــة نفــسها من احتكاك الرجال بها وملامساتهم لها، ورغبتهم غيــر الخفيّــة فــي نيــل عذريتها، حتى تحوّلت لديهم إلى شكل من الاستحواذ. وفاجــأت أكثــر مــن مرة، دون سيزار نفسه متوجّهاً نحوها بنظرة ثقيلة، غير وقحــة ولا ملتهبــة، لكنّها أحسّت بكل عبئها، ولم تعتل في نفسها الثــورة لفكــرة وجــوب منحــه عذريتها إذا ما رغب فيها، لا سيّما أنّ هــذا هــو قــانون الجنــوب، الــذي اعتادت أن تجده طبيعياً. وإذا ما تفكــّرت في الأمر- وهذا ما يحصل نــادراً - فليس بوصفه انحطاطاً مخزياً ومرعباً، وإنّما واحدة من تلــك المنغّــصات الصغيرة التي لا تحصى، والتي لا يمكن دوماً تفاديها، ولا بدّ بعــد تجاوزهــا من الاهتمام بشؤون الحياة الأخرى.

ها هما هذا المساء يفترشان الأكياس في مــستودع بــستان البرتقــال والليمون جنباً إلى جنب. أمامهما ليلة كاملة يمضيانها معاً. تُفعِم قلبيهما فرحــة غامرة بالمعركة الظافرة ضد ماتيو بريغانتي، فباشرا بالعناق.

ما إن شرعا يتعانقان حتى صار قانون الجنوب وعادات الجنوب وكــل ما فكرا به مسبقاً، بشيء من الوضوح أو الغموض، عن الحب وتبعات الحب، نسياً منسيا. أمّا وليس الدين بالنسبة لهما أكثر من عالم خرافة مــن خرافــات كثيرة غيره، فلم يخطر ببالهما أنّهما يرتكبان الخطيئة. والأخلاق التي لا تقــوم على أساس نظري تتهاوى دفعة واحدة. فكانا على شبهٍ تام وكامــل بقــدماء الرعاة فوق التلال المجاورة أيام حاضرة أوريا المزدهرة.

لم يبق إلا أن امتزجت أنفاسهما وتلاصــقت كــل أجــزاء جــسديهما واهتصر كل واحد رفيقه ليذوب فيه ناراً تلتهب بحثاً عما يهدّئ من تأجّجهــا. ففقدت مارييت عذريتها دون أن تشعر بذلك، مثلما يحصل في أغلب الأحيــان للفتيات المنصرفات إلى التمارين الرياضية العنيفة.

ولم يستولِ عليهما أي أسف أو تبكيت للضمير. فهذا الإحساس غريب تماماً عليهما. ومرّت الساعات من الغسق حتى الفجر في وصال دائم.

ولا يعوزهما سوى تجديد اللقاء في عالم بهجة متعاظمة. فلم ينطقا بكلمة واحدة بل اقتصر حديثهما على همسات الحب وتأوّهاته وتنهداته. وما إن يركن الواحد منهما الى الهدوء هنيهة حتى يجتذبه رفيقه. وعند الفجر استسلما للنوم فوق الأكياس، الساق ملتفة بالساق، والأيدي متشابكة والقلبان يخفقان بإيقاع واحد متناغم.

افترقت دونا لوكريزيا وفرانشيسكو بريغانتي فوق الشاطئ الصغير المغطى بالرمل الأبيض قرب الترابوكو. فشرع هو يمشي صعوداً وهبوطاً في غابة الصنوبر متوجّهاً نحو السياج الذي أخفى وراءه فيسبا دون روجيرو. فيما سلكت من ناحيتها درب القمة الصخرية، فتقدمت طويلة ممشوقة في ثوبها المحتشم ذي الياقة العالية والأكمام الطويلة، ومشت ببطء وبخطواتها الكبيرة المطمئنة، هانئة تحت لهيب شمس الأسد التي لم تبدأ بعد طريقها المنحدر إلى المغيب وراء الجزر.

لم تبدُ منها التفاتة واحدة صوب خليج مناكوري المحصور بين الجبل الشاهق، تكلل هامته غابة الظل، ورتل الغيوم التي ساقها الليبتشيو، والتي أضحت بعيدة الآن حين أرجعها السيروكو. فهذه الأماكن لم تعد تستهويها على نحو ما كان منها قبل عشر سنين، فقد أحبتها مذ أن حضرت إليها بصحبة زوجها الشاب القاضي أليساندرو. إلا أنّها لم تكن تكرهها مثلما آلت إليه الحال فيما بعد. فقرار الرحيل اتخذ، والشروط المادية، حسب اعتقادها، تحققت، فباتت تشعر بأنّها غريبة عن تلك الأرض. مثلها في ذلك مثل أية امرأة من توريذو جاءت لتمضي إجازتها الصيفية، وسوف ترتحل عنها عما قريب، لا بل إنّها ارتحلت. لأنّها تعرف أن حبيبها هنالك بحاجة إليها.

وصلت وهي على هذا النحو، لا يشغل فكرها إلا المستقبل، إلى رواق المنتجع الصيفي الفارغ. فعثرت بسرعة على المدير الذي اعتقد أنّها تأخرت

في قرية الخيام لانشغالها مع المرشدات والأطفال. عرض عليها أن يوصلها بسيارته إلى بيتها فقبلت راضية. واغتبطت وهي تلمس أن حيلتها قد انطلت على الجميع رغم طابعها الصبياني. فرأت في ذلك فألاً حسناً.

قالت لزوجها القاضي أليساندرو: «لقد تغديت بصحبة المرشدات». ودخلت غرفتها على الفور وأغلقت الباب. استلقت على السرير، مستقيمة الرأس مفتوحة العينين. واستغرقت في تفكير طويل حول كيفية تنظيم حياة فرانشيسكو في تورينو حتى يكون سعيداً.

في الساعة الخامسة – حين استأنف السجناء غناءهم، وبدأ الغناء يصعد مباشرة من كوى السجن إلى نافذتها نصف المفتوحة – كتبت لفرانشيسكو. فأعطته عنوان صديق لها ولعائلتها تذكرته للتو، مرفقاً بكلمة توصية. كان هذا فيما مضى موظفاً في مفوضية شرطة فوجيا، ويشغل حالياً منصباً إدارياً في تورينو، وبوسعه أن يؤدي خدمة له إذا لزم الأمر. ونصحته بأن يستفيد من سفره ليحجز الغرفة أو بالأحرى الشقة الصغيرة المفروشة التي سيقطنانها في تشرين الأول. أوصته بارتداء قميص أبيض وربطة عنق غامقة اللون قبل الدخول على مديره المقبل. ولم تشر إلى حبهما إلا إشارة عابرة إذ بات عندها أمراً مسلماً به. وختمت الرسالة بقولها: «شكراً لأنك كنت غاية في الشهامة»، متفكّرة في كل الدناءات التي كان بوسعه أن يطلبها منها في المغارة، والتي ما كان بوسعها أن ترفضها له. وضعت داخل الغلاف، حسب الاتفاق بينهما، ثلاثين ألف لير نفقات سفر. ثم مضت لتبحث عن جوزبينا كي تتولى إيصال الرسالة.

توجّه ماتيو بريغانتي من نادي الرياضة إلى عند صديقه الصيدلي لتضميد جرحه. لم يُلْقِ هذا عليه أي سؤال. وبعد الانتهاء من وضع ضماد مستطيل الشكل فوق الخد وتثبيته بشريط لاصق من طرف الأنف إلى أعلى الوجنة قال له:

- من المحتمل ألا تكون مُلِمّاً بما حققت الجراحة مؤخّراً من تقدم... هنالك الغرزات والمعالجات الكهربائية... والمسألة أولاً وأخيراً مسألة مال... ولسوف أرافقك إلى نابولي لتعود من هناك ببشرةٍ شابةٍ فتية .

فسأله بريغانتي:

- ومتى ؟

- ينبغي انتظار حدوث الاندمال الأول.

لام بريغانتي نفسه لأنّه لم يفكّر، فور تعرّضه للإصابة، بمعجزات الجراحة التجميلية. لقد جزع وهو في طريقه الى بورتو مناكوري، وجرحه الشائن المحفور بيد مارييت على خده ما يزال نازفاً. فكّر تفكير طفل، بجهل وغباوة، بل أوشك أن يعود ليستجدي من الفتاة صمتها. وأبدى تعجبه لفقدانه رباطة جأشه بهذه السهولة، فذلك ليس من شيمته.

عاد سريعاً إلى بيته، وقلبه عامر بارتياح مزدوج. فالوسم على خده هو دمٌ بدم على حد تعبير خادم المنهل. والندبة ستزول كما وعده الصيدلي. بقي عليه أن يحلّ المشكلة المطروحة عليه من جراء تبديل المحفظتين.

سألته زوجته:

- هل جُرِحت؟

فأجاب:

- إنّه مجرّد خدش بسيط. دعيني. لديَّ عمل .

أغلق على نفسه باب قاعة الطعام ووضع أمامه ذلك اللغز من الجلد الأصهب وقد نُقِشت عليه حروف ذهبية. إنّ الشكل مطابق تماماً للوصف الذي قدّمه السويسري بعد سرقة الخمس مئة ألف لير. وقلّب المحفظة على جانبيها بكل حذر.

ثم فتحها وتفحّص كل محتوياتها بمنتهى الدقة. كانت جيوبها فارغة إلا واحدة تحتوي على إيصالات تأمين وورقة جمركية باسم السويسري، وصورة لامرأة مع أولاد على الثلج، وورقتين من فئة عشرة فرنكات. وشرع يفكّر وتلك الأشياء موضوعة أمامه.

لا يمكن إلا أن تكون مارييت قد قامت بالمبادلة.

مارييت إذن على صلة بالسارقين، والأرجح أنّهم الواليوني.

يُحتمل أن تكون هي نفسها السارقة. إلا أنّه لأمر مذهل أن يكونوا هم (أو تكون هي) قد انخرطوا في عملية بمثل تلك الضخامة. لقد خبأت المال.

إنّها لمّا تنفق منه شيئاً. ويتوافق هذا والنضج الفكري الذي يظن أنّها تتمتع به والمستحوذ على إعجابه.

لكن ما القصد من قيامها بعملية المبادلة هذه ؟ أتكون قد خططت لتثأر منه عن طريق اتهامه بالسرقة؟ لكنّها لا تملك الدليل على أنّه لن يتخلّص من المحفظة، قبل أن تجد الوقت الكافي لتوجيه الاتهام إليه.

ثم انساق وراء الإغراء بتفسير عمل الفتاة على أنّه غمزة، ونداء ضمني من جانبها طلباً للمساعدة. وهو يعني ما يلي: «أنا سرقت السويسري. المال مخبأ. سرت بالعملية حتى الآن على أكمل وجه. لكنني صرت بعدها بحاجة ماسّة لمساعدة رجل ناضج وخبير.» لكنّه عاد فاستبعد هذا التعليل الذي أملاه عليه ميله الشديد إلى مارييت، ورغبته فيها التي ازدادت حدة بعد أن دافعت عن نفسها بكل تلك الأذيّة الشرسة. فالأذيّة حسبما يعتقد، هي الينبوع الذي نهل منه قوته الخاصة، لذا فإنّها توحي له دوماً بالاحترام، صادرة عنه كانت أم عن الآخرين.

أمّا وقد أضيف الاحترام إلى الرغبة، فقد بات على حافة الوقوع في الهوى، دون أن يكون قد عرف حقيقة هذا الأمر. فهو الآن يحاذر من هذا الميل المتطرّف الذي يشعر به نحو مارييت. لقد ألف عادة الوقوف في وجه

ميوله، وهو دوماً يكزّ على أسنانه. وكان أن دفع مسألة إيضاح قصد ماريبيت إلى أجل لاحق. وحصر اهتمامه الآن في مسألة واحدة ألا وهـي حيازتهـا، المباشرة أو غير المباشرة، على النصف مليون لير المسروقة من السويسري، وهذه المسألة تقع ضمن اختصاصه مراقباً، ولا بد له من العثور على وسـيلة تؤمّن له تحصيل ضريبته.

لم يخش اعتباره متورّطاً بحيازة المحفظة، حتى وإن حاولت ماريبيـت أن تلقي عليه تبعة عملية السطو التي قامت بها بنفسها، أو قام بها أحد غيرهـا بالتواطؤ معها. بل لم يعتقد أن تلجأ إلى اتهامه. وجد صـعوبة فـي تخيّلهـا واشية، لا سيّما أنّه لم يرَ من فائدة يمكن أن تجنيها من وراء ذلـك. كمـا لـم يعتقد أنّها لا تزال حاقدة عليه بسبب اعتدائه، الذي جـاءت نتيجتـه مرضـية لغرورها، فتمكنت من الانتقام وزادت الطين بلّةً فوسمته. أمّا جوستو، خـادم نادي الرياضة، فمن المؤكد أن يقدم تقريراً للمفوض أتيليو الذي أعطى وصفاً دقيقاً جداً للمحفظة إلى مخبريه كافة (وإلى ماتيو بريغانتي). فالحروف الذهبية ظاهرة استثنائية في مناكوري. قد يكون عليه في هذه الحـال، التلمـيح أمـام المفوّض، بأنّه أصبح على طريق الإمساك بالخيط، وأنّه عثر على المحفظـة لكنّه لمّا يعثر على المال، وأنّه لا يستطيع حتى الآن الإدلاء بأكثر مـن هـذه المعلومات. وهو على كل حال لا يخشى المفوّض أتيليو، الذي لن يلحّ طالبـاً المزيد من المعلومات. ومع ذلك فقد قرر بدافع من الزيادة في الحيطـة عـدم إبقاء المحفظة في بيته. إلا أنّه بقي راغباً في الاحتفاظ بها. فالمرء لا يتخلّص من العربون. والمحفظة هنا تعتبر شكلاً من أشكال العربون يخـص ماريبيـت ويقع ضمن حيازته الآن. فصعد ليخفيها في الطابق الثالث من برج فريـدريك الثاني دو سواب، داخل الشقة الصغيرة الخاصة التي يتقاسم اسـتخدامها مـع المفوّض، لكنّ المفاتيح في حوزته. ثبّتها بشريطين من اللاصق تحت الوجـه الدائري للمنضدة الخشبية المرصعة. وتغضن جفناه لبـادرة ابتـسامة. ورأى اختياره لمثل هذا المخبأ الماكر غاية في الأناقة (وإن لم يتلفّظ بهـذه الكلمـات في نفسه).

وفيما هو نازل إلى بيته عبر الممر الواقع في حجـرة الـدرج، تحـت سطح القسم المشاد في عصر النهضة من القصر وفوق البلدية، لمح جوزبينـا صاعدة إلى بيته على الدرج المكشوف، عن طريق باحة القـصر الداخليـة. كانت تحمل عدداً من الاسطوانات تحت ذراعها.

يتألف مسكن بريغانتي من أربع حجرات متوالية هي في الأصل جـزء من منظومة الحاشية القديمة التي تلتف حول الأبنية. تقع غرفـة النـوم فـي الصدر ومن ثم المطبخ حيث يتناول آل بريغانتي طعامهم، وبعده قاعة الطعام التي جعل منها ماتيو مكتباً له وقاعة دراسة لفرانشيسكو، والقاعة الأخيرة هي بهو الانتظار على الطراز القديم، وفيها ينام فرانشيسكو، وينـسّق اسـطواناته وكتبه فوق رفوف خشبية ثُبتت على الجدران. فباب الـدخول(المطـل علـى شرفة حجرية ينتهي عندها الدرج المكشوف) وباب الممر الواقع فـي حجـرة الدرج يندمجان معاً جنباً إلى جنب، في شقة جدار بهو الانتظار نفسه. البـاب الأول ذو مصراعين والثاني مصنوع من لوح واحد من الخشب الصلب، وله قفل من الحديد المزخرف (يحتفظ ماتيو وحده بمفتاحه).

خرجت زوجة بريغانتي لتوّها من أجل شراء مستلزمات العـشاء. دون أن تغلق الباب ذا المصراعين بالمفتاح.

سمع رنين الجرس، ثم أدارت جوزبينا القبضة ودخلت. وانتظرت برهة في البهو.

– فرانشيسكو.

سمعها ماتيو بريغانتي وهو ما يزال في الممر الواقع في حجرة الـدرج تنادي «فرانشيسكو». فأسرع بخطى صامتة ليتوقف وراء الباب دون أن يفتحه.

أصغى لحركة جوزبينا تجوب الحجرات الأربع ثم تعود إلـى البهـو. وسمع صرير كنبة من الخيزران موضوعة بجانب الحاكي. ثم ساد الصمت.

دفع بريغانتي الباب بهدوء. كانت جوزبينا جالسة على كنبة الخيـزران ويدها فوق كدسة الاسطوانات، التي كانت تحملها تحت ذراعها وهي تـصعد

الدرج، والموضوعة الآن فوق طاولة الماكنة الموسيقية. إنّها تنتظر وعيناها نصف مغمضتين. فسألها بريغانتي:

- ماذا تفعلين هنا؟

فأجفلت وجذبت كدسة الاسطوانات بعصبية إلى حضنها وقالت:

- أنتظر فرانشيسكو.

وعدّلت من جلستها فانتصبت بجذعها مصوّبة نحو بريغانتي عينين برّاقتين، زائغتين قليلاً، دليل إصابة بالملاريا.

- ماذا تريدين منه؟

- أحضرت له الاسطوانات التي أعارني إياها.

- دعيها هنا وسيجدها بنفسه.

قالت:

- ذلك أني كنت أود أن أستعير منه غيرها.

- تعودين فيما بعد.

أغرقها بنظرة متيقظة شاملة. إنّه يرى التفاصيل كلّها دائماً. لم تكن كدسة الاسطوانات متوازنة. فالقسم العلوي ليس موازياً تماماً للقسم السفلي. والاسطوانة الثالثة غير منطبقة على الرابعة تمام الانطباق. فهنالك جسم غريب مخبأ بينهما.

قالت:

- أجل، سأعود.

وبقفزة هبت واقفة وتوجّهت نحو الباب والاسطوانات تحت ذراعها.

وحين صارت بقربه وضع بريغانتي يده على الكدسة.

فقالت:

- دعني.

فضحك بتغضّن من الأجفان وشفتاه مزمومتان.

قال:

- سأدعك، سأدعك.

واستلّ بحركة سريعة خاطفة، الاسطوانة التي اجتنبت نظره والتي لم يكن أحد سطحيها مستوياً.

-... لكنّني سآخذ هذه.

واكتشف تحت غطاء الاسطوانة مغلّفاً أبيض، بلاعنوان، فيه شيء سميك.

قالت جوزبينا:

- هذا لي، إني أمنعك.

ومن جديد ضحك نصف الضحكة المعهودة لديه.

- إنّ الفتاة التي تمنع شيئاً عن ماتيو بريغانتي لمّا تُخْلَـقْ.

قلّب المغلّف بين يديه مرات عدة، وطفق يجسّه ويتفحّصه من جوانبه كلّها مثلما تعوّد أن يفعل دوماً ثم فتحه محاذراً، حريصاً على سلامة محتوياته. فأخرج منه عدة صفحات مكتوبة بخط دقيق وثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة آلاف لير.

توجّهت جوزبينا مجدداً صوب الباب. فقطع عليها الطريق مسنداً ظهره إلى المصراعين.

قال:

- لم تكوني في عجلة من أمرك. كنت تنتظرين فرانشيسكو..

ودفع بها حتى أقعدها على كرسي في الطرف الآخر من البهو.

قالت:

- دعني أمضي.

فقال:

- ابقَيْ هنا وأغلقي فمك.

جلس فوق كنبة الخيزران وبسط الأوراق ونظر أولاً إلى التوقيع، لوكريزيا، ثم شرع يقرأ بانتباه. ذلك البوح الرقيق الواضح الطويل لعشيقة ابنه على ما يبدو.

ودخلت السيدة بريغانتي تحمل سلة في ذراعها.

فانتصبت جوزبينا واقفة.

وقالت:

- يا مدام...

- قلت أغلقي فمك.

وقال لزوجته:

- هيا إلى المطبخ وأغلقي الأبواب. فلي كلام مع جوزبينا.

دخلت السيدة بريغانتي إلى قاعة الطعام وأغلقت الباب وراءها. وسُمِعت وهي تغلق باقي الأبواب. استأنف بريغانتي قراءة رسالة دونا لوكريزيا إلى ابنه، ثم قعد يفكر، وقرأها ثانية وفكر من جديد. وقام فانتقل إلى غرفة الطعام (تاركاً الباب مفتوحاً كي يراقب جوزبينا) فأخذ غلافاً أبيض من خزانة الأواني حيث يضع أوراقه، ثم طوى الرسالة مجدداً وأعادها إلى الغلاف ومعها الأوراق النقدية الثلاث من فئة العشرة آلاف لير وأغلق الغلاف.

رجع إلى البهو فأعاد الرسالة الجديدة، المماثلة للسابقة بكل شيء إلا بالغلاف، إلى مكانها السابق تحت غطاء الاسطوانة، والاسطوانة إلى مكانها داخل الكدسة.

قال لجوزبينا:

- أرأيتِ أنّه لم يحصل شيء على الإطلاق.

وأخذ يتفرّس محدّقاً في وجهها.

- أنا لم أقعْ على الرسالة ولم أقرأها، وأجهلُ كل ما يتعلق بها. هل فهمت؟

- أجل، يا سيد بريغانتي.

- سوف تنصرفين الآن برزمتك هذه، لن يأتي فرانشيسكو إلا للعشاء.

حينئذ سوف تعودين لتسليمه الرسالة خفية عني. فأنا لا أعرف شيئاً وسأغمض عيني عن كل شيء.

وكرّرت جوزيبينا القول:

- حضرتك لا تعرف شيئا.

ثم اقترب منها وهي لا تزال جالسة ومدّ يديه الاثنتين إلى صدرها فقبض بكل إبهام وسبابة على رأس النهد. وشدها فأرغمها على الوقوف. غير أنّه لم يشعر إلا بملمس حشوة الصدرية تحت أصابعه. فقال:

- هذا تزييف.

لكنّه لم يتركها. بل قرصها بعمق أكثر حتى تأوّهت.

«لا بد أن يقع المرء على شيء ما في النهاية...»

ورأت عن قرب شديد، العينين الصغيرتين والنظرة الصارمة والضماد فوق الخد. إنّ أيّ خلل في التناظر، كضماد على العين أو ندبة جرح عميق أو لصيقة، تجعل نظرات الوجه القاسي رهيبة مرعبة.

أصيبت نظرتها المحمومة المريضة بالهلع. وبدأت جفونها ترفّ بسرعة مثلما يخفق الوطواط بجناحيه إذا ما داهمه النور على حين غرة.

جال بكفه فوق جسمها. كانت ساقا الفتاة ترتعدان. ثم أخذ يجسّها ويتحسّس أجزاء جسدها بانتباه شديد كما يفعل طبيب بيطري يتفحّص عجلة.

قال:

- صحيح إذن أنك نجحت في المحافظة عليه..

وأوغلت يده إلحاحاً. فتهاوت. فتركها تقعد على الكرسي.

ابتعد عنها بضع خطى وعاد يدقّق فيها النظر متغضّن الأجفان بنصف ابتسامة.

- لا أريد أخذه منك عنوة. فماتيو بريغانتي يأخذ العذارى لا العوانس... أمّا إن وشيتِ بي، أو أنذرتِ فرانشيسكو أو لوكريزيا، بأني قرأت هذه الرسالة فحذار: سأزوجك من بصل الكراري. أتعرفين ما بصل الكراري؟

فتمتمت جوزبينا:

- أجل.

- هل أخبروك عن اللهيب الذي يحدثه؟ هل قالوا لك إنّه ليس من دواء البتةً ليشفي تلك الحرارة؟

فهمست قائلة:

- أجل

- أتعرفين أنّ الفتاة إذا ما زوجوها من بصل الكراري تصبح تالفة، ومستهلكة، وفاغرة أكثر من أية بغي عجوز؟ أجيبيني؟

- أعرف ذلك، يا سيد بريغانتي.

- إذن انصرفي. احملي الاسطوانات ونفّذي ما قلت لك.

حاولت جوزبينا النهوض فلم تطاوعها ساقاها لشدة الارتجاف فسقطت ثانية على الكرسي.

ذهب إلى غرفة الطعام وعاد يحمل زجاجة عرق وكأساً صغيرة. فسكب وقال لها:

- اشربي.

فشربت. وحاولت النهوض مجدداً، لكنّ ساقيها كانتا ترتجفان أيضاً. فملأ لها كأساً جديدة، وقال:

- هذا يشدّ العصب حتى لواحدة كسيحة.

فشربت ونهضت وحملت الاسطوانات ومشت مترنّحة صوب الباب.

أفسح بريغانتي لها المجال وراقبها من على الشرفة وهي تنزل الدرج الحجري ببطء ثم بسرعة متزايدة. وقطعت الباحة بخطى ثابتة.

ثم دخل فسكب لنفسه أيضاً كأسين من العرق وكرعهما كرعاً واحدة إثر واحدة.

عند المساء جاءت جوزبينا ساعة العشاء تعيد إلى فرانشيسكو الاسطوانات التي استعارتها منه. فتحدثا هنيهة داخل البهو ثم رجع فرانشيسكو ليحتلّ مكانه على المائدة. وقبيل انتهاء الطعام سأله ماتيو بريغانتي:

- ما زلت إذن على قرارك في السفر غداً إلى عند خالك في بينيفان؟

- أجل.

قالها فرانشيسكو وألقى على والده نظرة كتيمة من عينيه الكبيرتين الطافيتين على صفحة محياه.

- في أية ساعة ستسافر؟

فكر فرانشيسكو برهة دون أن يحول نظره عن والده ثم أجاب:

- في باص الساعة التاسعة.

- سأرافقك حتى فوجيا... ينبغي أن أذهب للقاء أحد رجال الأعمال. وسوف أصطحبك للغداء في فندق سارتي...

وظلّ يراقب ابنه الذي لم يطرف له جفن. ثم أضاف:

- آن الأوان لأن تتعرّف، وقد صرتَ في هذه السن، على كيفية تناول الطعام الحقيقي في مطعم ممتاز.

قال فرانشيسكو:

- شكراً، يا أبي.

- وسوف تجد بعد الظهر باصاً للسفر إلى بينيفان.

أجاب فرانشيسكو:

- سأجده بكل تأكيد.

في تمام الساعة التاسعة إلا عشر دقائق من صباح اليوم التـالي ومـع وصول الباص الذي يعمل على خط بورتو البانيزي - بورتـو منـاكوري- فوجيا، كان جوستو، خادم منهل نادي الرياضة، في مكتب المفـوّض أتيليـو. فالمفوّض المعاون اصطحبه إلى عند رئيسه.

توقف الباص عند زاوية تقاطع شارع غاريبالدي مع الساحة الكبرى أمام السراي. نزل عدد من الفلاحين يحملون السلال والأكياس والأقفاص. وانتظر المناكوريون استعداداً للوثوب واحتلال الأماكن عنوة، فآخر الصاعدين يسافرون وقوفاً. أمّا سائق الباص ومعاونه فيقف أحدهما على سطح الباص والثاني على السلم الخلفي ويناول الأولُ الثاني الحقائبَ والحوائجَ فينزلها على الأرض.

ترك العاطلون عن العمل مركزهم بمحاذاة الجدران وأقبلـوا يتحلّقـون فضولاً، وكلّ واحد يأمل في أن يكون أول من يقع عليه نظر وقّاف قدم إلـى المدينة بحثاً عن عامل. (يؤمّن الباص المواصـلات بـين بورتـو البـانيزي ومناكوري لقرى الجبل ومنطقة البساتين).

يتجمّع أبناء الأعيان عند مدخل نادي الرياضة ليكونوا بالمرصاد لكـلّ فلاحة فتيّة تنزل إلى المدينة للقيام ببعض المشتريات، فيلاحقونها من شـارع إلى شارع. ولا أمل لهم في لمسها إلا عن طريق اللجوء إلى التقاطع معها في اتجاه معاكس والذراعان تتأرجحان ومن ثم الاحتكاك بها كأن الأمـر سـهواً. (يمكن التوصّل عن طريق أرجحة الذراع بمهارة الى ملامسة ما بين الفخذين، ويطلقون على هذه الطريقة اسم: اليد الميتة). والذي يفعل ذلك يتنحى قـائلاً: «عفوك يا آنسة»، لتنفجر من ورائه عصبة الفتيان في ضحك شديد صـاخب. إلا أنّ الطريقة الأكثر إمتاعاً بالنسبة لهم، والمربكة أيضاً، هي أن يلاحقوهـا وهم يهمسون بكلمات نابية مقذعة. ويستبدّ بهؤلاء الريفيات خوف شديد حتـى

لا يجرؤن على زجر معذّبهن ذاك، ولا على الشكوى إلى أحد رجال شرطة البلدية. فتحمرّ منهنّ الوجوه خجلاً ويسرعن الخطى. ليتولى أمرهنّ شاب ثانٍ وهكذا بالتداول من واحد الى آخر.

ويدور الواليوني حول الجمهور المحتشد، متنبّهين جاهزين للاستفادة من شرود راعٍ نزل من الجرود إلى المدينة ليتسوّق. ورجال شرطة البلدية يراقبون الواليوني والعصي في أيديهم. والسجناء يغنّون من وراء نوافذ السجن، في الطابق الأرضي من السراي، آخر أغنية سمعوها من الإذاعة.

على ذلك النحو تجري الأمور لدى وصول كل باص إلى الساحة.

المفوّض أتيليو قادر، وهو في مكتبه الواقع فوق السجن مباشرةً على متابعة هذا المشهد في مراحله كلّها. وإذا كان يجده أحياناً مليئاً بالإرشادات، فهو ممتع دوماً وخاصة في المساء، حين يصل باص فوجيا الذي انتظر وصول القطارات القادمة من روما ونابولي، والذي يأتي عادة بالمصطافات الجديدات (في اليوم التالي يعرف المفوّض عن طريق أجهزته في أي فندق نزلن ولمنزل أي شخص توجّهن. إنّ منتهى الأحلام لزير نساء من طينته، الحصولُ على مكتب ذي موقع ممتاز، وأن تساعده أجهزة حسنة التنظيم. فعلى هذا النحو يكون دوماً أولّ من يستدلّ على الطريدة وعلى مكمنها. أمّا الآن وقد باتت جوزيبينا تفرض سيطرتها عليه، فإنّ المفوّض فقد ميله للتصيّد فقداناً شبه نهائي، فلم يُبقِ إلا على ما يثبت له تجاه نفسه أنّه ما زال رجلاً).

شدّد جوستوعلى القول:

- لون الجلد أصهب والأحرف: ام. ب. مرصّعة على الجلد بالذهب.

فأوضح المعاون قائلاً:

- إنّها محفظة السويسري.

فردّ المفوّض أتيليو قائلاً:

- هراء باطل، أولاً لأنّ بريغانتي لا يمكن أن يتورّط في عملية من هذا النوع. ثانياً لأنّه كان في فوجيا يوم حادثة السرقة. ثالثاً لا يمكن أن يتمسّك بالمحفظة فيبرزَها أمام وجهك.

وعاد جوستو يؤكد بإلحاح:

- أقول لكم إنّي رأيتها بأمّ عيني، من مسافة بعد طرف الطاولة عن طرفها الآخر، أي من مسافة أقرب مما أراكم الآن...

انتهى الفلاحون كلّهم من النزول. وجاء دور المناكوريين في الهجوم على الأماكن واحتلالها. وخرج ماتيو بريغانتي وابنه من الباحة الصغرى لقصر فريدريك الثاني دوسواب فتوجّها ببطء نحو الباص.

ارتدى فرانشيسكو بزة رمانية فاتحة، هي الأكثر اعتدالاً بين ملابسه، وتحتها قميص أبيض وربطة عنق سوداء. ولم تخفِ والدته دهشتها من ذلك المظهر الزاهد. فأوضح لها أنّ «بينيفان مدينة حقيقية، لا يلبس الناس فيها كأنّهم ذاهبون إلى الشاطئ». أمّا تفكيره فكان في حقيقة الأمر منصرفاً إلى لوكريزيا التي ستترقب رحيله من نافذتها وقد رغب في أن يسعدها بإظهاره اتباع تعليماتها وإطاعة إرشاداتها سلفاً. ولمّا كان بودّه زيارة تورينو، بعد انتهاء اللقاء مع مديره المقبل، والتجول تحت قناطرها التي سمع أنّها تعجّ بالحركة، فقد وضع في حقيبته، ملابس وقمصاناً أكثر تلاؤماً مع الأناقة حسب مفهومه.

مشى بريغانتي إلى جانب ابنه، فهو أقصر منه قامة وأكثر انكماشاً، في بنطال أبيض نظيف جداً وسترة زرقاء مخططة وعقدة الفراشة المعهودة. إنّه يحافظ على مظهره المألوف الذي استوحاه من ذكرياته في البحرية، حين يذهب لمقابلة رجال الأعمال.

قال جوستو:

- أنتم ترون أنّه يعرف ماذا فعل، فباشر بالانسحاب.

سأل المعاون:

- هل نلقي القبض عليه؟

فصاح المفوّض:

- كفاكم حماقات.

وعاد المعاون إلى القول:

- يبدو واضحاً أنّه ينسحب. لا بل أخذ حقيبة وأمر ابنه بحملها.

قال المفوّض:

- إنّ رجلاً بحوزته أملاك تحت الشمس، لا يتخلى عن كل شيء من أجل محفظة ليست له.

وهنا صاح المعاون:

- ذلك بالضبط لأنّ المحفظة ليست له. وقد قلتها بنفسك يا معلمي.

ثم أغرق في ضحك طويل متواصل.

تنهّد جوستو فقال:

- سوف تنهال البلايا كلّها فوق رأسي، إذا ما عرف يوماً بأنني وشيتُ به...

قال المفوّض:

- كفى. كنْ مطمئناً. خذ مني عهداً. وسوف أتولّى بنفسي سؤال بريغانتي، لدى عودته.

وانتقل الرجلان إلى القاعة المجاورة.

قال المعاون:

- الأمر واضح. فإذا ما تعرّض بريغانتي للمتاعب، لا يعود بوسع معلّمنا العثور على مكان لاستقبال دجاجاته.

وتأوّه جوستو قائلاً:

- ستحلّ المصيبة كلّها بي.

- إنّ بريغانتي يعرف بالتأكيد أشياء كثيرة حول المعلم.

وتأوه جوستو:

- سوف يسِئني. لقد كان موسوماً، ويجب أن يثأر.

فقال المعاون:

- دع الأمر لي.

كان ماتيو بريغانتي وفرانشيسكو آخر الصاعدين إلى الباص.

أفسح السائق مكاناً للحقيبة. فيما نهض اثنان من المعترفين بفضائل ماتيو بريغانتي فتخلّيا عن مكانيهما للأب وابنه، اللذين احتلاهما. وانطلق الباص فعاد العاطلون لأخذ أماكنهم بمحاذاة الجدران حول الساحة الكبرى. وارتفع صوت السجناء بالغناء «عن الحب، حدّثني...»

صعد معاون المفوّض إلى عند القاضي أليساندرو.

في حدود الساعة الحادية عشرة صعد المفوّض أتيليو بدوره إلى المحكمة ليتحدث إلى القاضي أليساندرو بشأن القضايا التي يجري التحقيق بها.

فسأله القاضي:

- والسائح السويسري؟...

- ما من جديد.

كان القاضي في يومه الثالث من وافدة الملاريا. فعيناه صفراوان لامعتان من تأثير الحمى، وجبينه يتصبّب عرقاً وقميصه مفكوك الأزرار، وهو يرتعش داخل سترته.

- قيل لي إنّ أحدهم شاهد المحفظة.

- إنّها ترهات، يا صديقي العزيز...

فقاطعه القاضي قائلاً:

- قيل لي بوضوح تام إنّ خادم منهل نادي الرياضة رأى بأمّ عينه مساء أمس محفظة السويسري بين يدي ماتيو بريغانتي.

فأجاب المفوّض:

- معاوني يهذي. دعِ الكلاب تنبح. فليس لهذه الحكاية من أساس.

هبَّ القاضي واقفاً، متكئاً بيديه إلى الطاولة وذراعاه ترتجفان.

- أنتَ تزدري العدالة، يا مفوّض..

كان المفوّض جالساً على كنبة في الجانب الآخر من الطاولة، يلفّ ساقاً على ساق. فرفع ذراعيه إلى السماء.

- على رسلك، يا أليساندرو، رويدك..

- في الأول من أمس مارستَ ضغطاً سياسياً على عاملٍ شريف جاء يطالب بجواز سفر، له فيه كلّ الحق. وأنتَ اليوم تتستر على جريمة محكوم سابق، على رجل مبتز على صديقك، على...

- حذار، يا أليساندرو...

«أيها الزوج المخدوع، الفظّ مثل كلّ الأزواج المخدوعين»، قالها المفوّض في سره، فقد أصبح يعرف أنّ دونا لوكريزيا أمضت أربع ساعات من يوم أمس في غابة الصنوبر. إنّه لا يعرف بعد بصحبة من كانت. لكنّه لن يتأخر كثيراً في معرفة ذلك. فامرأة شابة لا تبقى وحدها أربع ساعات في غابة الصنوبر.

وقال القاضي في سره عن المفوّض «يا زير النساء. وتخدعك رغم ذلك أصغر قحبة، فتخضعك لإرادتها».

فقد وصلت إلى مسامع القاضي حكاية المصارعة التي دارت في عرض البحر بين المفوّض أتيليو وجوزيبينا. وكيف صرعته تحت قدميها على مرأى من المدينة المجتمعة كلّها على الشاطئ.

«أيها الفاسد المتهتك المبتزّ مثل كل الذين لا همٌّ لهم غير ملاحقة الساقطات».

وجلس القاضي مجدداً.

– أصغ إلي يا مفوض.. بصفتي قاضياً مكلفاً من قبل النيابة العامة بالتحقيق في شكوى السرقة ضد مجهول...

لقد أعدّ أمراً بتفتيش منزل ماتيو بريغانتي للبحث عن المحفظة التي شوهدت في حوزته في اليوم السابق.

اعترض المفوض قائلاً إنهم سوف يصابون بالخزي. لكنّ القاضي أنذره بأنّه سيرفع القضية الى النيابة العامة في لوتشيرا، ما لم ينفّذ الأمر بالتفتيش على الفور.

جرت عملية التفتيش بعد الظهر مباشرة. وقد قام بها المفوّض ومعاونه واثنان من رجال الشرطة. اعتذروا مطوّلاً من السيدة بريغانتي، راجين منها أن تقول لزوجها إنّهم كانوا فقط ينفّذون الأمر القاطع الذي أصدره القاضي أليساندرو. وقاموا بزيارة سطيحة المنزل حريصين على عدم بعثرة أي شيء، وعلى إظهار ذلك الحرص بوضوح. لأنّهم كانوا في حقيقة الأمر متأكدين من أنّ ماتيو بريغانتي إذا كان قد قام بالسرقة، وهذا ما لا يصدقون، فلن يُخفي المحفظة في منزله.

قال المفوّض للسيدة بريغانتي:

– لم يبقَ عليّ غير أن أعتذر.

فتدخّل المعاون ليقول:

– المعذرة يا معلمي، إذ ينبغي علينا، حسبما هو مذكور في الأمر بوضوح، تفتيش البرج الذي يستأجره السيد بريغانتي.

هزّ المفوّض كتفيه بلا مبالاة. فيما كان رجال الشرطة يتغامزون فيما بينهم. فهم الذين أوحَوا للقاضي بذكر البرج، لأنّهم كانوا يتحرّقون شوقاً لزيارة شقة المعلّم، التي كانت مكان شكوك المدينة كلّها، والتي يعرفون عنها نتفاً من المعلومات انتُزعت بشكل أو بآخر من بعض النساء، إلا أنّ أحداً لم تقع عيناه عليها من قبل.

قال المعاون:

- أعتقد أنّ بالإمكان الصعود إليه من هنا.

وأشار إلى الباب ذي المصراع الواحد المصنوع من خشب السنديان، وقفله من الحديد المزخرف.

لم يكن المفتاح بحوزة السيدة بريغانتي فأرسلوا في طلب حرفي مختص. وجلس المفوّض فوق كنبة الخيزران ووضع على الحاكي افتتاحية للموسيقار شوبان كطريقة لتبيان الفارق بينه وبين مرؤوسيه الذين لا يحبّون إلا الأوبرا والأغاني.

أخيراً سلك الرجال الأربعة الممرّ الواقع في حجرة الدرج يتقدمهم المعاون. وسار المفوّض وراءهم جميعاً، تتبعه السيدة بريغانتي واثنان من الشهود.

دخلوا على ذلك النحو القاعة ثمانية الجدران في الطابق الثالث من برج فريدريك الثاني دوسواب، ووقفوا وراء ستائر السجاجيد المشتراة من عند أحد الباعة في فوجيا، وصاروا داخل الغرفة التي يقوم فيها بريغانتي باغتصاب الأبكار، ويقوم فيها المفوّض أتيليو بإفساد نساء الأعيان حسبما يعتقد.

وقعوا فور وصولهم على غليون سجائر منسي من قبل المفوّض، كانوا يعرفون جميعاً أنّه له.

فهتف المعاون قائلاً:

- واضح أنّ بريغانتي قد سرقك أنت أيضاً يا معلمي.

كانت تلك تورية. فما من أحد يعتقد أن غليون السجائر قد سُرِق، بل إنّ وجودَه دليلٌ إثبات على حياة الفجور التي يعيشها أتيليو سراً.

لم يستطع المعاون والشرطيان إخفاء غبطتهم بعد وضع أيديهم على هذا الدليل. حتى لكأنّهم قد ألقوا القبض على معلمهم نفسه متلبّساً. وبات عليه هو أن يخضع للسيطرة التي ما انفكّ يُخضِعهم لها منذ أعوام. وتناسَوْا وجود السيدة بريغانتي وعمليات الانتقام من ماتيو مستقبلاً.

فصار بوسعهم، تحت غطاء التستّر بالسخرية من بريغانتي، أن يتهكموا على معلمهم في حضرته. فلمسوا السرير الحديدي المدهون بزخارف فينيسية قائلين:

- أُفٍ له من لص ! كم من الأعراض هتك فوقه !

وبدؤوا بتعداد أسماء العشيقات اللواتي كانوا يشتبهون بعلاقتهنّ مع المفوّض، ناسبين العلاقة لبريغانتي:

- لقد نزع.. لقد راح.. لقد جعلتَــه...

وما عاد بوسعهم احتواء بهجتهم الغامرة.

ثم شرعوا بحجة البحث عن المحفظة يعبثون بكل كبيرة وصغيرة، ويقلّبون بين أيديهم أدوات الزينة بشكل خاص، متخيّلين بصوت عالٍ كافة الاستعمالات الداعرة التي يمكن أن تؤدي إليها.

وقام المعاون، في غمرة من الحماس الفاحش، فتسلق المنضدة الخشبية المرصّعة، وشرع في تحريك المرآة «لرؤية ما يمكن رؤيته من السرير»، لكنّه تعثر فانقلبت المنضدة.

فانكشفت بهذه الطريقة، أمام أعين الجميع، محفظةُ السويسري المخبّأة تحت سطح المنضدة.

كان من المستحيل ألا يراها أحد. فهي مثبتة بشريطين من القماش اللاصق (مثل الضماد على خد بريغانتي الموسوم) في وسط الوجه المقلوب. وهي من الجلد الأصهب مع أحرف ام. ب. الذهبية المرصّعة في الجلد، مثلما هو مذكور بالضبط في نصّ أمر التفتيش.

ساد صمت مهيب. وبدأ رجال الشرطة يفكّرون في كافة أشكال الثأر التي لن يتوانى ماتيو بريغانتي عن القيام بها. وليس من أحد بينهم إلا وحياته المسلكية معرّضة للعطب بمجرد وشاية من ذلك المبتز.

كفّ المفوّض أتيليو عن التزام الصمت فقال:

«حين يُعتَصَرُ الخمر...»[1]

ما إن أمسك القاضي أليساندرو بالمحفظة بين يديه حتى أصدر أمر توقيف. وانذر شرطة فوجيا هاتفياً. لأنّ بريغانتي هنالك على الأرجح. كما أخطر النيابة العامة في لونشيرا.

تغدى ماتيو بريغانتي وابنه وجهاً لوجه على مائدة صغيرة في قاعة الطعام المكيّفة بفندق سارتي في فوجيا.

كانت الموائد الأخرى مشغولة بأجانب بينهم رجال يلبسون البنطال القصير وقميصاً مفتوح الصدر بلا أكمام، فيما أكثرية النساء يلبسن البنطال. وتكدّر فرانشيسكو من الظهور بمظهر ريفي، بطوق قميصه الأبيض وربطة عنقه الغامقة. وهو في صحبة أبيه بسترته المزرّرة وعقدة الفراشة المشدودة المربوطة. ثم فكّر في أنّه بعد بضع سنين، إذا ما خطر بباله القدوم إلى الجنوب سائحاً بصحبة لوكريزيا، فسوف يروقهم مظهره. سيكونان كلاهما من تورينو، وسوف يتصرّفان كما يروقهما، وبصلفٍ لا يقلّ عن صلف الأجانب.

طلب بريغانتي أفخر وجبة غداء وأصنافاً من النبيذ الفرنسي. ولم يكن فرانشيسكو يحب النبيذ إلا أنّه شرب شيئاً منه، كي لا يبدو غير حسّاس تجاه كرم والده، وغير أهل لتقدير أساليبه الرقيقة. وأحسّ بزيادة الانقباض في صدره. إنّ مشاعر الراحة الكبرى التي غمرته بالأمس وهو بقرب دونا لوكريزيا، وكلمات الحب التي أخذت تجري تلقائياً على لسانه بعد أن اعتملت طويلاً في صدره، لم تتجاوز اللحظة التي وجد نفسه فيها بمواجهة والده. فقد عاد معذّبه خلال الليل ليظهر في كابوسه المعهود، بوجهه الملتبس مثل حاله في الأسابيع السابقة، فعينا أبيه تختلطان بعيني دونا لوكريزيا في النظرة الملحة المسيطرة إياها. وحين استيقظ أحسّ بالغم يملأ صدره، وما يزال على حاله حتى الآن.

---

(١) «حين يعتصر الخمر، لا بد من شربه» مثل شعبي معناه: حين يلتزم المرء شيئاً، ينبغي ألا يتراجع عنه. (م)

بعد انتهاء الغداء جرّ بريغانتي ابنه إلى داخل سيارة أجرة.

فقال فرانشيسكو وهو لا يفقه شيئاً من العنوان:

- إلى أين نمضي الآن ؟

فقال بريغانتي:

- لا بدّ من أن تعرف ذلك أيضاً.

فرفع فرانشيسكو نحو أبيه عينيه الكبيرتين الكتيمتين.

فقال بريغانتي:

- هذه ليست داراً عمومية تماماً. لأنّها ليست مفتوحة لأيّ كان... والسيدة هي من معارفي القدامى.

وصوّب بريغانتي عينيه القاسيتين إلى عينيّ ابنه الفتيتين.

قال:

- أعرف أنك لا تملك المالَ الكافي. فأنا الذي أدعوك. ودار المعلّمة ليست مبغى تماماً. فالفتاة التي ستأخذها لن تطلب منك مالاً. ولك الخيار في أن تقدم لها هدية صغيرة. فالمرء في بيوتات الدرجة الأولى مثل هذه، يباشر الحديث مع المعلمة ويمضي بصحبة الفتاة ويدفع الحساب لوكيلة المديرة (أو وكيلة المعلمة)، أي كما هي الحال في فندق سارتي. ولا بدّ من أن تكون لاحظت أنّي لم أدفع الحساب للنادل الذي قدم لنا الطعام، وإنّما لرئيس المائدة. وأنّي قبل الطعام مضيت لأتحدث بشأن الوجبة مع مدير الفندق. وتركت لدى الانصراف إكرامية صغيرة للنادل. وعلى هذا النحو يكون حسن التصرّف...

ثم أضاف:

- لا تحمل أيّ هم. فأنا سأدفع للآنسة تشينتيا، وكيلة المعلمة، قيمة الوقت الذي ستمضيه بصحبة الفتاة التي سيقع عليها اختيارك.

فقال فرانشيسكو:

- شكراً، يا أبي.

أنزلتهما السيارة أمام فيلا معزولة في إحدى ضواحي فوجيا. واستقبلتهما المعلمة في صالة صغيرة فيها كنبات من الجلد الفاتح ومنضدة من خشب الليمون.

قال بريغانتي:

- أعرّفك على ابني.

فنظرت المعلمة إلى فرانشيسكو نظرة شاملة ومقتضبة ثم التفتت نحو الأب قائلة بابتسامة خفيفة:

- ألا قل لي كيف تأتّى لك أن تصنع مثل هذا الولد الوسيم؟

قالت ذلك باستخفاف مستملح فيه كياسة طبيعية. إنّها امرأة في الأربعين، طويلة ممشوقة القوام، ترتدي ثوباً محتشماً من الجرسي الصوفي. ورأى فيها فرانشيسكو ملامح رئيسة الممرضات في أحد مشافي الدرجة الممتازة في نابولي، حيث ذهب مرة لزيارة رفيق له كان مريضاً.

قال بريغانتي:

- خطرت ببالي فولفيا من أجله.

فأجابت السيدة:

- فولفيا الآن ليست مشغولة.

فأضاف بريغانتي:

- لكن يُحتمل أن يفضّل واحدة غيرها.

فقالت السيدة:

- لدي في هذه اللحظة سبعٌ أو ثمانٍ في الصالة الكبرى.

ثم استدارت نحو فرانشيسكو وقالت:

- لا شكّ في أنّك تفضّل أن أعرّفك عليهن الواحدة تلو الأخرى. وبعدها تقول لي على تلك التي وقع عليها اختيارك.

فقال بريغانتي لابنه:

- أرأيت كيف يكون أسلوب التعامل في هذه الدار؟

ثم قال للمعلمة:

- أود أن أتحدث إليك.

فقالت:

- هيا إلى مكتبي.

وسبقته إلى الباب.

فقال لفرانشيسكو:

- انتظرنا.

حين بلغت العتبة قالت:

- بالمناسبة، ما هو اسمه؟

أجاب بريغانتي:

- فرانشيسكو.

فاستدارت وقالت:

- سوف نلتقي بعد قليل، يا فرانشيسكو.

وظلّ وحيداً. طرق مسمعه من حجرة مجاورة لغط خافت لحديث تشارك فيه أصوات عديدة، وكلّها أصوات نسائية، ثم سمع ضحكة عالية تلاها صخب يعبّر عن دهشة، كأنّها تحية لقادم. وقال فرانشيسكو في نفسه:

- لعلّه أبي.

ذكّرته الصالة الصغيرة وكنباتها الجلدية بمشفى نابولي أيضاً . فالرسوم المعلّقة على الجدران، للفنان فراغونار، لا يمكن اعتبارها فاضحة. حتى أن

الصيدلي في بورتو مناكوري قد علق مثيلاتها على جدران غرفة نومه. إلا أنّ الأُطُر هنا أكثر جمالاً، فهي من خشب الليمون كالمنضدة.

ظلّ صدره رازحاً تحت عبء الغمّ، لكنّ أثر النبيذ الذي شربه في فندق سارتي حول الغمّ إلى إحساس بالخدر فبدأ فرانشيسكو يغرق ببطء في نعاس لا يزيد عن الغمّ ألماً ولا يقل عنه استقراراً.

وانفتح الباب.

ظهرت لدى العتبة فتاة طويلة سمراء، في ثوب حريري أسود عالي الياقة، ضيّقٍ، ينمّ على تقاطيع جسد نحيل، في أعلاه نيل مهذّب يسقط من وراء إحدى الكتفين دون تناظر.

قالت:

- إسمي فولفيا.

ونظرت إليه، حسبما لاحظ، دون أدنى استفزاز. لم يكن يتوقّع هذا النوع من النّأي، حتى لقد تزايد إحساسه بالغم. وتفحصته. فهزّ رأسه ليتخلّص من إحساسه بالخدر. وابتسمت قليلاً. فقد بدت أمامه في هيئة الواثقة من نفسها كل الثقة. ودهش داخل نفسه «فتاة شديدة النحول». ظلّت واقفة في فتحة الباب، مسبلة الذراعين، دون أية حركة استفزازية من العينين أو الوركين أو الجذع أو الشفتين، وهي تتفحّصه بكل هدوء، وفي عينيها بصيص تهكّم خافت. ولمس ذلك البصيص بوضوح فنهض.

قالت:

- اتبعني.

تقدّمته في الممر فسار وراءها. وحين دخلا الغرفة (كانت أرضها مفروشة بسجادة من المخمل رمادية اللون، والستائر رمادية، والسرير كبير مغطى بشراشف بيضاء نظيفة بُسِطت لتوها) قالت له:

- خذ راحتك.

ساعدته على خلع سترته وعلقتها فوق علاقة خشبية وهو واقف ساكن يتابعها بنظره. وعادت نحوه فحلّت ربطة العنق ومضت فبسطتها فوق كتف السترة. ودنت منه مجدداً فمدّ يده – اعتقد أنّ عليه أن يفعل ذلك – إلى الصدر النحيل الذي لا يزال مغطى بالثوب. فأبعدت يده بهدوء قائلة:

– دعني أُتِمُّ عملي.

ازداد التهكّم في نظرتها حدة.

قالت:

– القيادة الآن بيدي.

فكت أزرار القميص وأعانته على خلع الأكمام. ثم مضت لتضع القميص على العلاقة فوق السترة. وبقي واقفاً بالبنطال عاري الصدر.

قالت:

– تمدّد.

فرقد فوق السرير.

وقامت بعد أن انحنت فوقه بحلّ شيء ما تحت النيل الذي ينتهي به الثوب عند العنق كالوشاح، وإذ بالثوب الضيق ينفتح بطوله دفعة واحدة لتظهر تحته عارية.

بدت أكثر هزالاً مما كان يعتقد. وتراخى النهدان قليلاً، لكن كانا صغيرين جداً فلا يبرز منهما إلا الرأسان الشبيهان، حسبما تذكّر، بالمسارين المغروسين في يدي تمثال المسيح الخشبي الكبير على الصليب، فوق مدخل دير القديسة أورسولا بنت حاضرة أوريا. ورغب مع ذلك في أن يلمسها فمنعته. ثم أمسكت بذراعيه فبسطتهما على السرير بشكل صليب ثم وضعت يدها عند المفصد.

بدأت تجرّ أظفارها فوق ذراعه صعداً بحركة بطيئة ومنتظمة دون أن تخدش جلده. واستسلم.

ونزلت ثانية إلى راحة كفه ثم صعدت إلى كتفيه فقوّس ظهره متقدّماً بصدره السمين، بارز النهدين، لشاب أصهب طويل القامة، نحو صدر الفتاة الهزيل ذي الرأسين الصغيرين.

كان من شأن المداعبة الحامضة الحلوة، والرقيقة القاطعة، أن فعلت فعلها، فشرع يتأوّه متعة وغماً.

تابع ماتيو بريغانتي نقاشه مع المعلمة حول شؤون العمل. وشاركت في الحديث الآنسة تشينتيا، وهي مقيمة قديمة في الدار، أصبحت الآن شريكة في إدارة المؤسسة. وقد تحلّق الثلاثة حول طاولة كبيرة في المكتب، مغطاة بلوح زجاجي سميك، وإلى القرب منها صندوق للمصنفات، وُضعت منسقةً فيه، كافة العقود والوثائق وجداول الرواتب والنفقات.

يسير العمل سيراً حسناً في هذا الفصل من السنة، كما أنّ تدفّق السواح على الساحل الادرياتيكي، ينعكس غنى وثراء على أصحاب المطاعم والفنادق وبحبوحة على الباعة والتجار الآخرين. والمعلّمة مهتمة حالياً بإقامة مؤسسة ثانية، على أن تكون على الساحل هذه المرة، وفي بلدة سيبونتي تحديداً. وهي منتجع بحري تؤمّه الطبقة البرجوازية في فوجيا والسواح الأجانب. وسوف يلزم ترغيب بوابي الفنادق ليقوموا بتوجيه السواح إليها. صحيح أنّ تكاليف الانطلاق باهظة، لكنّ الأرباح عالية ومضمونة، بحيث يكون التعويض سريعاً. وفيما كانت المعلمة تقوم بعرض مشروعها وتطلعاتها المقبلة، كان بريغانتي يحسب من ناحيته، أنّ بنتاً مثل فولفيا تَغلّ يومياً خمسين ألف ليرة على الأقل. أي أكثر مما يغلّ فندق صغير أو ورشة تصليح سيارات متوسطة الحجم أو بستان زيتون كبير أو ثلاث سيارات شاحنة لنقل البوكسيت. تبقى الصعوبة الوحيدة أمامه حساب النسبة المئوية للنفقات العامة. فكيف يمكن على سبيل المثال حساب كلفة تسامح الشرطة؟

حاولت المعلمة التقليل من شأن ذلك النوع من النفقات، سعياً منها وراء إغراء شريكها المحتمل، بالكشف عن منظورات أرباح فاحشة. فقرر بريغانتي القيام شخصياً باستفسارات من أصدقاء له في صفوف شرطة المقاطعة.

قالت المعلمة إنّ تشينتيا ستتولى إدارة المؤسسة الجديدة. وهي رصينة وكفؤة. لكنّ المرأة هي المرأة. ولا بدّ من أن يكون وراءها رجلٌ محنّك ذو أهمية، لا من أجل تغطية نفقات الانطلاق في المشروع فحسب، وإنّما أيضاً من أجل المفاوضات مع رجال الشرطة ومع البلدية والمبتزين.

سُمِعَ طرق خفيف على الباب. دخلت فولفيا بثوبها الحريري الأسود وفي يدها ورقة نقدية من فئة العشرة آلاف لير. فأعطتها لبريغانتي قائلة:

– من أوّل الطريق.

وابتسمت المعلمة فيما قطّبت تشينتيا حاجبيها.

قالت فولفيا:

– البقية تأتي بعد قليل.

وتوجّهت نحو الباب.

فسألها بريغانتي:

– كيف فعلت ؟

فالتفتت فولفيا وقالت:

– إبنك فتاة قاصر.

قال بريغانتي:

– أغلقي فمك.

– اسمعوا، ويغضب أيضاً!

– أغلقي فمك.

– تركته لتوّي. لقد توسّل إليّ بأن أعود. لو شئتُ لأخذتُ الأوراق الثلاث دفعة واحدة.

زمّت تشينتيا شفتيها دليلاً على عدم الرضى.

قال بريغانتي:

- سأقوم فأكيل لك صفعتين على قفاك.

فنظرت فولفيا نحوه بتهكم وقالت:

- لا تندب حظك. إنّ ثمانيةً من كل عشرة رجال هم مثل غلامك هذا.

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها بكل هدوء.

أمسك بريغانتي بورقة العشرة آلاف لير وطواها نصفين طولاً.

قالت تشينتيا بلهجة جافة:

- ليست سرقة البغيّ للزبون من شيمتنا ولا من أساليب دارنا.

قالت المعلمة:

- ما جرى كان بالاتفاق بين ماتيو بريغانتي وفولفيا بعد أخذ موافقتي.

فقالت تشينتيا:

- ينبغي ألا تكون قدوة سيئة لعناصر الدار.

قالت المعلمة لبريغانتي:

- أنت تلاحظ دون شك أنّها ذات مبادئ.

- اشرحي لها المسألة.

- هل تسمح بذلك؟

- بل أنا أطلبه منك.

قالت المعلمة:

- حسناً، إليك الحكاية. لقد اتفق ابن ماتيو سرّاً على الهرب من بيت أبيه بصحبة سيدة. فأوكلنا أمر الصبي إلى فولفيا كي تتولى علاجه وشفاءه.

قالت تشينتيا:

- لكنّ هذا لا يقدّم تفسيراً لأخذ المال.

- لقد أعطت السيدةُ الصبيَّ ثلاثين ألف لير، لتغطية نفقات السفر واستئجار عش صغير ونثريات أخرى. فكلّفنا فولفيا بأن تنتزع منه الأوراق النقدية الثلاث، حتى لا يعودَ قادراً على السفر. وحين تطالبه السيدة بتقديم كشف حساب، سيعود إلى بيت أبيه وذيله بين رجليه.

وسألت تشينتيا:

- وما هوية هذه السيدة المحترمة؟

أجاب بريغانتي:

- إنّها زوجة قاض.

قالت تشينتيا:

- لا نريد الدخول في مشاكل مع القضاة .

فقال بريغانتي:

- بل نحن نعيد للقاضي زوجته.

وابتسم نصف ابتسامة وتغضّنت أجفانه قبل أن يضيف:

- والقاضي سوف يشكرنا.

قالت المعلمة:

- كل شيء بنظام، وفولفيا تعيد للأب المال الذي أخذته من الابن.

قال بريغانتي:

- الذي أعطاه إياه.

إلا أن تشينتيا ظلت تزمّ شفتيها.

قالت المعلمة:

- إنّها عنيدة.

فرد بريغانتي قائلاً:

- إنّما تريدُ أن تثبت لي أنّها ستكون مديرة نزيهة. على كل حال، كم يلزمكم للبدء بمشروعكم في سيدونتي؟

أجابت المعلمة:

- سوف نقوم بدراسة ذلك: وأنت على ما أرى لست في عجلة من أمرك...

مدّ بريغانتي يده بالورقة النقدية قائلاً لتشينتيا:

- هاتي شمبانيا. ودوري بالكؤوس على الجميع.

خرجت تشينتيا مروراً بالصالة الكبرى. كان الجو معتماً ونديّاً. ونفذت خيوط ضئيلة من أشعّة الشمس عبر النوافذ فتألّقت عند مساقطها الكنبات بلون الذهب. كانت إحدى الفتيات تحيك الصوف والأخريات يقرأن المجلات المصورة.

قالت تشينتيا:

- السيد بريغانتي يسقي الجميع شمبانيا.

فارتفع صوت يسأل:

- وما المناسبة؟

فقالت تشينتيا:

- بمناسبة عقد قران ابنته.

وسأل صوت آخر:

- على من؟

- على أحد القضاة.

وعادت إلى المكتب تحمل زجاجة شمبانيا في سطل للثلج.

وتبعتها خادمة تحمل الكؤوس.

قالت المعلمة لبريغانتي:

- وهل زوجة القاضي هذه متقدمة في السن؟

- عمرها ثمانية وعشرون عاماً، وجميلة الشكل. بل أفضل من فولفيا بكثير.

- إنّ ما تُغلّ فولفيا يظلّ رقماً قياسياً بالنسبة لبنات الدار كافة.

- سبق أن قلتِ لي ذلك. لكن أين يكمن سر نجاحها ؟ إنّ الذي يلقاها في الشارع مصادفة لا يستدير بعد مرورها.

قالت المعلمة:

- إنّها ذكية.

فأضافت تشينتيا معقّبة:

- إنّها تعرف من النظرة الأولى موضع الخلل في الرجل.

فقال بريغانتي:

- وأنا أجيد رؤية ذلك. لا ريب في أني لم أنظر إلى ولدي كما ينبغي.

قالت المعلمة:

- لنبدأ أولاً، بشأن مشروعنا، بإلقاء نظرة على الأرقام...

تناولت أحد المصنفات. فسُمِع طرق خفيف على الباب. وظهرت فولفيا ثانية، ومدّت يدها إلى بريغانتي بورقتي العشرة آلاف لير فأخذهما.

- كيف فعلت هذه المرة ؟

- إسأل الصغير غداً.

فنهض وأعاد إليها الورقتين بعد أن طواهما ووضعهما في يدها وقال:

- إنّهما لك. وأنت تستحقين هذا بجدارة.

- شكراً.

- قدمتُ شمبانيا بهذه المناسبة. هيا اشربي مع رفيقاتك.

- سأشرب فيما بعد. أمّا الآن فينبغي أن أعود للانتهاء من طفلك، فأنا فتاة مستقيمة.

- وكيف جعلك تخرجين؟

فنظرت في عينيه بسخرية وقالت:

- إنّه لين العريكة سهل الانقياد مطواع جداً. لا بدّ أنّك كنت شديد القسوة في معاملته. فتعوّد عادات سيئة. فصارت تروقه السيطرة عليه.

اقترب منها حتى كاد يلامسها وقال:

- الأمر إذن على هذا النحو، وأنت تعرفين كل شيء عن الجميع؟

فقالت:

- وعنك أيضاً.

- لكن ما من أحد فرض سيطرته عليّ مطلقاً.

والتفت ناحية المعلمة وتشينتيا وقال:

- انتظراني، فأنا لبعض الوقت بصحبة فولفيا.

فضحكت فولفيا وقالت:

- كلا، يا ماتيو، ليس اليوم.

- لماذا؟

فاقتربت من أذنه وقالت هامسة:

- كي أجعلك تنتظر. فأنت أيضاً سوف تزحف.

قالت ذلك بحيث لا يسمعها أحد غيره. فأجاب:

- لكن أنا رجل.

واقترب ليلتصق بها أكثر. فقالت:

- ما حيلتي. فأدعياء الفحولة ورجال الشرطة، أجعلهم يزحفون باستكانة. وهذا ما يريدون مني.

وابتعدت ثم قالت بصوت عال وهي لدى الباب:

- انتظرني قليلاً يا ماتيو. ليست إلا دقائق خمس وأبعث إليك بولدك.

رجع ماتيو ليجلس إلى الطاولة المغطاة بلوح زجاجي. وقال:

- لنرَ الأرقام...

قالت تشينتيا:

- ما رأيك بفولفيا لدارنا في سيبونتي؟ لو قبلت المعلمة وتخلّت لنا عنها، فإن انطلاقتنا هنالك ستكون انطلاقةً صاعقة.

قالت المعلمة:

- لا ينبغي أن نتوقف الآن عند التفاصيل.

وأمضوا ساعة بطولها في مناقشة الأرقام...

ثم قالت المعلمة:

- وابنك، ماذا حل به؟

فقال بريغانتي:

- لا بد أن يكون نائماً. فقد أنهكت فولفيا قواه.

بعثت تشينتيا في طلب فولفيا. فقالت إنّها تركت فرانشيسكو في الغرفة وهو يرتدي ملابسه، بعد أن دلته على باب الصالة الصغيرة لانتظار والده، ثم مضت للقاء زبون جاء يطلبها. وسألت تشينتيا الخادمة فقالت إنّ الصبي خرج من الغرفة بعد فولفيا بلحظات ثم غادر الفيلا على الفور. وأرسلوا في طلب البستاني فتذكّر أنّه رأى قبل ثلاثة أرباع الساعة، الشاب الطويل الذي وصفوه له، خارجاً من الفيلا. ثم سلك الطريق نحو فوجيا سيراً على الأقدام. وسألته المعلمة:

- هل كان يبدو في عجلة من أمره؟ أم كان حائراً مضطرباً؟ هل بدا يعرف الوجهة التي يقصدها؟

فقال البستاني:

- لا أدري.

لقد كان أمام فرانشيسكو، من حين مغادرته الفيلا قبل ثلاثة أرباع الساعة، متسعٌ كافٍ من الوقت للوصول إلى مركز المدينة. وهنالك باص سيتوجّه بعد قليل إلى بينيفان. لا شك في أنّ الصبي سيأخذه متوجّهاً إلى عند خاله مثلما كان مقرراً أن يفعل من قبل. ولم يجد بريغانتي في نفسه القدرة على الصبر حتى المساء، ليتصل هاتفياً بجار الخال، للتأكد من وصول ابنه.

فقال للمعلمة:

- استدعي لي سيارة أجرة.

اتصلت هاتفياً فأقبلت السيارة على الفور. فتوجّه بريغانتي إلى محطة الباصات. كان الباص الأخير على وشك التحرك لكن فرانشيسكو لم يكن راكباً فيه. وقام بجولة على كل الحانات والمناهل التي يعرفه أصحابها.

وفي كل مرة كان يعطي أوصاف ابنه. فيأتيه الجواب بالنفي. كلا.

ما من زبون انطبقت عليه تلك الأوصاف.

كان موعد الباص العائد إلى بورتو مناكوري في السادسة والنصف فتوجّه بريغانتي من جديد إلى محطة الانطلاق في السادسة والربع، عسى أن يكون فرانشيسكو قد هام على وجهه في المدينة، ثم قرر أخيراً وبكل بساطة أن يعود إلى البيت.

لكن ما في المحطة لفرانشيسكو من أثر.

في الساعة السادسة وخمس وعشرون دقيقة شاهد بريغانتي اثنين من رجال الشرطة من معارفه يتوجّهان نحوه بلباس مدني. فأسرع لملاقاتهما وسألهما باهتمام بالغ:

- ابني؟

فلقد تخيّل أنّهما أقبلا يخبرانه بوقوع حادث مؤلم.

قال أحد الشرطيين:

- لكنّ المسألة لا تتعلق بابنك.

فأضاف الآخر:

- لدينا أمر بإلقاء القبض عليك.

وعاد الأول يقول:

- نرجو أن تعذرنا. لكن معنا أمر بالتوقيف.

فقال بريغانتي:

- أروني إياه.

قرأ الورقة بكل تمعّن. لم يكن اكتشاف المحفظة مذكوراً فيها. فظــن أنّ القاضي أليساندرو أصدر الأمر، وهو في حالة هذيان من أحد أدوار الملاريـا الشديدة. أو أن يكون أحد قد كشف له عن دسيسة دونا لوكريزيا وفرانشيـسكو ومغامراتهما الغرامية، فأراد أن يثأر، وهذا هذيان آخر. لقد ارتكب القاضـي حماقة. وينبغي التفكير في وسيلة للإفادة منها.

قال أحد الشرطيين:

- علينا أن نأخذك إلى بوردو مناكوري.

وقال الثاني:

- علينا أن نضع القيد في يديك.

فأضاف الأول:

- اصعد معنا في الباص. ولن نضع لك القيد إلا ساعة الوصول.

فقال بريغانتي:

- لكني أستأجر سيارة.

- لا بأس.

- بقي أني على موعد مع ابني لأخذ الباص. فهلا انتظرنا قليلاً.

لم يكن الشرطيان في عجلة من أمرهما.

وانطلق الباص دون أن يظهر فرانشيسكو. مضى الرجال الثلاثة معاً للبحث عن سيارة أجرة.

قبل بورتو مناكوري بقليل تجاوزتهم سيارة حمراء من نوع جولييتا كانت متوجّهة إلى السبخة، تحمل طبيباً استُدعيَ على عجل لمعاينة دون سيزار.

دخل بريغانتي السراي والقيد في يديه. فاقتادوه حالاً إلى مكتب القاضي. أجاب على الأسئلة المطروحة باقتضاب شديد. فهو لم يرَ محفظة السويسري قطعاً. ولا يفهم بالتالي ضمن أية ظروف أمكن اكتشافها في الملحق التابع لمنزله.

لم تكن المحفظة يوماً في جيبه البتة، فخادم المنهل كان يكذب.

قال له القاضي إنّه سيقابله صباح اليوم التالي بجوستو. ثم أوعز باقتياده إلى السجن ليوضع في الزنزانة الانفرادية الوحيدة.

بعد ربع ساعة دعا به المفوّض أتيليو إلى مكتبه وأغلقا على نفسيهما الباب.

- هات ما عندك...

فأجاب بريغانتي:

- سنتولى معاً إيضاح المشكلة بعد قليل...إنّ ولدي فرانشيسكو قد اختفى وأنا خائف من أن يرتكب حماقة...

وسرد الوقائع من بدايتها: اكتشاف الرسالة، غراميات دونا لوكريزيا وفرانشيسكو ومشروع الهروب، الثلاثون ألف لير. كيف اصطحب ابنه إلى دار المعلمة، حيث تمكنت فولفيا من انتزاع المبلغ منه. أمّا وقد ثاب الصبي إلى رشده، فيمكن أن يكون الخجل من سلوكه الشائن قد دفع به للوقوع في براثن اليأس.

أنذر المفوّض على الفور المنطقة هاتفياً. ثم قال:

- كان الدرس مفيداً. لكنّك لقنته إياه بطريقة قاسية بعض الشيء.

وسكت قليلاً ثم أضاف يقول:

– علمت قبل قليل أنّ دونا لوكريزيا قابلت ابنك يوم أمس في مغارة التوسكانيين قرب الترابوكو. لقد شاهدهما أحد الصيادين معاً فوق الشاطئ الصغير عند أسفل غابة الصنوبر. لم أشأ في البداية أن أصدّق ذلك عن لوكريزيا... لقد أخطأتُ كثيراً لأنني لم أُولِها اهتماماً من قبل. لاشك في أنّها تجيد فنوناً عدة. ولو فعلتُ ذلك لوفرتُ عليك وعلى ابنك متاعب كثيرة... أمّا الآن فهات نتحدث عن المحفظة.

– أقول لك كلمتي، أنا بريغانتي، كلمة رجل وقول شرف، ليست لي بالسرقة من علاقة البتة. لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة...

– كان رأيي فيك أنك أكثر ذكاء من أن تلوّث سمعتك في قضية على هذه الشاكلة. لكنك أنت الوحيد الذي خبأت المحفظة في... شقتك الصغيرة في البرج.

– أنا خبأتها.

– ألا تعرف أين المال؟

– لا أعرف بعد.

– لماذا عرضت المحفظة أمس أمام عيني جوستو؟

– لم أكن أعرف أنّها في جيبي.

– من الذي وضعها في جيبك؟

– لا أعرف من هو.

– هل أنت تتستر على أحد؟

فكر بريغانتي هنيهة.

– إن كنتَ تعرف السارق، ستجد مشقة كبرى في الإثبات أنك غير متواطئ معه.

- لا أعتقد أنّ السارق هو الذي دسّ المحفظة في جيبي.

- عرفتك على الدوام فطناً محترزاً. أمّا الآن فأشعر بأنك تنقاد لتأثير خارجي.

وإني لأتساءل من قبل من...

أجاب بريغانتي:

- إني لا أرى الأمور بوضوح حتى الآن.

- ألا تستطيع أن تشرح لي المسألة فيما بيننا.

- ليس بعد.

- من الذي خدش خدك ؟

- لا علاقة لهذا بذاك.

- هل دخلت في عراك مع أحد ما؟

فقال بريغانتي:

- كلا. لكنّها عذراء كنت أغتصبها.

فقال المفوّض:

- لم يحالفنا الحظ في علاقتنا مع العذارى.

- خذ جوزبينا إلى مكان ما. أوسعها ضرباً ثم اغتصبها. وبعدها لن تفكّر فيها أبداً...

- لم أتعوّد ذلك.

- تحوّل إذن للاهتمام بامرأة أخرى.

- إني أحاول. وستكون لوكريزيا مهزومة حين تعلم كيف أن ابنك...

تغضّن جبين بريغانتي.

«ألا كم يحب ابنه». قالها المفوّض في نفسه مسروراً لأنّه اكتشف صدعاً في قوة بريغانتي. وتساءل ما إذا كان لفرانشيسكو علاقة ما بسرقة النصف مليون لير، وهذا يفسّر ذلك التكتم كلّه من جانب الأب.

واستأنف يقول:

- إنّ لوكريزيا...

مدّ بريغانتي يده بسرعة إلى عانته، فعلى هذا النحو يتمّ طرد العين الشريرة وتفادي خطرها. وهو يتخيل الآن أنّ زوجة القاضي كتبت سحراً وألقته على فرانشيسكو. شعر المفوّض بالأسف لأنّه استخف كثيراً بالعذاب، الذي أوصل أعقل رجل التقى به على الإطلاق، إلى عالم الخرافة وفساد العقل.

وسأله:

- هل بقي في حوزة ابنك من مال ؟

- في حدود الخمسة آلاف لير أعطيته إياها مصروف جيب...

- سوف يعود بعد أن ينفقها كلّها. فنحن معتادون على هذا النوع من الهروب.

تغضن جبين بريغانتي ثانية. قال:

- ليس فرانشيسكو على شيء من الصلابة التي كنت انسبها إليه.

فسأله المفوّض بسرعة:

- ما الذي يجعلك تقول ذلك ؟

- لقد سيطرت عليه فولفيا بمنتهى السهولة.

وخاب ظنّ المفوّض. ذلك أنّه كان يأمل بأنّ قضية السويسري هي التي ستطرح على بساط البحث من جديد.

قال:

هذا طبيعي في مثل سنه.

فقال بريغانتي:

- سوف أحطمه تحطيماً. فالدراسة انتهت. سأحوله للعمل على واحدة من سياراتي الشاحنة في منجم البوكسيت. ولسوف يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً. فيأكل في منتدى العمال. وينام فوق حشيّة من القش في المستودع ليخف وزنه ويصبح نحيفاً. فهو فائق السمنة بالنسبة لسنّه. كان عليّ أن ألحظ ذلك من قبل.

- من قبل ماذا؟

- من قبل فولفيا.

نظر إليه المفوّض مستفسراً. فرأى فجأة، ولأول مرة منذ عشر سنين، التقيا في بحرها يومياً، عيني بريغانتي والوهن فيهما.

قال بريغانتي:

- أرجوك، إبحث عنه واعثر عليه.

- طلبت ذلك هاتفياً.

- إذا ما علم أنني موقوف.. فقد ينتابه مزيد من الإحساس بالعار. إنني خائف...

فقال المفوّض:

- لا بالتأكيد. ولا بدّ من أن يكون في هذه الساعة مرمياً في إحدى الحانات وقد تعتعه السكر. فالهاربون من أمثاله ليسوا شيئاً جديداً علينا. وكلّهم يتصرف بالطريقة نفسها.

ونهض المفوّض وقال:

- سأهتف بعد قليل إلى فوجيا ثانية لكي يضاعفوا عمليات البحث. أنا مُلزَم الآن بإعادتك إلى زنزانتك. لقد تحدثنا أطول مما ينبغي. ولسوف يقول معاوني: إننا اتفقنا معاً على خطة واحدة.

قال بريغانتي:

- كلا. لقد قمتَ باستجوابي. وهذا مشروع.

ثم نهض. وعادت لنظرته صرامتها المعهودة.

- وبماذا أجبتني أنت؟

- بمثل ما أجبت القاضي تماماً. فأنا لم أرَ المحفظة. ولم تكن في جيبي مساء أمس وجوستو قد كذب.

- هل رآها وحده فقط؟

- أجل. فوقفتي آنذاك لم تتح للزبائن رؤية شيء مطلقاً. على أية حال لن يجرؤ أحد على أن يشهد ضدي.

ابتسم المفوّض وقال:

- فهمت. فقد لفّق جوستو الحكاية كلها وافترى عليك.

- لو أنّي مكان الشرطة لكان هذا اعتقادي.

- ولكن كيف استطاع دخول البرج لكي يخبّئ المحفظة؟

وفكر بريغانتي برهة من الزمن. ثم قال:

- إليك كيف.. لقد سرق جوستو مني المفتاح.. ذات مساء من الأسبوع الفائت.. كان في جيب سترتي الزرقاء البترولية... بعد أن بسطتها على مسند الكرسي... وقد ابتعدت قليلاً للتحدث مع بيزاشيو.. لم أعثر على المفتاح من بعد.. فظننتها إحدى عمليات «الواليوني» ... لم أخبر بالمسألة غير بيزاشيو... ثم نسيتها تماماً... وسوف أتذكّر كل هذا بعد عثور الشرطة على المفتاح واستجوابي بهذا الشأن... وأيضاً بيزاشيو سوف يتذكّر.

- وأين ستعثر الشرطة على المفتاح؟

فأجاب بريغانتي:

- فوق أرض المنهل، غداً، في حدود الساعة الحادية عشرة... سوف يسقط المفتاح من جيب جوستو وهو يقدم كأساً إلى بيزاشيو.

فقال المفوّض:

- كلا. فالقاضي نفسه يعلم أن بيزاشيو ساعدك الأيمن.

- أثناء تقديم جوستو الكأس للأسترالي. رجال الشرطة الجالسون إلى مائدة مجاورة سوف يلتقطون المفتاح. فتجذب انتباههم بطاقة صغيرة معلقة به ومكتوب عليها «بوابة مستودع البرج الصغيرة».

قال المفوّض:

- سيرفعون إليّ تقريراً بالواقعة ويسلّمون المفتاح للقاضي.

قال بريغانتي:

- وأنا أمامي الليل بطوله للتفكير. فبودي أن أساعدك في العثور على سارق النصف مليون لير. سيكون بمكانة درجة تقدير تسجل في إضبارتك. وربما ينتهي بك المطاف إلى الحصول على الأمر بالنقل...

- إنّ ما تعرف عن القضية يزيد عما قلت لي.

فقال بريغانتي:

- إني على الطريق، على الطريق ليس إلا...

- لو كنت في سلك الشرطة لتفوقت عليّ.

- أجل. وذلك لأنني أشدّ أنيّة منك. فأنا أعمل لحسابي.

فقال المفوّض:

- سوف أوعز بحمل طعام العشاء إلى زنزانتك. هل تريد نبيذاً؟

أجاب بريغانتي:

- كلا. إذ ينبغي عليّ في هذه الليلة أن أفكر.

وابتسم ابتسامته المبتورة وتغضنت أجفانه. ثم أضاف:

- سوف أعمل في هذه الليلة لحسابك.

واستدعى المفوّض معاونه وقال:

- اصطحب المتهم.

فقال المعاون لبريغانتي:

- اتبعني.

قال بريغانتي:

- سيدي المفوّض، أطلب منك ألا تنسى...

والتقت نظرات الرجلين.

- الولد...

وشدّ قامته بصلابة وسار وراء المعاون.

حين أصبح بريغانتي وحيداً في زنزانته مع رئيس الحرس، وهو أحد المدينين له، سأله قائلاً:

- في أية ساعة تنتهي فترة مناوبتك؟

أجاب السجان:

- لقد انتهت. وأنا هنا الآن من أجلك فقط.

- عليّ أن أتحدث إلى بيزاشيو.

- سأذهب كي أحيطه علماً. لكنّه لن يتمكن من الحضور قبل منتصف الليل. فهنا حارس لا أثق به كل الثقة. لذا سأدفع له ثمن مشروب، ويلزمني وقت لا بأس به حتى أجعله ينام.

فقال بريغانتي:

- منتصف الليل، لا بأس.

رأى المفوّض أتيليو من نافذة مكتبه، القاضي أليساندرو خارجاً من السراي للقيام بجولته المعتادة بعد العشاء. فكتب إلى دونا لوكريزيا كلمة موجزة طالباً إليها الحضور إلى مكتبه رغم الساعة المتأخرة. ولمّا كانت قد علمت بتوقيف ماتيو بريغانتي فقد نزلت حالاً.

قال المفوّض:

- يا صديقتي العزيزة، إنّ العاملين في أجهزة الأمن يطّلعون بحكم طبيعة عملهم، على كثير من أسرار الحياة الخاصة. لكنّهم ملزمون بدافع من شرف المهنة، ومن الصداقة أحياناً، على التظاهر بجهل تلك الأسرار. أمّا اليوم فإنّ الشرف والصداقة يدفعان بي إلى التحدث إليك بصراحة... فأنتِ استودعتِ غلاما ثقةً ومالاً، لكنّه لم يكن أهلاً لثقتك...

ولخّص لها تفاصيل القضية على طريقته، دون أن يخبرها باعتراف ماتيو بريغانتي. وكأنّه قدم تقريرشرطة، دون أن يضيف عليه أي تعليق. فالشاب فرانشيسكو أمضى فترة بعد الظهر في إحدى دور المتعة في فوجيا، حيث أنفق كميات من المال لا تتناسب مع إمكاناته. وقد عثر معه على رسالة من دونا لوكريزيا، يُفهَم من فحواها أنّها عشيقته، وأنّهما وضعا خطة للرحيل معاً نحو مدينة في الشمال. وأنّه أخذ منها مبلغاً يصل إلى ثلاثين ألف لير وما لبث أن وهبه لإحدى بنات الهوى.

كانت دونا لوكريزيا جالسة قبالة المفوّض أتيليو، تصغي بصمت متماسكة الأعصاب، مستقيمة الجذع.

وقد اختفى فرانشيسكو على أثر ذلك، والرسالة، للأسف، في حوزته. والشرطة تبحث عنه الآن، واتخذ المفوّض من جانبه كافة الاحتياطات من أجل إتلاف الرسالة إذا ماعثر عليها مع الصبي أو أن يتمّ تسليمها إلى دونا لوكريزيا شخصياً.

وسألته قائلة:

- ولماذا تقوم الشرطة بالبحث عنه؟

ورد المفوّض باللهجة المفصّلة «الموضوعية» نفسها، التي سرد بها تقريره (المزوّر).

- إنّ الضيق الذي سينتابه من الظهور ثانية أمامك، مضافاً إليه الانفعال والتأثر لعلمه بأن أباه موقوف بتهمة السرقة...

وهبت واقفة وصاحت:

- هل انتحر؟

- كلا.

- أنت لا تجرؤ على أن تقول لي ذلك.

فرد المفوّض قائلاً بحزم:

- كلا. لقد اختفى. ونحن نبحث عنه. هذا كلّ ما في الأمر.

- ألست تخفي عني شيئاً؟

- أقول لك كلمتي قطعاً.

- أتيليو، لابدّ من العثور عليه. لابدّ. إنّه ولد.

- لم أكفّ عن الاتصال هاتفياً بكافة جهات المقاطعة.

- قد تعرف تلك الفتاة مكانه.

- لا نعتقد ذلك.

- لابدّ أن لديكم فكرة عما يمكن أن يفعل.

- إننا نبحث.

فقالت بإلحاح:

- أخبروني لمجرّد علمكم بمكانه. ومهما كان الوقت متأخراً. أيقظوا المنزل كلّه.

فقال محتجاً:

ولكن...

فصاحت قائلة:

- سأصرخ بملء صوتي، وأعلن عن حبي أمام المدينة كلّها، وعلى رؤوس الملأ والأشهاد.

- يا صديقتي العزيزة...

فقالت:

- اعثروا عليه.

ثم خرجت. وسمعها تصعد الدرج بسرعة. وسمع الباب يغلق في الطابق الرابع.

بدأ يوبخ نفسه لأنّه أمضى هذه السنين كلّها، قريباً كل القرب من دونا لوكريزيا، فيلتقي بها يومياً تقريباً، دون أن يخمّن مدى الاندفاع الكامن فيها. فكلّ العنف العاطفي الذي أبدته، وكلّ ما ظهر عليها من عفوية الحب، يضعانها في مرتبة أعلى بكثير من كافة العشيقات اللواتي عرفهن. فقام على الفور بوضع خطة عمل. سوف يحافظ يوم غد، وفي الأيام التالية، على اللهجة نفسها التي اصطنعها هذا المساء، بوصفه موظفاً كتوماً ذا منصب مرموق. مع إفساح المجال أمامها لاكتشاف عمق مشاعره نحوها، عن طريق بعض التفاصيل الصغيرة، كالتعجيل في اطلاعها على آخر المستجدات، والحرص على إبعاد المصطادين في الماء العكر، وحرارة المصافحة والتكتم النزيه. لا بدّ من كسب ثقتها بشكل منظم، والفوز بحق الإصغاء لمكنونات صدرها. وينبغي بعد العثور على فرانشيسكو وعودته صاغراً إلى مناكوري، عدم الإشارة إليه بأصابع الاتهام، بل الوقوف موقف المدافع عنه. والانتظار حتى تقتنع دونا لوكريزيا عن طريق تجربتها الخاصة، بدوعية عشيقها المهلهلة وسلوكه الجبان. إلى أين ستتوجّه بعد كل ذلك، بحثاً عن سند وملجأ، إن لم يكن إلى عند صديقها المخلص، والرجل الحقيقي الوحيد الذي تعرف، إلى عنده هو؟ وبعدها لا يبقى له غير الانتقال إلى مرحلة الهجوم، فالغزو.

نهض من على مقعده، ومشى إلى وسط المكتب، وبدأ في تأدية بعض الحركات الرياضية: اليد اليمنى تلمس رأس القدم اليسرى دون طيّ الركبة وبالعكس. هبوط وصعود بثني الركبتين، والجذع منتصب. «أنا في أحسن حال. الجنوب فيه كنز، وأنا سأحصل عليه. إني أحسّ بالجوع».

ترك مكتبه وصعد إلى بيته الأعلى بطابقين. كانت آنا جالسة تشتغل بحياكة الصوف وجوزيبينا بصحبتها.

قالت جوزبينا:

- طاب مساؤك سيدي المفوّض.

فأجاب دون أن ينظر إليها:

- طاب مساؤك.

وفكّرفي أنّه سوف ينال هذه أيضاً بعد ثلاثة أشهر من التظاهر بالبرود وسوف تسمح له تلك بالانتظار.

وسأل قائلاً:

- ألا نجلس إلى المائدة؟

فقالت جوزبينا:

- إذن، أنا ذاهبة.

فقال المفوّض:

- تحية للأهل.

ثم قال لزوجته:

- أنا جائع يا عزيزتي. بل أموت من الجوع.

قاربت الساعة الحادية عشرة صباحاً، حين استيقظت ماربيت وبيبو من رقادهما فوق الأكياس، في مستودع بستان البرتقال والليمون، والساق تلتف بالساق، وأيديهما متشابكة، على مثل حالهما حين استسلما للنوم عند الفجر.

فأرسل بيبو الاثنين من الواليوني المكلّفيْن بصيانة الأقنية الترابية، لشراء خبز ولحم مبرّد من مناكوري. ثم تسلق شجرة تين وأخذ يقطف أولى ثمار الموسم. وذهبت ماربيت إلى حوض النبع فملأت الإبريق ماء.

كانت الغلبة ليلاً للسيروكو على الليبيشيو فتراجع رتل الغيوم بعيداً جداً في البحر وأصبح فيما وراء الجزر. واختلط عند الأفق مع البحر ليصير خيطاً ضئيلاً يشير فقط إلى الفاصل بين السماء والبحر. أمّا تحت أشجار البرتقال والليمون والتين فالجو أميَل للبرودة.

أكلت ماريت وبيبو بشهية عجيبة. ثم دخلا المستودع وأغلقا الباب واستأنفا ما انقطع من ملامسات الحب وحركات الوصال، وهما ينتشيان عجباً لتلك الحركات البسيطة كيف تفعمهما وجداً.

لم ينزل بيبو إلى بورتو مناكوري ثانية إلا حين أقبل الليل. وعلم على الفور من الواليوني المقيمين في السبخة أنّ دون سيزار أصيب بشلل في الذراع والساق منذ مساء الأمس، وإنّ طبيباً وصل لتوّه من فوجيا لمعاينته وهو طبيب شهير لا ينتقل إلا مقابل آلاف الليرات، وقد جاء في سيارة ألفا – روميو من صنف جولييتا، حمراء اللون، يقودها شاب فتي جداً. ألا كم هو محظوظ ذلك الشاب!

وقال الواليوني القادمون من السبخة إنّ دون سيزار لم يكفّ عن طلب ماريت، وإنّه يريد أن يكون علاجه على يدها.

وعلم بيبو أخيراً بأنّ ماتيو بريغانتي شوهد نازلاً من سيارة أجرة، مقيّد اليدين، يرافقه شرطيان بلباس مدني، بعد أن وشى به جوستو، خادم منهل نادي الرياضة. وإنّه أثناء تفتيش منزله بعد الظهر عثر على المحفظة المسروقة من السائح السويسري، لكن لم يعثر على الخمسمئة ألف لير.

صعد بيبو إلى البستان ثانية حاملاً هذه الأحداث كلّها لماريت وانتهى إلى الاستنتاج التالي:

– لقد قام أحدهم بتلفيق تهمة ضد بريغانتي. وإلا فكيف يقال إنّ المحفظة وجدت عنده؟

فقالت ماريت:

- ذلك إنّها عنده حقاً.

فأسرع بيبو نحو كومة الأكياس ورفعها وبحث فلم يجد المحفظة.

قال:

- كيف تفسرين ذلك؟

فروت له ماربيت كيف قامت بتبديل المحفظتين قبل أن تعيد لبريغـــانتي الموسوم سترته المخملية الزرقاء البترولية.

- لِمَ لم تخبريني بذلك من قبل؟

- كانت في ذهني خطة.

فقال بيبو باحتجاج:

- لديك دائماً خطة. أمّا أنا فلا أرى إلا شيئاً واحداً، ذلك أنّ بريغـــانتي بات يعرف الآن أننا نحن الذين قمنا بعملية السويسري.

فقالت ماربيت:

- يا قليل العقل، من هو الموقوف من قبل الشرطة ؟ نحن أم بريغانتي؟

- سوف يشي بك.

- لكن ليست محفظة السويسري في حوزتي أنا.

- سوف يجدون المال.

- فليقوموا بالبحث.

- ألن تقولي أين خبأته؟

- لا يزال عقلك صغيراً جداً.

- وماذا فعلت بمحفظة بريغانتي؟

- طمرتها في الأرض.

فردد بيبو قوله:

- إنّي لا أفهم، إنّي لا أفهمك...

ولكن كيف تمكّنت ماريت من غير أن تغادر المستودع – فهو يعرف حق المعرفة أنّها لم تغادره – من حبك المكيدة التي أدت إلى تفتيش منزل بريغانتي في مناكوري ثم إلقاء القبض عليه في فوجيا ؟ وبقي مع ذلك غير مرتاح أبداً لتدخل الشرطة في القضية. فلمَ فعلت ماريت ذلك ؟ وكيف؟

وألحّ في الاستفسار:

– أوضحي لي.

أدخلت ماريت أصابعها في ضفائر الغلام السوداء وقالت:

– لدي خطة في رأسي.

ثم أضافت:

– ينبغي أن أرجع الآن إلى البيت. وأنت سترافقني. سنقوم بالدوران حول بساتين الزيتون، كي نتحاشى المرور في مناكوري، حيث لا ينبغي لأحد أن يرانا لبضعة أيام. أنت ستمضي لتختبئ في برج شارل كان. وأنا سأحمل الطعام بنفسي إلى هناك.

كان الطبيب القادم من فوجيا إنساني النزعة والتفكير، وليس أمثاله بقلائل في جنوب إيطاليا، فالاختصاصات العالية هنالك، لا تبلغ حدّ الوقوف حائلاً بين الطبيب وبين أن يكون له مفهومه الخاص عن العالم. ولقد ربطته بدون سيزار أواصر معرفة قوية منذ أكثر من عشرين سنة، وهو يكنّ له كل التقدير لأنّه رجل ذو ثقافة عالية، فقد رأى فيه صورته. ولم يجد من ضرورة لإخفاء الحقيقة عنه. فهو مقتنع بأنّ من يبلغ حداً معيناً من الثقافة لابدّ من أن يتجاوز الخوف من معرفة الحقيقة والجزع من الموت. كان الاثنان ماسونيين حسب الطقس الاسكتلندي لكنّهما ملحدان.

امتدّ الشلل من الأطراف ليصيب النصف الأيمن كلّه باستثناء الوجه. وكان هنالك خدر خفيف يعيق حركة الفك من غير أن يمنع دون سيزار من الكلام حسب عادته.

فحص الطبيب القلب فلم يسجل أي تضيّق تاجي أو أية آفة أخرى يمكن أن تولّد جلطة دماغية.

سلّط على العين نوراً قوياً، فرأى أن البؤبؤ لم يعد يتضيّق أو يـتقلّص بالنور. ثم جعل دون سيزار يقرأ، مبعداً الكتاب عن عينيه تدريجياً. فوجـد أن البؤبؤ يتكيّف مع المسافة.

وقاس حرارته فكانت ثمانياً وثلاثين درجة وعُشريْن.

سأل الطبيب المريض إنْ كان قد أصيب بمرض زهري فـي حياتـه. فأجابه إنّ ذلك قد حصل قبل خمسة وعشرين عاماً، وإنّه تلقى العـلاج وفقـاً لطريقة المعالجة آنذاك. وهل أُصيب بعدها بنكسات ؟ يفترض أن لا، وإنْ يكنْ غير متأكد تماماً. فهو على أي حال لم يلحظ شيئاً ولم يستشر طبيباً قط. وكلما أحسّ بتوعك تناول شيئاً من الكينين، على نحو ما كان يطلـب إلـى فلاحيـه وصيانيه أن يفعلوا في الحالات المماثلة. لأنّ كل ما يصيب الجسم مـن آلام، يُنسَبُ في السبخة إلى البرداء.

أجل، سبق أن انتابته حالات من الوهن والإحساس بالخدر. وكانت ساقه اليمنى أو ذراعه اليمنى لا تطاوعانه أحياناً، لكن بشكل نادر. إلا أنّه لم يصب بالرجفة قط بل ظلّ حتى يوم أمس أمهر صياد في المقاطعة. يبقى أنّه كـان يشعر أحياناً بتنميل في قدمه أو يده.

قام الطبيب بعملية بزل قطنية وأخذ عينة من الدم. ولن يقول رأيـه إلا بعد إجراء التحاليل.

وسأله دون سيزار:

– أنت الآن تضع فرضية؟

قال الطبيب:

– أجل، شلل نصفي على مراحل، ذو مصدر زهريّ قديم.

– وما تشخيصك؟

- احتمال الشفاء ضئيل.

وأوضح الأسباب بلغة طبية تعود إلى مطلع هذا القرن، وتقع مصطلحاتها ومدلولاتها في متناول كل رجل ثقافة.

ولّدت فكرة الموت المرتقب نوعاً من الإثارة في نفس دون سيزار. فلأول مرة منذ سنين، ومذ أن فقد الاهتمام، أخذ يتأمّل بصوت عال. فالمتعة التي تولّدها عشرة النساء لم تخيّب ظنّه البتةً، وميله إليهنّ لم يُصَب بوهنٍ قطّ. وفي اللحظة نفسها التي أصيب فيها بالشلل، كان قد عقد العزم على أن يستضيف في سريره، أكثر فتاة في داره حسناً وفتنة. وكما يسقط الجندي على أرض المعركة، وجد نفسه يهوي صريع جراحه بعد أن استبسل وجهاً لوجه في معركته المفضلة، معركة الحب. رأى أنّها ميتة مشرّفة. إنّ حاضرة أوريا القديمة كانت مكرّسة لآلهة الحب فينوس (الزهرة). وها هو آخر سيد من أوريا، بعد أن أمضى السنين الطوال ينبش من تحت الرمل وينتزع من قلب السبخة آثار تلك الحاضرة النبيلة ورسومها، يموت بداء فينوس «الزهري»، فتنتهي حياته من غير ما تنافر.

قدّر الطبيب بينه وبين نفسه أنّ داء الزهري لا يستحق تلك النفحات الشاعرية كلّها. لكنّه سعِد برؤية صديقه متماسكاً أمام الموت. فاللحظة الأخيرة وحدها هي التي ترسّخ لدينا بشكل نهائي فكرةً نحملها عن مزايا الرجل. وها هو دون سيزار يقدّم البرهان الآن على أنّه رجل المناقب والمزايا.

سأل كم تبقّى من الوقت لتصريف شؤون بيته. فالمرض يتقدم مسرعاً والحرارة بدأت ارتفاعها. لم يكن بوسع الطبيب أن يعده بأكثر من أربع وعشرين ساعة من صفاء الذهن والقدرة على التعبير. والواقع أنّه لا يستطيع تأكيد أي شيء. فالعيّ يمكن أن يطرأ بين لحظة وأخرى. وسوف يعود صباح غدٍ حاملاً نتائج التحاليل.

في هذه الأثناء كان يتجمّع في القاعة الكبرى، تحت غرفة دون سيزار، كل من جوليا وإلفيرا وماريا وطونيو وعدد من أولادهما، وهم يتلون التسابيح

من أجل شفاء سيدهم. كانوا واقفين حول الطاولة الكبرى من خشب الزيتون، فيهم طونيو مكتوف اليدين فيما أطبقت كل من النساء كفاً على كف.

كانت جوليا تبدأ التلاوة قائلة:

«السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك يسوع».

ثم تصمت لتتابع في سرّها مع الآخرين:

«يا قديسة مريم، يا والدة الابن الحبيب ، صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا».

ثم يعلو صوت الجميع وجوليا معهم قائلين:

«كوزي سيّا» (آمين).

وتستأنف جوليا التلاوة قائلة وحدها: «السلام عليك يا مريم...»

أمّا الكنبة النابوليتانية الكبرى من القرن الثامن عشر ذات المساند من الخشب المحفور المذهّب، فقد أُبعدت عن الطاولة. ووُضِعت وحدها فارغة، في منتصف القاعة.

تجمّع الرجال القادمون من أكواخ القصب ومعهم الأولاد في السهلة الترابية أمام الدرج الخارجي للدار ذات الأعمدة ، متحلّقين حول سيارة الطبيب، الجوليتا، سائلين السائق الشاب، مستفسرين عن مزاياها الفنيّة وخصائصها. أمّا نساء الصيادين فكنّ متجمّعات ينتظرن عند أسفل الدرج. وبرزت ماريت من وراء سياج الخيزران فدارت حول جمع الرجال وشقت طريقاً لنفسها بين النساء، وصعدت الدرجات بسرعة، ثم انسلّت لتقف بين طونيو وأحد الأولاد أمام الطاولة الكبرى. وضمّت يديها واحدة لأخرى.

وأكملت العجوز جوليا قولها:

«ثمرة بطنك يسوع».

فتمتمت ماريت مع الآخرين همساً:

«يا قديسة مريم، يا والدة الابن الحبيب...»

وسمعوا وقع خطى الطبيب نازلاً على الدرج. فسكتوا.

واستداروا نحو باب الممر.

حدّق الطبيب فيهم، باحثاً عن تلك الفتاة التي عقد دون سيزار العزم على استضافتها في سريره، قبيل أن قيّد مرضٌ فينوس حركةَ ذراعه وساقه، فتوقفت عيناه عند ماربيت، فتوجّه بكلامه إليها قائلاً:

- سأعود غداً صباحاً. أمّا الآن فلا أستطيع أن أبدي رأيي.

ولاذ بالصمت لحظة ثم أضاف:

- الأمل ضعيف جداً.

ثم خرج. وندّت عن إلفيرا صيحة توجع طويلة.

فقالت العجوز جوليا:

- اخرسي.

ورفعت يدها لتلمس قرناً صغيراً من المرجان، تعلقه تعويذة في عنقها مع أيقونة العذراء.

«اخرسي. إياك والبكاء. لا سيّما أنّ الموت لمّا يدخل البيت.»

وصعدوا إلى غرفة دون سيزار فتجمّعوا حول السرير ذي القبة.

أجال عينيه فيهم بصمت، حتى استقرّتا على ماربيت.

قال:

- ها أنتِ قد عدتِ أخيراً.

كان جالساً فوق السرير مستنداً إلى عدد من المخدات. أمّا ذراعه اليمنى التي باتت عاجزة عن الحركة، فقد أراحها فوق تُكأةٍ من الحرير الأبيض والذهبي.

كان طونيو قد حلق له ذقنه مثلما يفعل كل صباح. أمّا شعره الأشيب الذي قامت إلفيرا بتمشيطه فيتوّج جبينه بانتظام كالعادة. وبرز طرف منديل حريري أبيض من جيب سترة النوم الزرقاء الغامقة، وهي من الحرير أيضاً.

أسرعت ماريبت لتجثو على ركبتيها قرب السرير وأخذت تقبّل يده اليمنى.

- سامحني، يا دون سيزار، سامحني.

وأغرقت يديه بدموعها.

تبسّم وهو ينظر إليها ثم قال:

- هذه هي أوامري: إنّ ماريبت هي التي ستتولى العناية بي. هي وحدها. أمّا أنتم فعليكم الانتظار تحت. على طونيو أن يهيىء اللامبريتا، ويبقى طول الليل مستعداً للذهاب إلى حيث تقتضيه الضرورة. وسوف تقول لكم ماريبت ما ينبغي عليكم أن تفعلوا وما إن كنتُ بحاجة إليكم.

وخرجوا في سكون. إلا أنّ العجوز جوليا توقفت عند العتبة لتقول:

- يا دون سيزار. ينبغي أن ترسل في طلب كاهن.

- أصغي إليّ جيداً، يا جوليا...

لقد تكلّم دون غضب، لكنّه شدّد على الكلمات حتى لا يعودوا إلى إثارة غيظه ثانية.

- ... ما تزال لديّ ذراع أحرّكها ولم يُضنِني يوماً إطلاقُ النار بيدي اليسرى. إنْ يدخلْ كاهن بيتي، وأنا على قيد الحياة، أوجّهْ رشقةً من الخردق إلى قفاه.

فرسمت جوليا إشارة الصليب وخرجت. وبقي وحده مع ماريبت الجاثية بقرب السرير، وشفتاها على يده اليمنى تقبلها باكية وتقول:

- سامحني، يا دون سيزار.

كم ودّ لو يسحب يده ليضعها على رأس الفتاة ويمسح على جبينها لكن يده ما عادت تطاوعه.

قال لها:

- هيا انهضي وتحوّلي إلى الناحية الأخرى من السرير.

فنهضت وتحوّلت إلى الناحية الأخرى من السرير، على يسار دون سيزار.

- خذي كنبة واجلسي.

فأخذت كنبة وجلست عند رأس السرير.

- أعطني يدك.

مدّت له يدها الندية ليضعها في يده الملتهبة.

- أمّا الآن فهاتِ حدثيني عما فعلت طول هذين اليومين.

فوضعت عينيها في عينيه. ثم أجابت:

- لقد مارستُ الحب.

نظر إليها متبسّماً.

- وهل بوسع فتاة أن تفعل ما هو أفضل من ذلك؟

وشدّ على يدها. ثم قال:

- تبسّمي لي.

تبسّمت له من خلال دموعها. وأحسّ بيدها الندية ترتاح داخل يده الملتهبة.

قال:

- كنتُ آملُ أن أتولى بنفسي تعليمك فنون الحب. لكنني لم أقرّر إلا بعد فوات الأوان. لكن قولي لي على من وقع اختيارك صديقاً.

-على بيبو، زعيم الواليوني .

- الصبي ذي الضفائر السوداء النازلة على جبهته؟

- أجل.

إنّه وسيم وممتلئ حيوية بكل تأكيد. لقد فزتِ لأنني قرّرتُ بعد فوات الأوان.

فهتفت مارييت بحماس:

- لكنني أحبك، يا دون سيزار.

ومالت بجذعها نحوه، وعيناها متوهّجتان، دون أي تحفّظ ونظر إليها دون سيزار في سكون.

رأى أنّها صادقة وغير صادقة. وأنّ هنالك أشكالاً عديدة للحب. وأنّه لم يعد يعطي هذه الكلمة، منذ سنين عديدة، معناها المطلق والتقديسي إلى حد ما، حسبما يسبغه عليها صغار العشاق. وأنّه منذ عشرات السنين لم يقل في نفسه «أنا أحب» بمعنى الفعل اللازم والقائم بذاته، على نحو ما فعل بحماس غامر حين عرف عاطفة الحب لأول مرة. وأنّه لصحيح ما قالت مارييت، فهي قد أحبته حقاً وبطريقة ما، وأنّ الفتاة قد تمثلت فيه، صورة كافة القيم التي علّموها أن تحترمها وأن ترهبها وأن تحبها، منذ نعومة أظفارها. ففيه تتجلى صورة الله الآب، حين يكون على كنبته النابوليتانية الكبرى ساكناً، مغرقاً في التفكير، مصدراً أوامره لرجال داره وأهل بيته. كما يمثّل صورة الإله الابن وهو يلاطف فتيات بيته مداعباً ويدللهن ويغنّجهن. وصورة الروح القدس وهو يعلّم ويحسب ويرعى. وتمنى لو كان في فكرها شبيهاً بآلهة اليونان زيوس وفيبوس وهيرميس، لكنّهم لقنوا الفتاة مبادئ الميثولوجيا الأخرى. وأنّه ما يزال اليوم أيضاً، وهو جالس فوق السرير الكبير، نصف مشلول بتأثير مرض فينوس، يفرض الرهبة ويوحي بالتبجيل ويحظى بالحب. وهي الوجوه الثلاثة لشعور واحد ليس له اسم. لكنّه يشكّل رابطاً أقوى من المشاعر الأخرى كلّها وهو الأكثر قرباً من الحب المطلق الذي يطمح إليه جميع العشاق دون جدوى. إنّ الحب الذي صرّحت له مارييت به الآن، أقرب بكثير إلى الحب المطلق، البعيد المنال، الذي يطمح إليه العشاق، منه الى الحب الظرفي الطارئ الذي يربطها بصديقها الفتي، إلا أنّها ما كانت لتعرف ذلك.

على ذلك النحو كان يفكّر دون سيزار وهو ينظر إلى ماربيت باكية بصمت عند رأس سريره، وينظر أيضاً إلى ذاته من خارج ذاته بعيون الفكر مثلما اعتاد أن يفعل، فيما ذراعه اليمنى موضوعة فوق تكأة من الحرير، ويده اليسرى تمسك بيد الفتاة. ونظره يستقرّ عليها.

أمّا عن مباهج الحب، فكان سيعرّف الفتاة على عالمها، بشكل ممتع ورائع يفوق قدرات عشيقها الشاب، ذلك أنّه هو، دون سيزار، الجبّار واللطيف مثل زيوس، الذي حين يُرعِد تهتزّ الأرض لحركته. لكنّ فينوس القاسية ضربته بالشلل فيما كان يقرّر أن يستضيف العذراء في سريره.

لم تكفّ ماربيت عن البكاء.

قال:

- إنّك تخفين شيئاً عني.

فأجابت ماربيت باندفاع:

- أنا خائفة من مانيو بريغانتي.

- لكنّك لم تَعديه بنفسك؟

فقالت ماربيت:

- كلا، كلا.

أرخى دون سيزار اليد النديّة التي كان يمسك بها في يده الملتهبة ثم قال:

- امسحي دموعك، واروي لي قصتك.

جففت دموعها وبدأت بسرد ما قرّرت أن تقول، وعادت النظرة حازمة من جديد والصوت مطمئناً واثقاً.

إنّها هي التي سرقت المحفظة من السويسري بمساعدة بيبو. إذ قادته إلى زورق صغير تستخدمه عادة، من وراء سياج الخيزران حتى حافة الطريق قريباً من مكان التخييم. هناك تقدّم بيبو متنقلاً من وراء إحدى شجيرات ندى البحر إلى أخرى حتى صار بجانب الخيمتين. وببضع خطى

صار عند السيارة التي كانت تحجبه عن أعين السابحين، والخيمتان تحجبانه عن عيني المرأة. ورجع بالخفة نفسها، فنقلته مجدداً على ظهر القارب لتنزله على مقربة من برج شارل كان، ولديهما هنالك مخابئ لا تعد ولا تحصى.

وهي التي أيضاً بتجوالها قبل الواقعة بيوم واحد قريباً من المخيم، وبحديث عابر مع السويسرية، لاحظت السترة مطوية فوق المقعد الخلفي، ولمحت المحفظة من فتحة الجيب، والواقع أنّها لم تأمل أن تعثر فيها على ذلك المبلغ كلّه من المال.

خبّأت المال كلّه دون أن تسمح لنفسها أو لبيبو بسحب ورقة نقدية واحدة. ذلك أنّها لاحظت في أغلب الأحيان أنّ السارقين يعرّضون أنفسهم للاعتقال دائماً، عن طريق اجتذاب أنظار الشرطة إليهم بسبب الإنفاق الطائش والتبذير المتطرّف. وعاهدت نفسها على ألا تمدّ إليه يدها، إلا بعد مرور الوقت الكافي الذي يتيح لها وبيبو مغادرة مناكوري إلى مدينة في الشمال دون أن تثار حولهما الشبهات.

كان دون سيزار يصغي إليها وقد أفعمته النشوة. فإيطاليا هذه ما يزال فيها أولاد على هذا القدر من الجرأة، وهو الذي بات يعتقد أنّها لم تعد معمورة إلا بأجهزة التلفزيون والدراجات النارية. وأسعده أن تظهر فتاة من داره هو، لتعمل على إحياء تقاليد اللصوص. ألا يحتمل أن تكون ابنته ؟ إذ كان ما يزال يعاشر جوليا حين حملت بمارييت.

وابتسم لها.

ثم قال:

- ها أنت قد أصبحت غنية إذن.

فقالت:

- كلا، لأنّ ماتيو بريغانتي سوف يشي بي.

أنتِ لم تقصّي، حسبما أعتقد، تفاصيل العملية على بريغانتي.

- كلا، إلا أنّه...

وروت له تفاصيل المعركة في المستودع وكيف وسمت بريغانتي.

ازدادت غبطة دون سيزار بها أكثر فأكثر. وبدأ يعتقد أنّها ابنتــه حقــاً. فأخذ يفكّر في التواريخ ثم قرّر أن يسأل جوليا.

وبعدها وصلت ماربيت إلى عملية مبادلة المحفظتين.

- لكن لماذا فعلتِ ذلك؟

- لست أدري، لم يكن أمامي متسع للتفكير. كنت مغتبطة بما فعلت.

فبريغانتي شديد الحذر على الــدوام. إلا أنّــه كــان يحمــل محفظــة السويسري في جيبه، وذلك كفيل بإدخاله السجن. فكنت في داخلي أضحك.

وروت له أخيراً أنّ الشرطة اكتشفت المحفظة في بيت بريغانتي وأنّــه اعتقل. ولكن ماذا سيقول؟ وماذا قال حتى الآن؟ لاريب فــي أنّ أذاه ســيكون أكبر لا سيّما وأنّه موسوم.

لماذا وضعت محفظة السويسري في جيب بريغــانتي؟ هــذا الــسؤال طرحه دون سيزار على نفسه. ألم تشأ، دون أن تقول ذلك (حــسبما أظهــره تفسيرها المرتبك) التخلّص من اختلاس أشدّ عبئاً مما كانت تعتقــد، بوضــعه على كاهل بريغانتي ولو بشكل رمزي؟ لكنّه استبعد هذا التفسير الذي يقلل من جرأة ماربيت. فهذه اللصّة، لا يعرف قلبُها الخوفَ أبداً!

وهي لم تطلب، حتى بالتلميح، تواطؤ المبتزّ. فهي قويــة. إلا أنّــه رأى بعين خياله وجه ماتيو بريغانتي المثلث الشكل وكتفيه العريــضتين ووركيــه الضيقين وهيئته الواثقة المطمئنة، فانتابه شعور بالغيرة (وهو شعور منــسي، انتهى منذ وقت طويل). قال:

أمّا الآن فلا أرى أمامك غير حل واحد: عليك أن تردّي المال.

فقالت ماربيت:

- كلا.

- أنا لا أطلب إليك أخذ المال والذهاب به إلى عند المفوّض. فسوف نبحث عن طريقة تتيح لك عدم الظهور.

فقالت ماربيت:

- هذا الحل لا يروقني.

فتابع دون سيزار قائلاً:

- سوف أرسل في طلب القاضي. وأسلّمه رزمة الأوراق بنفسي، قائلاً له إنّ واحداً من رجالي عثر عليها في مخبأ أثناء عمله في السبخة. ولن يطلب مني تفسيراً آخر.

- لا أريد.

- فكري قليلاً. إنّ ماتيو بريغانتي قد وشى بك. وسوف يأتون لأخذك. سيقومون باستجوابك، وبإزعاجك وتضييق الخناق عليك حتى يُستردّ المال. أمّا إذا قمتُ أنا بردّه ووضعتك بصورة قطعية خارج حدود الاتهام فإنّ المشكلة ستسقط. ولا يبقى عليك إلا القول إنّ بريغانتي يكذب وإنّه يريد الانتقام بسبب الوسم.

فقالت ماربيت:

- لا أريد ردّ المال.

كان عناد ماربيت يزيد دون سيزار تهلّلاً. فهي متصلّبة عنيدة مثل أيّ لص شريف. بعيدة عن منال الخوف. وأصبح ميالاً إلى تفسير تبديل المحفظة بالعزم على وسم بريغانتي مرة ثانية: لقد حفرتُ صليباً على خدك. وها أنا أحمّلكَ فوقه جرماً لم تقترفه.

الواقع أنّه منذ عشرات السنين لم يتمكن شخص واحد بمفرده من أن يولّد في نفس دون سيزار أو أن يملأ كيانه، وفي وقت قصير على ذلك النحو، بمثل تلك الأحاسيس المتأجّجة والمشاعر المتناقضة.

قال:

- لو كان في بيتي خمس مئة ألف لير من العملة الورقية، لدفعتها بدلاً عنك بحيث تبقين مطمئنة. وبوسعي أن أرسل طونيو غداً صباحاً إلى المصرف. لكنّني أخشى أن يجدّوا في طلبك قبل صباح الغد.

- بوسعي أن أختبئ لحين ذهاب طونيو إلى المصرف.

فقال دون سيزار:

- كلا. فأنا أريد الإبقاء عليك بجانبي.

وشغفه أكثر أن تكون عنيدة بهذا الشكل غير المعقول.

قال:

- هيا أحضري قلماً وورقة.

وأملى عليها ملحقاً بوصيته. وكتبت بكل عناية، كتابة متعثرة لكنّها واضحة، بأحرف كبيرة وخط فيه تنميق. كان يهجّئ لها كل كلمة لمعرفته بضعفها في الإملاء. لقد أوصى لها بيستان زيتون كبير وبعدة بساتين برتقال وليمون.

ثم أوضح لها قائلاً:

- إنّ الأراضي التي وهبتكِ إياها، تدرّ عليّ وسطياً ما يقرب من ست مئة ألف لير. أي كأنني أعطيتك اثني عشر مليون لير.

كانت ترفع القلم ناظرة إليه ساكنة.

وبيده اليسرى دوّن التاريخ ثم وقع.

وتابع يقول:

- أمّا عليك، فسوف تدر أكثر بكثير، لأنّك ستكونين أكثر تشدّداً مني في تعاملك مع الوكلاء والمرابعين.

فقالت:

- لن أدعهم يسرقوني.

وظهرت في عينيها النظرة القاسية نفسها التي تُرى في عيني ماتيو بريغانتي. إلا أنّه كان شديد الانجذاب إليها ميالاً إلى جانبها فازداد بها إعجاباً. لقد كانت على الدوام أكثر فقراً من أن تقوى على الطيبة.

هذا هو القانون. وفكّر قائلاً في نفسه: «الواقع أنّي لم أكن طيّباً بل كنت مهملاً وغير مبالٍ».

- قولي لي الآن، أين خبّأت النصف مليون لير؟

التمع في عيني ماريبت بريق ذكاء ماكر.

نهضت فأدخلت ذراعها في قلب إناء إغريقي قائم فوق المنضدة. كان الإناءَ الوحيد من حاضرة أوريا القديمة الذي عُثِرَ عليه أثناء الحفريات سليماً لم يصب بخدش واحد. وأخرجت من داخله صحيفة قديمة لُفّتْ بها خمسون ورقة لم تنقص، من فئة العشرة آلاف لير. ووضعتها فوق السرير.

قالت:

- ما كان سيخطر في بالهم قط القدوم لتفتيش غرفة نومك.

وفكّر دون سيزار في نفسه: «ألا كم تروقينني!»

أرسلها لاستدعاء طونيو، فأمره بالذهاب إلى عند القاضي أليساندرو والعثور عليه أينما كان، حتى إيقاظه من نومه إذا لزم الأمر، ليحيطه علماً بأنّه على فراش الموت وأن يأتي به حالاً.

جلسا ينتظران قدوم القاضي. ماريبت تفكّر في الثروة التي سوف ترثها، ودون سيزار يفكر في النظرة القاسية للفتيات الفقيرات.

على إثر المعارك الطاحنة التي جرت على ضفاف نهر البيافي، انتهى من الحرب العالمية الأولى برتبة نقيب في سلاح الفرسان. وانتُدِبَ بعد الهدنة إلى باريس، ملحقاً باللجنة التي أعدت معاهدة السلام. ونَظّمت من بعد كيفيةَ وضعها موضع التطبيق.

كان الضابط الفرنسي المكلّف بالعمل معه عادة، برتبة مقدم ركن، قصير القامة لا يصل طوله إلى متر وستين، يعاني من قصر النظر فيضع

نظارتين سميكتين. ولمّا كان دون ثروة فقد تزوج من ابنة كاتب في قلم شرطة السين، بلا بائنة، لكنّها حسناء. وكلما عاد إلى بيته عن طريق الميترو وجد لوسيين منهمكة في إعادة خياطة أثواب العام الفائت لتساير الطراز الدارج.

أوصل دون سيزار زميله إلى البيت عدة مرات في سيارة الفيات الضخمة، العائدة للجنة الهدنة الايطالية. فاستبقوه مرة على العشاء. وكان أن أرسل إليهم أكثر الأزهار ندرة، ثم جعل العشاء الذي دعاهم إليه في مقهى باريس غارقاً في البهجة والشمبانيا.

ما كان ليعاني من أية هموم مالية، فلديه النفقة الشهرية من والده ومرتبه ضابطاً، بالإضافة إلى تعويضات السفر والإقامة. ولم تصمد لوسيين طويلاً أمام هجماته. ولمّا كان مأخوذاً بها فإنّه لم يشأ أن يترك للزوج شيئاً، فنقلها إلى شقة من حجرتين بشارع سبونتيني.

أمضيا الليالي يتنقّلان من منهل إلى منهل، ومن مرقص إلى مرقص، في صحبة ضباط البعثات الانكليزية والطيارين الفرنسيين، وأفراد البعثات الدبلوماسية لكلّ الأمم الظافرة. وما لبثا أن اجتذبا إليهما الأنظار كأجمل ثنائي شكلاً وظُرفاً. فهي طويلة كمثل طوله تقريباً، وشقراء بمقدار ما كان أسمر البشرة، تتفجّر بتلك الحيوية التي تتناسب وروح العصر. فهي من أوائل الفرنسيات اللواتي قصصن آنذاك شعورهن الطويلة.

لكنّ لوسيين كانت ظمأى لا ترتوي. فبدأت تختفي أياماً بحالها لتعود بعدها بقبعة جديدة أو فراء ثمين أو حلّة أو زهرة. كانت تمضي بصحبة الطيارين إلى غابة بولونيا بجانب باريس في سيارات فوازان المخصصة للرياضة. وأصبح دون سيزار غيوراً لأول مرة في حياته. فكان أمام الآخرين يحافظ على قناع من الهدوء، رابط الجأش مبتسماً، وهذا حصيلة التربية الحسنة التي نشأ عليها. لكن ما إن يصيرا وحدهما في مسكن شارع سبونتيني، عند طلوع الشمس، حتى يبدأ بلومها وتقريعها طول ساعات وساعات. ويتحوّل إلى الأثواب التي لا يستطيع تبرير شرائها، فيحيلها مزقاً

ونتفاً. فترمقه بنظرة قاسية: «بعد أن تعودَ إلى إيطاليا، لن يهمّكَ في شيء أمرُ الذي يشتري لي ملابسي – سوف أصطحبكِ – هذا مستحيل. فأنا لن أنهي أعوام شبابي في أكل المعكرونة بمقاطعة البولي». وحين ينهكه التعب من شتمها وتقريعها، كانت تستسلم له ببرود، دون أن يطرف لها جفن. ذلك البرود تحديداً هو الذي يمنعه من تركها، على قدر ما كان شرفه يدفع به نحو التخلّي عنها. فثقته برجولته تجعله على قناعة بأنّه سيتوصّل أخيراً إلى تعريفها بالمتعة التي تصرّ بعناد على التظاهر بعدم معرفتها. عندها فقط، وطبقاً لمفهومه المناكوري عن الحب سوف يمتلكها، ليأتي دورها من بعد للإحساس بالغيرة. وبات، وهو ينتظر ذلك، كمثل مقامر خاسر يُصِرّ بعناد على تضعيفٍ[1] مستحيل، ويتعرّض كل ليلة لامتهانات متعاظمة.

قال دون سيزار لمارييت:

– لقد حصل ذلك، حصل مرة أن فرضت امرأة عليّ سيطرتها.... كان ذلك من زمن طويل، لم تكن أمك قد بلغت الرابعة عشرة. وكنت أعيش آنذاك في عاصمة أجنبية، في باريس..

نظرت إليه بدهشة. فليس من عادة دون سيزار البوح بأسراره لإحدى فتيات داره. ورأت أنّه ضَعُف. وأنّ ضعفه نتيجةٌ مدمّرة سببها المرض الذي شلّ حركة أطرافه. فاغرورقت عيناها من جديد بالدموع.

حاول دون سيزار أن يقصّ على الفتاة حكاية الحب التعيس الوحيدة في حياته. لكنّ ذلك ليس بالأمر السهل. فالفتاة لم تغادر مناكوري البتة ولم تقع على من ينازع سيدها سلطته المطلقة.

لذلك ردت بعنف حين ذكر لها خيانات لوسيين، قائلة:

– كان ينبغي أن تطردها.

أخيراً قام بطرد لوسيين. لم تكن في ذلك اليوم، أقلّ إغاظة له من الأيام السابقة. فحين ردّت على هاتف من شخص لا يعرفه، أخذت على مرأى منه

---

(١) التضعيف: نظام في القمار يُضاعَف فيه مبلغُ الرهان بعد كل جولة. (م)

ومسمع تجيب بكلام هزل وعبث وإثارة، وكانت تلك من أصغر الإهانات التي ألحقتها به. أمّا هو فقد تبيّن له في اللحظة ذاتها أنّه لم يعد خاضعاً لسيطرتها. رآها فجأة ورأى نفسه إلى جانبها في شقتهما الصغيرة بشارع سبونتيني، كان جالساً فوق السرير وهي تتحدث على الهاتف، تماماً كما كانا في الواقع، لكن كأنّه ينظر إلى اثنين من العشاق لا يمتّان إليه وإليها بصلة، فوق خشبة المسرح مثلاً أو على طريقة الشيطان الأعرج الذي يرفع السقف وينظر لما يجري داخل المنزل. يوم كانت المعارك محتدمة على نهر البيافي أصيب برصاصة في فخذه من الجبهة النمساوية. انقضى يومان حتى أمكن نقله في سيارة إسعاف. وطول هذين اليومين والرصاصة، رغم كل ما سببته من ألم، تشكّل الجزء الألصق من ذاته، وفي بعض الأوقات كان يتمثّل تماماً، في وحدة متجانسة، ذلك الجسد البرونزي الحارق المتداخل مع جسده الإنساني. ثم خدّروه. وحين استيقظ وجد الرصاصة موضوعة على الطاولة بجانب سريره، جسماً غريباً مسالماً محايداً. وعلى مثل هذا النحو صارت حال عاطفته فجأة. مذ أن كفّ عن الخضوع للسيطرة. نظر بدهشة إلى لوسيين وإلى ذلك الرجل الذي أحب لوسيين حتى الهيام، ورأى أنّه وإياها قد باتا جسمين غريبين. فقام من فوره بطرد العشيقة الجاحدة.

نظر إليها وهي تنزل الدرج تجرّ حوائجها وراءها. واستدارت فإذا بوجهها غارق في الدموع، ذلك الوجه الذي كانت كل خلجاته حتى يوم أمس تغوص لتتفجر في حنايا ضلوعه، لتملأها سعادة أو غماً. كانت هي المرة الأولى التي يراها تبكي. إلا أنّه كان قد فقد الاهتمام بها.

عادت تزوره أحياناً في أحلامه، وتعاقبه غيرةً مثلما كانت تفعل أيام هيامه بها، فيراها نازلة على الدرج مثل يوم رحيلها، لكنّ الوجه الذي تديره إليه يتألق فرحاً، وهي تقول: «أنا ذاهبة للقاء عشيقي».

ثم ما لبثت أن امّحت من أحلامه أيضاً.

قالت ماريبيت:

- يعلم الله إن كانت على قيد الحياة.

فقال دون سيزار:

- لم أعد أفكر بها مطلقاً.

لكنّه فكّر بها في ساعة موته فقط لأنّ نظرة ماريبيت ذكرته بنظرة لوسيين القاسية.

لمَ دسّت ماريبيت محفظة السويسري في جيب ماتيو بريغانتي؟ إنّ نظرة بيبو كلّها لهيب وحنان. فهو زعيم اللصوص الرومانسي. قال دون سيزار في نفسه، إنّه سيأتي يوم، وهو يوم قريب دون شك، تطلب فيه ماريبيت الى ماتيو بريغانتي الدخول معها في شراكة، لكي تفرض سيطرتها أكثر فأكثر، وبلا رحمة، على عمالها في بستان الزيتون وفي البساتين الأخرى.

كانا ينتظران القاضي. ماريبيت تفكّر بكل الأموال التي أنفقها دون سيزار على لوسيين، ودون سيزار يفكّر بوقائع الرفض المتوالية التي شيّد فوقها حياته كلّها.

كان مقامراً وسكيراً مثل غالبية الضباط في فيلقه. وما الذي يحول بينه وبين أن يقامر ويسكر؟ فقانون الشرف العسكري الحازم نفسه لم يكن يحرّم لعب الورق ولا شرب العرق. إلا أنّه ذات يوم رأى نفسه في قسَمات مقامر، أي قسمات رجل سلوكه كلّه مشروط بعادة القمار، والقمار قانونه وشريعته. وما إنْ رأى نفسه على تلك النحو، حتى شعر بأنّه قد رأى رجلاً غريباً. وفي اليوم ذاته كفّ عن القمار.

إنّ القاعدة الأخلاقية الوحيدة التي تبنّاها، وكانت طول حياته مبدأً غير قابل للخرق، تمثّلت في أن يصون نفسه من أجل مهمة، لم يوكَلْ إليه أمرُ إنجازها البتةً. وكلما رأى نفسه مرة على وشك الانخراط في مسيرة يشعر بأنّها ليست هي تلك المهمة الأساسية (التي لم يوكل إليه في النهاية أمر

إنجازها البتة)، كان يحيد عنها فجأة وبكل سهولة ويسر، مثلما يحيد مبارز ماهر بالسيف تعلّم وتدرّب منذ نعومة أظفاره.

بدت مهمة تحريره من الإدمان أقل يسراً نسبياً.

فالرجال ذوو المحتد، يكون ارتماؤهم في أحضان الكحول أكثر سهولة من انصرافهم إلى علاقات غرامية مُذِلّة، أو الى آلية القمار الذي يفرض مخالطة نوعيات عديدة من رفاق السوء أو الوقوع تحت سيطرة الملل. فالكحول يلتهب (تعبير مقامر) بالمقدار نفسه، مخلّفاً الوهم بالاقتصار على إشراك الذات فقط أو الجزء الأقل من الذات. ثم أتى عليه حين من الدهر صار يحتاج فيه إلى كأس عرق من لحظة يقظته. ولم تتوفّر لديه القدرة على تحطيم هذا الواقع بنفسه. فلجأ إلى مساعدة طبيب.

حصل ذلك في مدينة فلورنسا. كانت الغرفة أشبه ما تكون بزنزانة فيها سرير وكرسي حديديان وطاولة من الخشب الأبيض. بل كانوا يحبسون فيها المجانين أحياناً. والمشفى قائم فوق تلة تشرف على الارنو وتتوالى بينهما بساتين متدرجة. إلا أنّه لم يكن يرى وهو على سريره إلا السماء. حين كانت تهدأ تشنّجات الفطام الشبيهة باختلاجات الوليد، يجد نفسه مثل ثمرةٍ نُزعت عنها القشرة لتوِّها، عارياً لأول مرة في النور والبرد والضجيج والملامسات. وفور إفراغ أخلاط النُّسول، يصير مثل الميت.

كانت أرتال صغيرة من الغيوم الركامية، وقد صبغها نور الأصيل بلون وردي، تنزلق ببطء شديد فوق سماء نافذته. كان أشبه بالميت. وأحسّ بأنّه يتفكك مثلما فعلت تلك الغمامات الهشة، حين جعلتها ريح خفيفة جداً تدخل الأفق الجنوبي لنافذته وتزيد ببطء من انحناءة القوس التي ترسمها في السماء، وتميل كلما ازدادت اقتراباً من الأفق الشمالي نحو التلاشي، لتصير ضباباً ذهبياً. فكّر في نفسه قائلاً إنّه على هذا النحو، دون غمّ ولا بهجة، وكشيء قائم في ذاته لذاته، يكون الموت، يكون موتي، لكنّكَ إن كنتَ مدركاً لموتك أيها الإنسان، فهذا يعني أنك تحيا. وشرع فجأة يتولّه حباً بسماء شهر أيار

الرؤوم تلك، وبحياتها فوق نهر الارنو الذي يتبينه نهراً هانئاً لأنّه ينعكس في نظرة السماء.

إلا أنّ الهوى، الذي واجه أقسى المصاعب في التخلّص منه، يبقى أولاً وأخيراً هوى السياسة وشغفه بها. فقد انجذب منذ طفولته إلى بيت آل سافوا وإلى فكرة المَلـَكيّة أي إلى الملوك الأبطال. أمّا وقد صار بالغاً، فقد قتل كما تعرض للقتل مئات المرات، طول الحرب العالمية الأولى، في سبيل أن يردّ إلى تاج فيكتور عمانوئيل الثالث مقاطعتي ترانتي وتريستي. حتى أنّه تأثر ببعض عادات الرجل الصغير، مليكه، وبحركاته اللاشعورية. لكنّ فيكتور عمانوئيل أفسح المجال أمام موسوليني ليستولي على واقعية السلطة. قام ذلك الطاغية، عاهلاً لاشرعياً، يملأ الدنيا بصراخه مهرِّجاً وبهلواناً مشعوذاً، نافخاً أوداجه ليحظى بأصوات الرعاع والغوغاء. وهكذا تنطّح «البوفوني»[1] للجلوس على عرش «البافوني»[2] وانقضى عهد الملوك الأبطال.

اعتكف دون سيزار في الدار ذات الأعمدة. ثم فكّر من جديد قائلاً:

«إن كنت مدركاً لموتك، فمعناه أنك تحيا، أيها الإنسان».

لكن لزمه عامٌ كاملٌ، في هذه المرة، ليعود حياً بين الأحياء.

باشر عمليات الحفر والتنقيب ليعيد بناء تاريخ مدينة أوريا النبيلة. لكنّه لم يرَ البتة في تلك المهمة التي تصدى لإنجازها تحقيقاً لذاته أو مبرراً لوجوده.

يجلس دون سيزار الآن فوق السرير مستنداً إلى عدة مخدات وذراعه المعقودة فوق تكأة من الحرير. ومارييت الجالسة بجواره تسهر عليه، ترتدي قميصها الرقيق المشدود على نهديها، وأنها تترقّب صوت هدير

(١-٢) جناس خاص بالإيطالية. فالأمراء من سلالة آل سافوا كانت لهم جميعاً شوارب. فأصبح لقب «بافوني» (ذو الشاربين) يُطلق عليهم تحبباً. و«البوفون» هو المهرّج. فيغدو المعنى:

إنّ المهرّج (موسوليني) احتل عرش (ذي الشاربين)، الملك فيكتور عمانوئيل.(م)

محرّك لا يأتي. أظهرت مارييت قلقها من تأخّر القاضي لهذا الحد، وخشيتها من استباق الشرطة قدومه واعتقالها. وأخذ دون سيزار يفكّر في موته.

لم يكن ليتساءل إن كان هنالك عالم آخر، وإن كان سيجد الله فيه، وإن كان الله سيدينه، وإن كان سيبعث في جسده يوم الدينونة من أجل ثواب دائم أو عقوبة أبدية. فهو يعرف أن لا.

ولا يتساءل إن كان الموت عذاباً أو هو العذاب بعينه من بين كافة أشكال العذاب. فهو يعرف أنّ العذاب مظهر من المظاهر المتعددة للحياة وأنّ الموت تعريفاً ليس شيئاً أبداً.

أخذ يفكر في أن يعيش وفقاً للنوعيّة التي يمكن أن تتجلّى لدى رجل من منزلته وثقافته وتربيته في ذلك المكان وضمن تلك الظروف. فتلفظ بصوت عال:

- كوزي سيّا، «آمين».

لم يقصد بتلك الكلمة الإعلان عن خضوعه للشريعة الإلهية، مثلما يفعل المسيحيون، ولا لشريعة حياتية أو اجتماعية أو شخصية، مثلما يفعل المؤمنون بكافة أشكال العقائد والمذاهب. إنّما هو يؤمّن على ذاته لذاته، ويشهد على نفسه لنفسه.

لقد كان على ذلك النحو. فلا هو نادم على شيء، ولا هو خجل من شيء، ولم يعد راغباً في شيء. إنّه يتعرّف على نفسه ويعترف بها لنفسه، إنّه يتجلّى بذاته (لذاته) على نحو ما كان وعلى نحو ما هو عليه الآن وفي ساعة موته. فهذا هو الذي يقصد بقوله «آمين».

وتجيب مارييت:

- كوزي سيّا.

تجيب وهي تعتقد أنّها تردّ مسيحية ً، على صلاة مسيحي في ساعة موته.

لكنّ مارييت وثنية بشكل أساسي وعميق، حتى إنّ المعنى الذي تسبغه على قولها «آمين» لا يختلف جوهرياً (دون أن توضح ذلك لنفسها) عن المعنى الذي أسبغه عليه دون سيزار.

يمكن لرجل رفيع الشأن أن ينساق لخوض الحرب عدة مرات في حياته. وهذا المبدأ ينطبق على كل حقب التاريخ. أمّا فيما يتبقى من الوقت فيظلّ محافظاً على ترفّعه ونأيه.

لقد أجاد دون سيزار خوض الحرب وأجاد المحافظة على ترفّعه ونأيه.

فكّر في أنّه لو كان أثينيا قبل عهد بيريكليس، أو مواطناً رومانياً أيام الحروب القرطاجية، أو برلمانياً فرنسياً عام ١٧٩٣ بعيد الثورة، فإنّ رفضه الخضوع للسيطرة كان سيؤدي به إلى الاندماج بتلك الأقليّة الصغيرة من الذين سيتولون تحطيم النظم البالية وفتح طرق جديدة أمام حياة المجتمعات الإنسانية. ففي بعض البلدان وفي بعض العهود، يلقى الرجل الرفيع المتميز الدعم في حركة التاريخ نفسها ويزداد رسوخاً في رفعته وتميزه بقيامه بتطوير العالم.

إنّه لو ولد في ظل حكم أغسطس قيصر أو تيبيريوس، أو لوران آل مديتشي أو إيفان الرهيب، فإن رفضه الخضوع للسيطرة كان سيرغمه على الانتحار، مثلما يفعل الرجال ذوو الرفعة حين يستحيل عليهم التخلص شخصياً من نير الاستبداد. فالحق في الانتحار، الذي لا يتوصّل أكثر السجانين يقظة وأكثر الجلادين مهارة إلى تعليقه إلا بشكل مؤقت، بدا له على الدوام البرهان الوحيد الذي لا يُدحض على حرية الإنسان.

وهكذا رأى أن الرجل ذا الشأن والرفعة ينساق، تبعاً للظروف، إلى العمل تارة وإلى الانتحار تارة أخرى، لكن في أغلب الأحيان فقط إلى سلسلة من حالات الالتزام وعدم الالتزام، تتولّد الواحدة منها من الأخرى. فتكمن رفعته كلّها، في تلك الحركة نفسها، التي ترغمه على الالتزام تارة وعلى عدمه تارة أخرى.

لقد ولد عام ١٨٨٤ في أوروبا الغربية، في إيطاليا الجنوبية على وجه التحديد، وأخذ ينتحر ببطء وعلى مراحل متتالية، تتناسب وقياس عصره. فدام ذلك اثنتين وسبعين سنة، ولم يكن الحال باعثاً على الضيق دوماً. آمين.

إنّ مباهج الدراسة والحب والصيد، ملأت بشكل ممتع، أوقات الفراغ التي أوجدتها الظروف لديه. فقد ولد غنياً مفعماً بالهبات التي أتاحت له أن يصبح رجل ثقافة عالية (كما يقول إيطاليو الجنوب) ورجل مباهج وملذات (كما يقول الفرنسيون في عهود الازدهار)، وذلك في بلد وفي عصر أرغماه على الانتحار البطيء (لكن ليس دون مباهج) كي لا يحطم رفعته مرة واحدة. آمين.

أمّن على نفسه وصدّق على ذاته مثلما كان وعلى نحو ما هو عليه، الآن وفي ساعة موته. وليس لهذا التصديق من قيمة إلا لذاته ونحو ذاته، لكن في ساعة موته، في ساعة موته ملحداً، يتقبّل الموت بفكرٍ مُشرقٍ صافٍ، يتّخذ تصديقه هذا صفة مطلقة. آمين.

فيتلفّظ بصوت عالٍ:

- كوزي سيّا.

فترد مارييت:

- كوزي سيّا.

طرق مسمعها صوت سيارة القاضي التوبولينو تعبر الجسر فوق مصرف البحيرة. فنزلت مارييت إلى القاعة الكبرى واختلطت بالنساء اللواتي تجمّعن يصلين حول الطاولة الكبرى من خشب الزيتون. وقاد طونيو القاضي إلى غرفة دون سيزار.

قال دون سيزار:

- يا عزيزي أليساندرو، لي عندك التماس...

وتوجّه مؤرّخ مدينة أوريا بالحديث إلى مؤرخ فريدريك الثاني دو سواب. فهو الآن مشرف على الموت وباندفاع أسرع مما تخيّل. لذا فهو يطلب إليه أن يشرف على العاديات التي جمعها كي لا تتبعثر. وعلى مخطوطه الكبير عن المستعمرات الإغريقية في مناكوري إبّان العهد الهيلينستي، ليوضع تحت تصرّف العلماء. وهو يود أن يتمّ تحويل الدار ذات

الأعمدة إلى متحف، وقد خصّص في وصيته مبلغاً من المال لهـذا الغـرض. ولئنْ لم يكن ذلك ممكناً، فلتحوّل إلى متحف فوجيـا، كـلٌّ مـن المجموعـة والمخطوطات والإشارات والملخّصات والمبلغ المخصص. وإنّ هذا الاحتمال مدونٌ في الوصية. وإنّه شديد الامتنان للقاضي، ويرجوه الحـرص بوصـفه رجل ثقافة ورجل علم، على تنفيذ هذه البنود بكل حذافيرها.

كان في الواقع يتساءل لِمَ يعلّق تلك الأهمية كلّها على هـذه الترّهـات. فهو حين يموت سيكون العالم بالنسبة له لاغياً. وهو علـى أي حـال يعتبـر نفسه ميتاً منذ سنين عديدة. لكن في ساعة موته المطلق، لم يُضِرْه في شـيء تأمينُ شكل من أشكال الخلود لآثار حاضرة أوريا القديمة، التي انتزعها مـن بين الرمال ومن السبخة ومن النسيان. وليسامحْه صديقه أليساندرو على هـذا الدلل الأخير.

شكره القاضي بتأثر بالغ وهو مفعم بالثقة التي أولاه إياها دون سيزار.

كذلك فقد استودع دون سيزار صديقه القاضي، خوفاً، كما قال، من أهل بيته ومن أقربائه الذين سيأتون مسرعين من كالالونغا بشكل خاص، وصـيته والملحقات التي كُتِبت لتوّها، كي يقوم بتسليمها إلى موثق العقود. وبعد ذلـك أعطاه الخمسين ورقة من فئة العشرة آلاف لير، المغلفة بصحيفة قديمة.

– عثر واحد من رجالي الصيادين على هذا المال داخل مخبأ في السبخة.

وهذا دون شك هو المبلغ المسروق من السويسري...

فقال القاضي:

– ينبغي لي أن أرى صيادك هذا.

فأجاب دون سيزار:

– أنت تعرف دون شك نوعيتهم. إنّهم يفضّلون البقاء بعيداً عن رجـال القانون، وقد طلب مني عدم الكشف عن هويته، فهنأته على أمانته وقطعت له عهداً بذلك، فهتف القاضي قائلاً:

- ولكن هنالك رجل جرى توقيفه. ولديَّ ضده أدلّة دامغة...

- وهذا سبب إضافي لعدم إزعاج الصياد.

- لابدّ من إجراء لقاء بينهما.

فصاح دون سيزار باحتجاج قائلاً:

- أليساندرو، هنالك هموم أخرى..

فقال القاضي باندفاع:

- أرجوك المعذرة.

ومضى حاملاً الوصية والخمس مئة ألف لير. أمّا دونا لوكرزيا، فقد حمل لها، هديةً أخيرة من رجل يودّع الحياة، إلى امرأة حسناء، فانوس زيت من الفخار يعود للقرن الثالث قبل الميلاد، تزيّنه رسوماتٌ عارية.

وعادت مارييت لتحتلّ مكانها قرب سرير المريض.

أقبل الصيادون للانضمام إلى النساء حول طاولة خشب الزيتون، تحت غرفة المريض. وشيئاً فشيئاً غصّت القاعة كلّها بحشد من المصلّين يرددون التسابيح للشفاء من الأمراض.

أغفت مارييت بسرعة. كانت تبدر عنها بين وقت وآخر تنهيدة عميقة مصحوبة بحركة من شفتيها، كأنّها تتذكر تلك الحركات الملأى بالعذوبة التي تعلمتها من بيبو ليلة الأمس، وبعد ظهر اليوم، فوق الأكياس في مستودع البستان ذي الينابيع الثلاثة.

أمضى دون سيزار تلك الليلة، كعادته في الليالي التي سبقتها، متنقّلاً بين الإغفاء واليقظة. وحين يفتح عينيه يقع نظره على مارييت، تحت ضوء السراج، ورأسها مرتد فوق مسند الكنبة التي قرّبتها من السرير والشفتان والعينان مرهقتان حباً.

حين طلع النهار أيقظها لكي تفتح النوافذ.

بدا المنظر مألوفاً أمام ناظريه، فمصرف البحيرة يشقّ لنفسه طريقاً بين عيدان القصب والخيزران حتى مصبه القريب، وعلى يساره كثبان البرزخ. أمّا على يمينه فيرتفع التل الصخري، كأنّه مغروس في البحر. كان قد نهض فوقه معبد فينوس أوريا، حيث لا تنبت الآن إلا شجيرات ندى البحر. وفي البعيد خليج مناكوري بأكمله ولسان الجبل الذي يغلقه والمستطيل بصواري الترابوكو، وهي إنشاءات عملاقة، إلا أن الترابوكو لا يبدو من فوق سرير دون سيزار أكبر من مركب صيد، يتجاوز رأس اللسان. وبدأت الشمس ترتفع فوق غابة الصنوبر وتلوّن رمال المضيق بلون ذهبي. وبقيت الغلبة طول الليل للسيروكو على الليبيشيو فولّى رتل الغيوم بعيداً فوق البحر.

رجا دون سيزار ماريبت أن تبدّل وجوه المخدات والشراشف. لأنّه يرتاح لملمس القماش النظيف الندي، ذي الطيات الظاهرة. ثم قال:

- سنطلب بعد قليل إلى طونيو أن يحلق لي ذقني.

شاهد أحدَ صياديه صاعداً مصرف البحيرة محرّكاً المجانيف القصيرة بصمت، وهو جالس عند مؤخرة الزورق الضيق. حلّق رفٌ من طيور الحديد من ورائه وتوجّه صوب البحيرة.

أخذ دون سيزار يفكر في أنّه لن يذهب إلى الصيد من بعد أبداً في برودة الفجر المنعشة. فانتابه إحساس بأنّهم يحرمونه من شيء، فشعر بالحزن. لكنّه ما لبث أن سخر من إحساسه. فلم يعد «لهم» من وجود، أولئك الذين حرموه من الصيد، ذلك أنّه ظلّ يذهب إلى الصيد حتى أسكره الملل.

لكنّ الشيء الذي استهواه حقاً، كان السير فوق دروب الأرض المرصوصة في السبخة وفوق شاطئ المضيق، في نداوة الفجر. وهو لن يُحسّ أبداً من بعد بلدانة الأرض المرصوصة، الصلبة وغير الصلبة في آن معاً، بسبب رطوبة السبخة. هذه حال الدنيا. كوزي سيّا. إنّ الاشجار في النهاية تموت بعد أن تكون قد أنبتت كل أغصانها، وحتى أشجار الزيتون التي تعمّر أطول بكثير من كل الأشجار الأخرى. إنّ أربعة رجال مجتمعين،

باسطي الأذرع، لا يستطيعون الإحاطة بجذوع بعض أشجاره في بساتين الزيتون. أمّا العقد التي فيها، فشاهدٌ دائمٌ يحمل ذكرى العواصف التي لوتها في القرون المتأخرة من الإمبراطورية الرومانية. وأحياناً، كانت إحداها تموت. فتذبل أوراقها بسرعة مفاجئة دون أي سبب ظاهري. وحين يُنشّر الجذع لم يكن يُعثَر في اللّب إلا على خشب يابس ميت.

فكّر دون سيزار أيضاً في أنّ ما من أحد غيره مطلقاً سيكون قادراً على أن يرى، وبالنظرة نفسها، ما يرى في هذه اللحظة: السبخة والمضيق وتل معبد فينوس والخليج ولسان الجبل. ولا أن يشمل مثله بنظرة واحدة الماضي والحاضر، فهنا مدينة أوريا النبيلة التي أعاد بناء مخططها وأحيا بقاياها، ثم المدينة الرومانية الكئيبة في القرن الثاني وحاميتها الجرمانية، ثم الرمال والوحول التي غمرت كل شيء، ثم التهاون المسيحي، حين جاء كهنة الإله الأجنبي فانتزعوا فينوس أوريا، وجرّوها جراً حتى قمة مناكوري، وسرقوا منها حتى اسمها، وسجنوها في دير قنّيستهم أورسولا، تلك العذراء الحمقاء الغبية والشهيدة، قديسة الظلمات. ثم الموانئ والملاجئ الهشّة المرتجلة التي بناها المغاربة في السبخة، والأرصفة الحجرية التي شيّدت لتعمّر بضع عشرات من السنين فقط على يد فريدريك الثاني دو سواب، ولتأتي الرمال والوحول من جديد في ظل حكم ملوك نابولي، آل بوربون الأغبياء، وأخيراً أراضي الصيد ومباهج دون سيزار وأكواخ القش لصياديه الذين عرف كافة نسائهم. كلا، ما من أحد سيكون قادراً من بعد على أن يشمل بنظرة واحدة ذلك الماضي كلّه وهذا الحاضر. ذلك الماضي من تاريخ الرجال، وهذا الحاضر من تاريخ رجل واحد، مترابطان ترابطاً موحّداً في الحاضر الراهن، وبكل أبّهة، لرجل يموت الآن بكل صفاء وإشراق فكر. وما كان لهذا كلّه أن يكون على نحو ما هو عليه إلا بالنسبة له، مختصراً أخيراً في هذه اللحظة.

كوزي سيّا، «آمين».

دخل في تلك اللحظة ضمن حقل نظره، مركب للصيد قادم من عرض البحر، متوجّهاً نحو بورتو مناكوري. ووصل صدى دويّ محرّكه إلى الغرفة عبر النافذة المفتوحة. المحرّك من النوع الذي يعمل على الزيوت الثقيلة، فإيقاعه بطيء ودويّه الخافت يتجاوب حتى أعماق البحر وينفذ إلى صدور الذين يصغون إليه.

تابعت مارييت ودون سيزار بأنظارهما، عبر النافذة المفتوحة، حركة مركب الصيد المتوجّه من الغرب إلى الشرق.

وطرأ خلل على المحرّك، فصدرت عنه عدة شهقات ثم سكت.

واصل طريقه متثاقلاً ببطء أكثر فأكثر. فاصطنعت مارييت بسرعة قرنين فوق رأسها بالخنصر والسبابة. وفهم دون سيزار على الفور، أنّها تصطنع رُقْيَة لإبعاد الشرّ عنه. فمحرّكٌ يتوقف عن الدوران، وقلبٌ يكفّ عن الخفقان. إنّها إذن تحميه.

بدأ قوله:

- مارييت

فالتفتت مارييت إليه.

فتابع يقول:

- مارييت، أريد لك الخير، كلّ الخير..

وأراد أن يتلفّظ مجدداً باسم الفتاة، لكنّه أحسّ في اللحظة نفسها بانعقاد حنجرته وفمه معاً. حاول جاهداً أن يحطّم تلك العقدة التي قيّدت حنجرته وفمه، لكنّ عضلات الفك لم تعد تستجيب له. واعتقد أنّ الجهد قد غضّن تقاطيعه. لأنّ مارييت أخذت تنظر إليه بهلع. ثم نهضت وارتمت فوقه صارخة:

- دون سيزار! دون سيزار!

فكفّ عن بذل كل مجهود واضطرّ لأن يبتسم لها بعينيه. وتولّد لديه إحساس بالنجاح، لأنّ عضلات الأجفان العلوية والسفلية ظلّت تستجيب له. فهدأت نظرة مارييت، لكنّها ظلّت تصيح:

- دون سيزار! دون سيزار!

واصلت الذراع اليسرى واليد اليسرى استجابتهما. فرفع إصبعه إلى شفتيه مشيراً للفتاة بالسكوت. فسكتت.

أومأ إليها بأن تتمدّد فوق السرير الى جانبه. فتمددت بجواره فوق الشراشف البيضاء الندية.

نظرت إليه نظرة متوهّجة. وفكر في أنّها تحبّه في هذه اللحظة حباً يفوق أشكال الحب الأخرى كلّها.

وضع يده على نهد الفتاة من فوق القميص الرقيق. فرفعت ماريبيت يد دون سيزار، وفكّت أزرارالقميص بسرعة (فهو يزرّر من أمام)، ثم وضعت اليد فوق نهدها العاري.

كان النهد صغيراً متكوّراً صلباً، وكفّ السيد عريضة تحيط به إحاطة تامة وتحتويه.

كانت نساء الدار في الممر. لكنْ لم يجرؤْن على الدخول، لأنّ دون سيزار أمرهنّ مساء أمس بعدم الحضور إلا بإيعاز من ماريبيت. ولقد سمعنَ نداء الفتاة:

«دون سيزار! دون سيزار!»

ثم دُهِشنَ لعدم سماع شيء من بعد. وانقضى وقت طويل على هذا النحو. كانت ماريبيت تنظر إلى دون سيزار نظرة متوهّجة وهو يبادلها النظر مبتسماً بمقلتيه. ثم لاحظت أنّ النظرة فقدت كل تعبير وأحسّت معها بالكفّ المطبقة على النهد تتراخى، وبالراحة الدافئة تتبرّد.

مدّت ماريبيت الذراع على طول الجسم.

وأطبقت الأجفان. وطبعت قبلة خفيفة على الشفتين الباردتين.

وقالت:

- كوزي سيّا.

ثمّ زررت قميصها وتوجّهت إلى الباب ففتحته. قالت:

- إنّ دون سيزار قد مات.

شرعت النساء بالصراخ والعويل. وملأ النُّواح كافة أرجاء الدار ثم انتشر إلى السبخة، وامتدّ إلى عرض البحر ليطرق مسامع الصيادين الذين تعطّل مركبهم عند مصب مصرف البحيرة، أي عند مدخل ما كان في الزمن الغابر ميناءً لحاضرة أوريا الذكية النبيلة.

* * *

جرى استرداد مبلغ النصف مليون لير المسروقة من السائح السويسري دون أن ينقص منها قرش واحد. والمحفظة عُثِر عليها دون أن تضيع منها ورقة واحدة. لكنّ القاضي أليساندرو ظلّ يعاند طول فترة الضحى رافضاً إطلاق سراح ماتيو بريغانتي.

فالعثورعلى المبلغ لا ينفي وقوع السرقة، والجرم لا يزال قائماً، والتحقيق مستمر، والقانون لابد من احترامه.

عند الظهر، حضر اثنان من عناصر شرطة البلدية حاملَيْن للقاضي مفتاح شقة بريغانتي الصغيرة، وقد التقطاه، فور سقوطه أمام أعينهما من جيب مريلة جوستو، خادم منهل الرياضة. كان جوستو الشاهد الوحيد الذي أكّد أنّه رأى بأمّ عينه محفظة السويسري في يد بريغانتي. أمّا وقد وجدوا بحوزته مفتاح المكان الذي عُثِر فيه على المحفظة، فإنّ التهمة سوف تلصق به.

لم يكن القاضي مغفّلاً، فهو رجل من الجنوب قلباً وقالباً، حتى ليعرف حقّ المعرفة أنّ رجال شرطة البلدية يرون مصلحتهم في خدمة مصالح المبتزّ، أكثر منها في خدمة العدالة. لكنّ رجال الشرطة أقسموا اليمين وجاؤوا بشاهد، هو الاسترلي، ليؤكّد أنّ المفتاح سقط من جيب الخادم. فكان لابدّ من إطلاق سراح بريغانتي وتوقيف جوستو.

لم يبدِ هذا الأخير أيّ احتجاج لبراءته، مقتنعاً، بأنّ السجن الآن هو المكان الوحيد الآمن بالنسبة له. ودام الاستجواب عدة أسابيع ثم أغلِق التحقيق لعدم وجود وجه لإقامة الدعوى.

أمضت دونا لوكريزيا القسم الأكبر من النهار في مكتب المفوّض أتيليو. إذ لم يتم العثور بعد على فرانشيسكو. ولم تكفّ عن الإلحاح على المفوّض ليهتف فيكرّر النداء بالهاتف إلى جميع زملائه في المقاطعة. ولم تكلّف نفسها عناء تمويه أسباب قلقها، حتى بات المفوّض المساعد وعناصر شرطة البلدية، ورجال الدرك وبعدهم المدينة كلّها، يعرفون أسباب هلعها.

لقد أمضى فرانشيسكو الليل في إحدى حانات فوجيا، يشرب ويدعو الآخرين إلى الشراب، حتى أنفق الخمسة آلاف لير المتبقية لديه كلّها. وعند الفجر، بلغ درجة من السكر دفعت بصاحب الحانة إلى إعداد سرير كيفما اتفق، في حجرة خلفية تابعة للحانة. وبعد العصر، بعد أن أُتخِم نوماً، دفعوا له ثمن مقعد في الباص المتوجّه إلى بورتو مناكوري.

ولمحته دونا لوكريزيا نازلاً من الباص فاندفعت مسرعة إلى الشارع.

كانت عينا لوكريزيا تلتهبان حباً فظنّ أنّه ازدراء. فاستدار على عقبيه وولى هارباً. وقام بدورة طويلة في الأزقة الضيّقة ورجع إلى البيت عن طريق باحة القصر الداخلية. كان ماتيو بريغانتي جالساً إلى المائدة في غرفة الطعام يكتب إلى رجال أعماله. فأخذ فرانشيسكو عدة توليفات من فوق أحد رفوف البهو، وجلس إلى جانب والده وشرع يقرأ بصمت، موسيقى إحدى الأغنيات. ولم يستأنف الأب والابن تبادل الكلام إلا في اليوم التالي، بخصوص مسائل لا تمت إلى أحداث الأمس بأية صلة.

ما إن رأت دونا لوكريزيا فرانشيسكو يولي هارباً، حتى قفلت راجعة إلى مكتب المفوّض وجلست على الكنبة في مواجهته.

وسألته قائلة:

- كيف أمكن لي الوقوع في حب واحد جبان؟

كان المفوّض قد بدأ بكتابة تقرير، فتابع عمله دون أن يجيب.

بعدئذ رفع رأسه، كأنّه لم يسمع شيئاً، وكأن أيّ حديث لم يدر بشأن فرانشيسكو، فتحدّث عن وفاة دون سيزار، فهو في ذلك اليوم الحدث الأهم.

كان السؤال الدائر هو أنّ العجوز رفض استدعاء كاهن، فهل يقيمون له جنازاً دينياً؟ ولقد وصل أقاربه من كالالونغا وسوف يتمّ فتح وصيته. وشاع خبرٌ يقول إنّ ملحقاً بالوصية كُتب في ساعاته الأخيرة، وكان لصالح إحدى فتيات الدار ذات الأعمدة، ويُحتمَل أن تكون ابنة غير شرعية لـه... واعتبر المفوّض نفسه من أكثر الرجال رقّة ومهارة. فبات مقتنعاً بأنّه سينال لوكريزيا بأسرع مما كان يأمل، وبسهولة أكبر.

والواقع أنّها قبلت، بعد ذلك بأسبوعين، بخلوة معه في شقة البرج. فالانفعال الذي أثاره فرانشيسكو في نفسها يوم شدّ طويلاً على يدها، دون أن يجرؤ على التوجّه إليها بقوله «أحبك»، لمّا يهدأ أو تخفّ حدته. وظلا يتقابلان بابتهاج مرتين أسبوعياً ولأشهر عدة ومن بعده صار لها عشاق آخرون لرغبتها الدائمة في التغيير. وبقيت على حالها مترفّعة متعالية، تزدري الحيطة والحذر. لكن لم يعد أحد يقول عنها دونا لوكريزيا، بل لوكريزيا فقط.

أُحيط القاضي أليساندرو علماً بانحراف زوجته. فسألها فلم تُنكِر. وناقش المشكلة طول شهور على هذا النحو: لا يحقّ لرجل أن يفرض الأمانة على امرأة لم تعد تحبّه، لكن ينبغي على الزوجة أن تحترم شرف زوجها بموجب أخلاق البلد الذي يعيشان فيه حتى وإنّ كانت بالية. فكيف السبيل الى التوفيق بين هذين الإلزامين؟ وبقيت المسائل التي يدعوها اجتماعية تقضّ مضجعه أيضاً . فوقع في هفوات عديدة وهو يفصل في الدعاوى السياسية الصغيرة الواقعة ضمن صلاحياته. حاكماً بأسباب مخففة، بحيث صار يقف

في وجهه ممثلو الحكومة والمعارضة معاً. وانتهى الأمر بنقله. فانتقل وزوجته إلى مدينة كالابري الصغيرة في الجبل.

وقد استطاع القاضي لشدّة الإصرار والعناد، تسهيل الأمر على البنّاء ماريو للحصول على جواز سفر. لكنّ ماريو لم يجد في فرنسا عملاً إلا في أحد المناجم. وقضى نحبه بعد عام من ذلك في حادث انفجار وقع داخل المنجم.

كفّ المهندس الزراعي عن محاولاته الحصول على ماربيت بعد أن أضحت غنيّة، وطلب إلى جوزبينا أن تتولى تصريف أمور منزله. فقبلت بعد أن يئست من انتزاع المفوّض من أيدي زوجته العطوف آنا، ومن المهووسة لوكريزيا ومن أخريات كثيرات. صحيح أنّ مهندساً زراعياً موظفاً لدى الدولة، ليست له الهيبة نفسها التي يتمتع بها المفوّض في الشرطة، لكنّ دخل الاثنين متماثل تقريباً. وهكذا سلّمته عذريّتها التي دافعت عنها طويلاً، فصارت من بعد عاشقة ماهرة. وانتهى اللومباردي بعد عيشه في الجنوب إلى اعتناق أفكار الجنوب والتخلق بأخلاقه، فرفض أن يتزوج من فتاة واسعة الخبرة. فتخلت عنه بعد بضع سنين لتعيش مع أحد أصحاب الأملاك الذي اشترى لها منزلاً صغيراً في كالالونغا ودوّن اسمها في وصيته. وتوفي المهندس الزراعي فتياً بعد أن أصيب بالملاريا، وبعد اليأس الذي استولى عليه لأنّ كافة جهوده المبذولة في سبيل تحسين الماعز على الساحل المناكوري قد فشلت وذهبت أدراج الرياح.

بعد وفاة دون سيزار بأسابيع معدودة عقد ورثته اجتماعاً عاماً. فالمجلس البلدي رفض مشروع إقامة متحف فوق موقع مدينة قديمة، لم يبقَ منها عمود واحد قائماً، لكنّه أخذ على عاتقه مهمة المجموعات الأثرية.

وجرت عمليات تبادل بين الورثة. فتخلّت ماربيت عن بستان كبير من بساتين البرتقال والليمون مقابل بضعة هكتارات من السبخة والدار ذات

الأعمدة. وذهش كثيرون لموافقتها على مثل هذه الصفقة الخاسرة. ونسبوا للأمر تفسيرات عاطفية من جانب الفتاة، فازداد الاعتقاد رسوخاً بأنّها ابنة دون سيزار(وهذا ما يفسّر ضخامة تركاته لها.) وقابلت جوليا تلك الأقاويل باحتجاج عنيف، لكن ما من أحد ألقى لدفاعها من بال، لمعرفة الجميع بأنّها على علاقة سيئة بابنتها. وبدأت تترسخ القناعة بأنّ مارييت، وإن تكن ابنة غير شرعية، فهي متمسّكة بدار جدودها. وازداد الإعجاب بها لحرصها على تكريم اسمٍ لا تحمله. حتى أنّها ضحّت ببستان كبير للحمضيات، يُدِرّ دخلاً كبيراً، مقابل دار قديمة ضائعة وسط منطقة مستنقعية تعجّ بالملاريا. ونــدّد بعضهم بتصرّفها الأحمق. ولم تُعِر مارييت تلك الأقوال كلّها أي اهتمام. فقد أصغت قبل أشهر فقط لأحاديث جرت بين دون سيزار وبين مهندسين مسّاحين قاموا بسبر أغوار المضيق كلّه.

وقد قالت لبيبو:

- في رأسي خطة.

تلقت كل من جوليا وماريا وإلفيرا مجموعة من السندات تعود عليهن بدخل مقبول. فأوكلن معاً أمر إدارة هذه التركة إلى رجال أعمال من فوجيا، قدموا لهنّ وعوداً بتأمين فوائد أكبر بكثير.

هكذا بقين مقيمات في الدار ذات الأعمدة، لكن في خدمة مارييت. وعلى أثر رفع الأثريات والعاديات كلّها طلبت إليهن تنظيف البناء تنظيفاً تاماً، بدءاً من السقيفة حتى الاصطبلات، ومن ثم طلاءها بالكلس، من الداخل والخارج. وأرسلت في طلب أحد تجّار العاديات من نابولي لتبيعه، وبسعر مغر بالنسبة لها، الكنبة النابوليتانية من القرن الثامن عشر، والإناء اليوناني، الذي لم يلقِ إليه محافظ المتحف بالاً، لأنّه كان في غرفة دون سيزار، ومعظم

قطع الأثاث القديمة. قامت فاستبدلت بها مفروشات عصرية حديثة لمّاعة ومبرنقة، واشترت بفارق السعر سيارة فيات طراز أربع مئة (تعلّمت قيادتها حالاً) وجهاز تلفزيون أيضاً. ولم تحتفظ من الأثاث القديم إلا بالسرير ذي القبة الذي صارت تنام فيه، وتستقبل بيبو كل ليلة دونما تخفٍّ، ودون أن يتبادر الاحتجاج إلى ذهن أحد. والواقع أنّ أهميّة الممتلكات التي ورثتها، وما قيل بشأن بذوتها، بالإضافة إلى ثقتها الطبيعية بنفسها، قد منحتها على الفور، الامتيازات نفسها التي يتمتع بها ملاك الأراضي الكبار. فصاروا ينادونها من بعد بلقب دونا ماريت.

قام ماتيو بريغانتي من جانبه بالمبادرة الأولى لإحلال السلام بينه وبين بيبو. فالغلام بات أكبر سناً من أن يتابع الطريق مع الواليوني ولو بصفته زعيماً للعصابة. كما بدأ يحظى، بسبب حماية ماريت له، باحترام التجار والطبقة الدنيا من الأعيان. فصاروا ينادونه «سينيور» بيبو. ويشيرون إليه بقولهم حضرة السيد بيبو. وتبدّت لديه مواهب السباحة والغطس، وحبْسِ النفس طويلاً، وحاسة خاصة بالماء. فأصبح ماتيو بريغانتي صديقاً له، وبدأ يدرّبه بانتظام، ويطلعه على آخر المستجدات في فن السباحة تحت الماء بواسطة قوارير الأكسجين أو بدونها. وكان أن اكتشف أثناء أحد دروس التدريب عند مصب البحيرة، قرب سفح التل الصخري تمثالاً من الرخام لفينوس مدينة أوريا. ونسبَهُ الخبير المرسل من قبل متحف فوجيا إلى نحاتٍ في القرن الثالث قبل الميلاد. أي أنّه يحطم بمدى مئة عام قِدَماً، التمثال الحجري لدير القديسة أورسولا بنت أوريا. وهو تمثال لفينوس أيضاً، عثر عليه بعض الرهبان في السبخة فأطلقوا عليه اسم أورسولا، فألبسوه ملابس أسبانية الطراز وأخذوا يحملونه فوق محفة، يدور بها الرجال في شوارع

المدينة في يوم عيد القديسة. وتروي الأسطورة المنمّقة أن فتاة واحدة فقط وُجِدت محتفظةً بعذريتها في مدينة أوريا الوثنية، يوم قرر الله إبادة المدينة كلّها بسبب الفساد الذي سادها. فأبقى على أورسولا فقط، وحملها إلى أعلى الأكمة التي تشرف على ميناء مناكوري.

كان دون سيزار يستمتع أيام كان ديدنه التهكّم على الدين، (من قبل أن يفقد الاهتمام)، ببث الفزع في قلوب أبناء قرابته عن طريق التلاعب بالكلمات حول فينوس – أورسولا الدير، التي يصفها بأنّها شفيعة العجائز اللواتي يقمن باصطناع بكارة جديدة للفتيات بعد أن تكون قد فُضّت. ففضلت ماربيت، على الرغم من السعر المرتفع الذي عرضته الدولة، الاحتفاظ بالتمثال الرخامي الذي وضعته في الدار ذات الأعمدة إلى جانب جهاز التلفزيون. فقد كانت مقتنعة بأنّ الآلهة التي سمعت سيدها يتحدّث كثيراً عنها، لابدّ أن تكون مصدر سعد بالنسبة لها. وقامت، تثبيتاً لها في هذا الدور، بتعليق قرن من المرجان تدلّى على صدر التمثال بين النهدين. وهي مقتنعة بأنّها لم تخسر شيئاً، لأنّ ماتيو بريغانتي أوضح لها أنّ العاديات (والأشياء الفريدة حقاً بشكل خاص) لم يتوقف سعرها عن الارتفاع منذ مطلع القرن وما يزال. وأنّ فينوس أوريا على هذا الأساس رأسمال موظف ومصدر سعد دائم.

وانقضى عامان. صار الأجانب يقصدون بأعداد متزايدة، الجزر ذات الشواطئ الصخرية والعقبات والمغاور، الظاهرة على صفحة الماء تقريباً، لأنّها الأكثر ملائمة للصيد تحت الماء. وقدّم بريغانتي لبيبو رأسمالاً صغيراً ليبدأ العمل. فاشترى الشاب منزلاً قديماً وقام بتأثيثه على عجل وبدأ يؤجّره للسواح غرفةً غرفة. كما اشترى قارباً يحمل فيه الرياضيين نحو المغاور

حيث ترتع أرتال من أسماك البوري، كما أقام دفّة للغطس وصار يُعطي دروساً في هذا الفن. وكان يعود إلى مارييت بعد انقضاء الموسم.

في عصر أحد الأيام من الصيف التالي (وهو ثاني فصل يمضيه بيبو في الجزر) توجّه ماتيو بريغانتي لمقابلة مارييت. جلس الاثنان فوق كنبتين حديثتين من الجلد الفاتح أمام جهاز التلفزيون.

كانت مارييت تقترب من الحادية والعشرين وقد أصبحت أكثر قوة مما كانت عليه أيام دون سيزار، فالرّدفان أكثر امتلاءً والصدر أكثر ارتفاعاً.

شرح بريغانتي للفتاة كيف أنّ الأرض هي الرأسمال الأدنى ربحاً. فالزيوت المنتجة خارج البر الإيطالي ذات كلفة أقل. وبدأت تحلّ شيئاً فشيئاً محل الزيت المحلي. كذلك فإن أشجار البرتقال والليمون في مناكوري لا تعطي ثماراً توافق مواصفات تجارة التصدير. وإنّ مارييت لن تصمد طويلاً أمام منافسة المزارع الكبرى في صقلية وعلى سواحل سردينيا، والتي بدأت بإنتاج ثمار موحّدة ومتجانسة على الطريقة الأميركية في كاليفورنيا. لكنّ ما يزال بوسعها الآن بيع أراضيها بسعر مغر. فقد ساد في إيطالية الجنوبية اعتقاد قديم ولا يزال، بأنّ القيمة الكبرى للأرض. فيستحسن إذن أن تسرع للإفادة من ذلك قبل فوات الأوان. فالمال الموظف في أراضي مارييت لا يُدِرّ ربحاً سنوياً قدره خمسة بالمئة. أمّا رساميل بريغانتي الموظفة هنا وهناك فتعطيه من ثمانية إلى عشرة بالمئة وأكثر. وهو على أتم استعداد لتقديم النصح إلى الفتاة.

أغرقت مارييت في الضحك، ثم قالت:

– بريغانتي، بريغانتي، ها أنا أراك قد عدت من جديد...

كانت لها أفكارها الخاصة. فأوضحتها له.

لقد بوشر بإنشاء طريق على شاطئ البحر، من شأنّها أن تختصر المسافة بين بورتو البانيزي وسان سيفيري على الساحل الادرياتيكي إلى النصف. والمباشرة بالتنفيذ بدأت من الطرفين. سوف تمرّ هذه الطريق عبر المضيق فتقطع مصرف البحيرة فوق الجسر القديم (الذي سيتم تعريضه طبعاً) بمواجهة الدار ذات الأعمدة تماماً، ثم تسير في محاذاة السبخة، ثم تقطع بستان الزيتون الذي تملكه ماريبت إلى نصفين.

لقد سبق لها أن سمعت بهذا المشروع من أيام دون سيزار، وقد تكدّر بسببه وانتابه الغمّ حتى راودته الأفكار مرّة بهجر المنطقة نهائياً، والاعتكاف في قصر كالالونغا فوق الجبل. إنّ الأعمال تتقدم بسرعة. ولقد تباحثت ماريبت أكثر من مرة مع مهندس الجسور والطرق، المشرف على التنفيذ ومع مدير دائرة السياحة في المقاطعة.

فالطريق الجديدة سوف تصبح ممر العبور الرئيس للأجانب القادمين من ألمانيا والنمسا ومقاطعة فينيسيا، والمتوجّهين نحو بريندیزي وشبه جزيرة أوترانتي. وإنّ الأراضي التي تملكها الفتاة سترتفع قيمتها ارتفاعاً هائلاً. إلا أنّها لا تنوي بيعها رغم ذلك كلّه. فلِمَ لا تقوم بإنشاء فندق في بستان الزيتون مع مطعم ومحطة خدمة للسيارات وبعض الفيلات. وبكلمة واحدة لِمَ لا تبني مجمّعاً سياحياً، فهذه العبارة سمعتها من التلفزيون؟

أمّا والمكان واقع إلى جانب دير القديسة أورسولا بنت أوريا، ومشرف على البحيرة والمضيق وخليج مناكوري كلّه، وعلى مقربة من مرفأ الإبحار نحو الجزر، فإنّ موقعه ملائم ومتميز.

ضحكت ماريبت من جديد.

قالت:

- ماتيو، فكّرت بك من أجل أن تدبّر لي رأس المال وأيضاً من أجل أن توظف رساميلك في مشروعي. تعال نتشارك. وسوف نكسب مالاً كثيراً.

تشبّث بريغانتي بالفرصة المتاحة له فوراً. فقد زار ساحل سردينيا مراراً وتذكّر أسماء المجمّعات السياحية المزدهرة مثل أمالفي ورافيلو وبوزيتانو وكابري، والتي لم تبدأ إلا على هذه الصورة. فالأجانب، لا سيّما الألمان، يقبلون سنة بعد أخرى وبأعداد متزايدة على الساحل الادرياتيكي. والطريق الجديدة سوف توفّر عليهم عبء التوقّف في مدينة داخلية كئيبة مثل فوجيا.

يمكن الاستفادة حتى من الدار ذات الأعمدة، حسبما دار في خلده. فصديقته المعلمة لم تنفذ مشروعها بإنشاء دار في سيبونتي، لأنّ الشرطة المحلية في المنتجع البحري الصغير طلبت مبلغاً باهظاً لقاء موافقتها. أمّا شرطة بورتو مناكوري، التي تدين بالكثير لبريغانتي، فلن تكون على الدرجة نفسها من التشدد. وتشينتيا ما تزال تحت الطلب وكذلك فولفيا. وإنّ تأسيس دار للمتعة على مقربة من المنتجع السياحي وبورتو مناكوري، سوف يدر أرباحاً هائلة.

ولا بد أن تمنح فينوس الرخامية، إذا ما وُضِعت في الصالة الكبرى، بركتها للمشروع.

قال بريغانتي:

- إنّ فكرتك لجديرة بكل الاهتمام.

لقد أُجريت لزوجته عملية جراحية ثالثة لاستئصال سرطان الثدي. وهي لن تعمّر طويلاً بعد بلوغ مارييت سن الرشد. وتخيّل بريغانتي الفتاة وقد انتقلت إلى مناكوري لتستقرّ في الشقة المتفرعة عن جناح عصر النهضة من قصر فريدريك الثاني دو سواب. سوف يقوم بتجديد كامل للأثاث لأنّ مارييت

ذواقة. إنّ ماتيو بريغانتي وإلى جانبه زوجة مثلها، وشريكة على شاكلتها، وفوق ذلك كلّه، ابنة دون سيزار حسبما أُشيع، سوف يتخطى كافة العقبات. وسوف يرتفع إلى مصاف رؤسائه الضباط السابقين، وسيصير منهم في موقف الند للند. ولابدّ من أن يصل إلى رئاسة البلدية.

قال لماريت:

- سوف أفكر في الأمر. إنّ فكرتك تستحق الدراسة بتمعّن. وأنا على رأيي الدائم بأنّ رأسك عامر بالأفكار.

جعلته المنظورات الجديدة والتطلعات نحو المستقبل يشعر بشيء من العزاء، بعد تعثر فرانشيسكو في دراسته ورسوبه للمرة الثالثة على التوالي في امتحانات السنة النهائية في كلية الحقوق.

كان رجال الأعمال في فوجيا قد انتهوا آنذاك من تبديد مستندات جوليا وماريا وإلفيرا. وما كان من ماريت إلا أن قامت، على أثر نزاعات متكررّة بينها وبينهن، بطردهنّ من الدار ومعهنّ طونيو. فمضت إلفيرا للعمل خادمة في كالالونغا عند أحد أقرباء دون سيزار. أمّا العجوز جوليا وابنتها ماريا فكانتا تعملان، حين يوافق أحد الوقافين على تشغيلهما، في تعشيب بساتين البرتقال والليمون وفي استخراج الماء لسقاية الأشجار. أمّا طونيو فمضى ليحتل مكاناً خاصاً به بين صفوف العاطلين عن العمل، وقوفاً بمحاذاة الجدران حول ساحة بورتو مناكوري الكبرى. فكان يصغي، وهو واقف هنالك طول النهار، للأغاني التي تنبعث من كوى السجن المفتوحة في طابق السراي الأرضي. وغالباً ما كان قادراً على تمييز صوت جوستو، خادم منهل نادي الرياضة القديم، الذي لم يكفّ عن ملاقاة المتاعب على أيدي القاضي الجديد، لا سيّما أنّ الضغينة في قلب بريغانتي ثابتة لا تتزحزح.

وأمّا ماريت فلم تعد تغني، مذ أن اشترت جهاز تلفزيون.

مرّ بمدينة فوجيا أحد المؤرّخين الدانمركيين، فوقع فيها على مجموعة دون سيزار الأثرية وعلى عمله المخطوط من ثلاثة آلاف صفحة. وقد أُعجب به أيما إعجاب، وأذهلته الرؤى الذكيّة والعميقة جداً في أغلب الأحيان، لذلك العلامة المحلي، والدقة المتناهية في معلوماته وتوثيقاته. فاستوحى منها جوهر مؤلّف كبير حول حاضرة أوريا القديمة. وهو المؤلّف الذي توقّع أن يكون له دويّ عالمي بين صفوف الاختصاصيين في تاريخ المستعمرات الإغريقية إبّان العهد الهيلينستي في إيطالية الجنوبية.

* * *

عبود كاسوحة

- من مواليد القصير - حمص، ١٩٣٨.
- مجاز في الأدب الفرنسي، من جامعة دمشق ١٩٦٣.
- يحمل دبلوم في التربية ١٩٦٥.
- عمل في الصحافة لثلاثة أعوام، وتميّز بكتابة المقالة.
- عمل مدرّساً للفرنسية حتى التقاعد عام ١٩٩٨.
- عضو في اتحاد الكتاب العرب، ومقرر جمعية الترجمة لعدّة أعوام.
- ترجم كافة الأجناس الأدبية والفكرية والفلسفية:

الرواية، المسرحية، النقد الأدبي، الأعمال الفلسفية...

لكنّه يزهو خصوصاً بأنه كان أوّل من ترجم أعمال فيلسوف عصر الأنوار، الموسوعي «ديدرو»:

ابن شقيق رامو، جاك المؤمن بالقدر، رسالة حول العميان، حلم دالامبير.

وقريباً مفارقة الممثل...

ومعظم الترجمات صدر عن وزارة الثقافة.

- قلّدته السفارة الفرنسية بدمشق في صيف ٢٠٠٧ وساماً، بعد صدور مرسوم عن الحكومة الفرنسية ووزير التعليم والبحث بتسميته:

«فارساً من رتبة السعف الأكاديمية»

تقديراً لجهوده في نشر الثقافة الفرنسية.

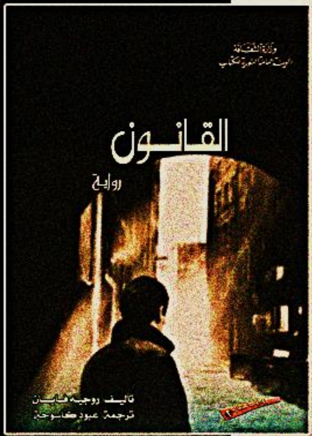
- كرّمته جمعية الترجمة في اتحاد الكتاب العرب في آذار ٢٠٠٨.

- لم ينقطع المترجم عن صقل لغته العربية، التي يهواها حتى العشق، مؤمناً بأنها الكنز الذي لا يفنى، بعد أن تنضب آخر قطرة نفط من الأرض العربية.

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١١

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



يحلل روجيه فايان، وهو يراقب السكان في منطقة من إيطاليا الجنوبية، الطبقات المختلفة التي يتكوّن منها المجتمع، فيرصد نزاعاتها الداخلية وتواصلاتها وعداواتها. فيخوض شخوصه، من الأغنى إلى الأفقر، ومن الأوسع نفوذاً إلى المسحوق، قتالاً متواصلاً في سبيل ارتقاء مدارج السلطة، ولإرواء انحرافاتهم أو في سبيل تحصيل لقمة العيش.

وإذ فازت هذه الرواية «الاجتماعية» بجائزة غونكور لعام ١٩٧٥ فقد تحوّلت إلى فيلم سينمائي أخرجه جول داسّان، من بطولة لولو بريجيدا وميلينا ميركوري وإيف مونتان ومارسيلو ماستروياني.

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١
سعر النسخة ٢٤٠ ل.س أو ما يعادلها